منصــف المرزوقــي

دع وطنـــــي يستيقـــــــــــــظ

ويوم نعيد للخطاب السياسي مصداقيته

ونبني دولة القانون الكفيلة بلجم الذئبوية المكيافلية

ونشيّد دولة المؤسسات الديناميكية بالمشاركة الفردية في كلّ دواليب الخلق والإبداع والعطاء مع ضمان التجدد بالتقييم والتداول على المسؤولية في كلّ مستوى . فإننا سنكون قد تقدمنا خطوة هامّة ستجاوز وضعيتنا كفئران المختبرات التي يجرى عليها التاريخ تجاربه . سنكون قد روّضنا السياسة بعد أن طال استبدادها بنا إذ تصبح هي فأر التجربة ونحن الجرّبون .

الفهرس

الباب الأول : الإنسان

الموبقات وعقدة ايفانوف

عائشة بلاحقوق

المطاردون

المضطهدون

المقدسات الجديدة

الباب الثاني : الناس

عندما يتمرد الناس

ذاكرة الناس

امرأة من عامة الناس

الباب الثالث سياسة للإنسان والناس

بين الملائكيين وبني مكيافال

ضد الشخصانية

صبرا و شاتيلا

أي فكر للصحوة القومية

الباب الرابع : في زنزانة الماضوية

"عاش الشقي على رسم يسائله"

أسئلة إلى كل العقائديين

الماضي الحرام

الباب الخامس :الحصاد و الهشيم

المخدوعون

الهشيم و القنابل الموقوتة

التجربة العظمى و القضية الأولى

منعطف الحصاد

استراتيجيات المواجهة

في المشروع التحرري

برنامج للعشرة آلاف سنة المقبلة .

الإهـــــــــداء

سيّدي رئيس محكمة أمن الدّولة

بعد الاستقلال قلتم لنا أنّنا من هنا فصاعدا سنعيش في كنف " الديمقراطية الثورية " وبعد التغيير السياسي قلتم أنّنا سنعيش في " كنف الديمقراطية الشعبية " . وأخيرا قلتم بل سنعيش في كنف " الديمقراطية المسؤولة " .

ونحن هنا نمثل بين أيديكم لأننا قلنا ونرّدد اليوم أننا نريد من هنا فصاعدا أن نحيا في كنف ... الديمقراطية فقط

مواطن عربي متهم بـ... الخ الخ ...

إلى هذا المتهم وإلى عشرات الآلاف الآخرين أهدي هذا الكتاب

هناك حيث لا يلابس الفكر الخوف ويكون الرأس متلعا إلى العلا

هناك حيث تكون المعرفة حرّة

هناك حيث لم يجزأ العالم بن حواجز ضيّقة مشتركة

هناك حيث تنبثق الكلمات من أنوار الإخلاص

هناك حيث الجهد الذي لا ينضب ويبسط ذراعيه نحو الكمال

هناك حيث لا يضل العقل النيّر في الصحراء الموحشة في العادات البالية

هناك حيث يتقّدم الفكر – الذي تقوده أنت – في المدى الرحيب من الفكرة والعمل

أجل – في نعيم الحرية أبتاه – ودع وطني يستيقظ

طاغور

بســم الله الرحمان الرحيم

كلمـــة الناشـــــر

عند بعث " دار النشر للمغرب العربي " منذ سنوات كانت تخامرني مشاريع طموحة للوقوف بجانب الملتزمة وتدفعني إدارة صادقة للإسهام في نشر كتب الرّأي التي كنت أبحث عنها في معارضنا العربية للكتاب وكنت أتساءل لماذا لا يقبل الناشرون إلاّ على كتب الآداب والتراث خاصة .

فهل أن المؤلف الذي يتجاسر على تحريك السواكن لا يجد من يغامر بطبع كتبه أم أن المفكر العربي أصابه الجمود ؟

قد أكون من الحالمين المتفائلين لاعتقادي بأنه ليس أحق من تونس اليوم بعد بيروت من إشاعة المعرفة وتدعيم الفكر ونشر الحضارة بفضل موقعها وما تزخر به من مؤهلات وطاقات .

فمن " دار النشر للمغرب العربي " ببرج بورقيبة بتونس العاصمة انطلقت صحيفة " الرأي " ثم صحيفة " المستقبل " واختلطت لسنوات عديدة مهمتان : الصحافة والنشر وطغت الأولى على حساب الثانية حتى اضطررت أن أختار أما الانقطاع إلى الصحافة أو إلى النشر فكانت الصحافة بدون تردّد ولا حساب .

وجاءت إلى تونس سنة **1983** قيادة منطقة التحرير الفلسطينية فاحتضنت المؤسسة مجلة " وطني " لسان جيش التحرير الفلسطيني ومنشورات التوجيه السياسي والإعلام الفلسطيني فكانت مهمة شغلتها عن مهامّها الأصلية ...

وجاءني منذ أسابيع إلى مكتبي بجريدة " المستقبل " الصديق الدكتور المنصف المرزوقي وهو على أحرّ من الجمر ليقول لي أنه فرغ من تأليف كتاب وبدون مقدمات فتح محفظته وأخرج مخطوطة وقال : سوف أرحل عن تونس في مهمة بالخارج لمدّة شهر وأريد أن أجد الكتاب جاهزا عند عودتي لأن الظروف التي نعيشها لا تسمح بإرجاء الأمر إلى غد ...

وقرأت المخطوط فوجدته يعكس ما يخالجنا جميعا في تونس من هموم ومفاهيم عصرية بحثا عن توازن اجتماعي جديد وينم – رغم تجاسر لفظي أحيانا – عن إكبار لتونس وإيمان بحرية الإنسان ودعوة إلى الديمقراطية كوسيلة للخروج من التخلف وارتياد للأفاق البعيدة فراهنت على أن يكون " دع وطني يستيقظ " فاتحة لسلسلة ستتواصل بحول الله على قدر همّة أقلامنا الوطنية .

تونس **9** أفريل **1986**

اسماعيل بولحية

تقـديـــــــــم

محمد الشرفي

لقد اكتشفت بكل سرور وإعجاب الدكتور منصف المرزوقي منذ بضع سنوات من خلال مؤلفاته ومقالاته في جريدة " الرأي " الغراء , وأحببت فيه هذا الحماس الفياض الذي يلاحظ من خلال دفاعه عن حقوق الإنسان وهذه الطريقة التحليلية العلمّية التي يستعملها في بحثه عن حال ومستقبل الأمة العربية بصفة خاصة , والإنسان بصفة عامة وكنت في غالب الأحيان أؤيد تأييدا كليا الأفكار والنظريات السياسية التي يعرضها ويدافع عنها .

وتوطدت العلاقات بيننا منذ أصبحنا نتعاون داخل الهيئة المديرة للرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان ونشاهد بالممارسة اليومية تطابق أو تكامل وجهات نظرنا . لذلك لم أتردد ولو دقيقة واحدة لما عرض عليّ منذ أيام شرف تحرير مقدمة لهذا الكتاب الجديد الذي فرغ من وضعه مؤخرا .

وقرأت الكتاب ملتهما صفحاته بكل شغف فوجدت فيه ما هو معروف عن مؤلفه من حساسية مرهقة وتجاوب عميق مع هموم الناس وآلامهم وحبّ فياض للشعوب العربية عامة والشعب التونسي خاصة والطبقات الفقيرة منه بصفة أخص حتى أنني خلت نفسي في بعض الأحيان أقرأ تارة ديوان شعر وأخرى نقدا سياسيا لاذعا أحببت فيه الشكل والمضمون على السوى من ذلك استهجان الشخصانية ونظام الوصاية والإقصاء والتنديد بالقلاع الفارغة والإعلام اليعيشي ...

وما هي إلا صفحات ثم يعود الطابع العلمي ليفرض نفسه .

وليس المشكل الذي يتعرض له المؤلف بالتحليل والتحميص هيّنا ولا بسيطا بل هو من أعمق وأعوص المشاكل التي تعترض الباحثين السياسين بل وكل المجتمعات في أواخر هذا القرن وهو ما سمي بأزمة الإيديولوجيات , مشكل تعرض له مئات الباحثين من جميع أنحاء العالم وإن كانت أسبابه بدأت تتضح الآن إلا أن المخرج منه مازال يكتنفه الغموض .

ومما تجدر ملاحظته أن لأزمة الإيديولوجيات نتائج تختلف حدتها من مجتمع لآخر, وتشتد هذه الحدة بالخصوص في مجتمع مثل مجتمعنا تكاثرت فيه التناقضات واشتدت حدّتها من أجل البون الشاسع الذي يفرق بين المواطنين من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومن أجل كوننا ما أن خرجنا من معركة التحرر الوطني حتى دخلنا فترة انتقالية جديدة اختلطت فيها السبل واختفت معالم الطريق حتى أننا أصبحنا لا ندري إلى أين نحن ذاهبون . وأكبر دليل على ذلك الحيرة الكبرى التي يعيشها منذ حوالي عشرين سنة شبابنا وخاصة الجزء المثقف منه أي الطلبة وهم إطار الغد ومحرّكه الأساسي .

فقد ولدت الحركة الطلابية في تونس تقديمه أي اشتراكية ديموقراطية , لكنها – ربّما من أجل مطاردة السلطة لها– سرعان ما تطورت في اتجاه أقصى اليسار مما جعلها تفشل في تعبئة الجماهير . وقد يكون هذا الفشل أحد الأسباب الرئيسية في ظهور النظرية المعاكسة أي نظرية تسيّس الإسلام . إذ بعث منذ حوالي عشر سنوات القطب الثاني في الحركة الطلابية أي القطب الإسلامي .

وبالرغم من التباين الهائل بين القطبين في الحركة الطلابية فإنهما يلتقيان في مبدأ سلبي واحد هو عدم الإيمان بالديموقراطية أو على الأقل عدم الإيمان بها كمبدأ أساسي جوهري في حدّ ذاته . فهذا يعتبرها شكلا بورجوازيا يتناقض مع ما يظن أنه جوهر الماركسية بدعوى أنها علم لا يعقل أن نناقش قوانينه الثابتة ثبوت العلم أي ثبوت أن واحد وواحد يساوي اثنين وذاك يعتبر أن في الديمقراطية خطر أعطاه السيادة أي سلطة من القوانين للشعب في حين أنه من الواجب الامتثال للقوانين السماوية دون إمكانية نقاش جدّي حول ملاءمتها لواقعنا الاجتماعي المعاصر . فالقاسم المشترك بين القطبين هو إذن اعتقاد كل منهما امتلاك حقيقة لا جدال فيها . والاعتقاد اليقيني في امتلاك الحقيقة المطلقة أدّى دائما عبر كل التجارب التاريخية ومازال يؤدي إلى أبشع أنواع الديكتاتورية أي سلطة من يقتل خصومه ويقضي على حرية شعبه وهو مرتاح الضمير .

من الواجب أن تتجه في أقرب وقت ممكن مجهودات باحثينا الاجتماعيين لتحليل أسباب انزلاق الشباب في هذين التيارين وابتعاده عن الاتجاه الديموقراطي . وقد يكون من هذه الأسباب أن النظام نفسه ارتكز على فكرة أن السيادة للشعب ولكنه في الواقع مارس السيادة لنفسه على الشعب فكانت الوصاية وكان الإقصاء . أو أن النظام ادعى إصلاح المجتمع وتعصيره وكانت النتيجة ذوبان الهوية وتشويه التاريخ القريب والمعاصر والفوارق الشاسعة في مستوى العيش ...

وكذلك الأمر في غالب أنحاء الوطن العربي حيث انفردت بالحكم أنظمة تدعى العمل في سبيل التنمية أو في سبيل الوحدة العربية أو في سبيل تحرير فلسطين ومن أجل ذلك سمحت تلك الأنظمة لنفسها بمصادرة كل الحريات الأساسية وبفرض الحزب الواحد والرأي الواحد مع كل ما يصاحب هذا النظام من قمع وتعذيب وتصفية جسدية كل هذا باسم أهداف نبيلة لم يقع الوصول إليها ولا حتى الاقتراب منها . ذلك أن الشعوب لا تقاد إلى الجنة بالسلاسل ونبل الأهداف السامية يبقى مستحيلا في ظل أنظمة الوصاية و الإقصاء .

من الواجب إذن إعادة الاعتبار للمشروع الديموقراطي وهو ما بدأت تنادي به منذ سنوات أحزاب سياسية وشخصيات مستقلة في تونس وفي أقطار عربية أخرى عديدة .

ولكن هذا المطلب يحتاج – رغم كونه بديهيا – إلى عمل تأسيسي أي إلى دراسة اقتصادية واجتماعية وإنسانية تعطي له ركيزة صلبة وتجعل منه أحد الأهداف الأساسية التي من الواجب أن تؤدي إليها الفترة التاريخية التي يعيشها مجتمعنا اليوم .

وجاء هذا الكتاب ليقيم الدليل على أنه إن كان في الإمكان" للحضارة الزراعية ", أن تتعايش مع العبودية , وإن ذهب بعض فلاسفة القرن التاسع عشر إلى تأليه الطبقة الشغلية في" الحضارة الصناعية ", فإن عصر الإعلامية والروبوتية أو ما يسميه الدكتور منصف المرزوقي بـ " الحضارة الرابعة " يقتضي تجنيد الطاقات الفكرية العديدة والهائلة وهو ما لا يتم إلا في جو ملؤه حرية العقيدة والتفكير والتعبير والاجتماع أي جو يسمح لكل فرد بالمشاركة في اتخاذ كل القرارات التي تهم الجماعة وهو ما يسميه المؤلف " المشاركية " .

وإن كنت أشك في إمكانية القفز بسهولة من الحضارة الزراعية إلى الحضارة الإعلامية دون المرور بفترة تتداخل فيها عناصر من الحضارة الصناعية مع عناصر من الحضارة الإعلامية إذ لا بد من القضاء على البطالة والأخذ بأولويات التكنولوجيا وهو ما لا يتم في مرحلة أولى إلا بالصناعة فإن النتيجة من الناحية السياسية تبقى لا شك فيها لأن التقدم بهذه السرعة يقتضي حتما تجنيد كل

طاقات الجماهير الشعبية الواعية والمنطقة كما يقتضي تقديم تضحيات لا يمكن أن تؤدي أكلها إلا إذا قدّمت عن اقتناع وطواعية وكل هذا لا يتم إلا في جو وتحت نظام يتّسمان بالديموقراطية الحقيقية .

وهكذا لم تعد الديموقراطية مجرد أخلاق أو مثال للعدل أو نمط حكم محبب للقلوب بسبب جماله الفلسفي والإنساني فقط بل أصبح فقدان الديموقراطية نتيجة التخلّف وتوفرها الشرط الأساسي للخروج منه .

سيكون فضل هذا الكتاب عظيما لأنه يأتي بالبرهان على أن لا مجال لحقيقة سياسية مطلقة ولا لحاكم ديكتاتوري عادل , أن كل من يتسلط على الشعب ويحكمه بطريقة غير ديموقراطية يساهم في تعطيل عجلة التاريخ وفي تأخير النهضة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وهكذا يسحب البساط من تحت كل من يدّعي العمل من أجل الصالح العام إذا كان يمارس الوصاية والإقصاء , وكل من يدعو إلى إيديولوجية إذا كانت تحمل في طياتها نظام الوصاية والإقصاء . وينتفي هكذا كل تبرير للديكتاتورية مهما كان نوعها ومهما كان تاريخ أو فلسفة من يمارسها .

لقد ناضل الشعب في أغلب الأقطار العربية من أجل التحرر من المستعمر طوال النصف الأول من هذا القرن ويكتسي اليوم نضاله من أجل الديموقراطية وحقوق الإنسان نفس الخطورة ونفس المشروعية .

محمد الشرفي

نائب رئيس الرابطة التونسية لحقوق الإنسان

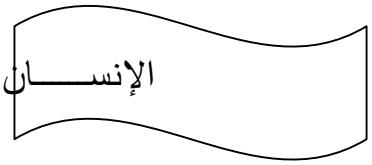

يا الله تجيب أو لا تجيب

أنا لئن باغتني الموت

وفارقت القريب والحبيب

وحشرتني في جهنّم

فأفصح

التعذيب

سوف عبيد

إن اختفاء " الأنا " من خطاب رجل العلم ورجل العقيدة خدعة تهدف إلى التعتيم على ذاتية وإضفاء هالة الموضوعية والقدسية على كلام يريد نفسه محور الكون ومركزه , ومن ثمّة فإن ذوبانه هو في الواقع منتهى الأنانية والنرجسية . لذلك على الأنا أن يظهر في كل خطاب لا كمركز لهما وإنّما كدليل على وعيه بأن خطابه نسبيّ وأنّه رأى يدرك أنه رأى . **ادقار موران**

من سجل عربي طويل حافل بالفظائع والفضائح (كتاب شرق المتوسط لعبد الرحمان منيف)

''انزع ملابسه .. وحضّر الحبل .

كانت مقاومة بائسة أقرب إلى العبث . بعد دقيقة أو دقيقتين وجدت ملابسي كومة إلى جانبي وأنفاس عبد تلهث في ظهري , وهو يشد الحبل حول يدي . ماذا يستطيع هذا الخنزير أن يفعل ؟ البكارة ؟ أن يدعو عشرة من حراسه ويفعلوا ما يشاءون ... هذا أقصى ما يستطيع . سمعت القصة أكثر من مرة . هددني نوري أكثر من مرة, قررت أن أموت تلك الليلة . ليفعل نوري أي شيء . لم أعد أطيق أن أظل حيا يوما واحدا .

أية روح أبالسة يمكن أن تعيش في الإنسان ؟ لا أريد أن أتصور أي وصف , أية كلمة لأقول أن نوري هو كذلك .

أمسك مثل طبيب بخصيتّي . بدأ يضغط بهدوء أول الأمر , ثم شدهما بعنف إلى أسفل , أحسبت بروحي تخرج من حلقي , لا يمكن لإنسان احتمال هذا الألم كله .. تركهما ...

أحسست بهما ثقيلتين , متدليتين كأنهما أجزاء غريبة , وبدأ يتسرب الألم إلى أمعائي حادا مثل سيخ النار . لا أعرف من أين أتى بذلك الدبوس الكبير ,كان أكبر دبوس رأيته في حياتي .. أشعل عود ثقاب, أشعل سيجارة ووضع الدبوس فوقها . . تمنيت في تلك اللحظة لو يغرسه في قلبي . لو فعل لأنتهى كل شيء . لكن إبليس المجنون العابث لا يريد أن يقتلني . من جديد رأيته يمسك خصيتي ويغرز الدبوس الآخر ... أي إله يمكن أن يكون في هذا الكون ويرى ؟ الإنسان هو الإله .

أشيلوس , يا بقرة بيضاء مقطوعة السيقان (3) , ألا تعرفين كم مرة يموت الإنسان وكم مرة يولد ؟ التفتي إلى الشاطئ الشرقي , لتغرزي دموعك في الأماكن المظلمة , وانظري : بقايا البشر .. الضحايا والجلادين .. بقايا البشر! ''

قال دستويفسكي :

''من غير الممكن أن تحب الإنسان الإنسانية في نفس الوقت فيا هذا أو يا تلك '',

ولم أفهم سنينا طويلة أين يكمن التناقض إلى أن اكتشفت أن عذابات الإنسان قد تأتي من أعداء الإنسانية وقد تأتيه أيضا من أصدقائها والقيّمين على خلاصها وزال التناقض تماما يوم وعيت بعمق المظالم المسلّطة على الإنسان باسم الله والشعب والجماهير والإنسانية ومصلحتها العليا لذلك أصبحت لا أحبّ " الشعب " ولا " الجماهير " ولا " الإنسانية " وأنتقل مركز الثقل في تفكيري من هذه الضبابيات الميتافيزقية بل الإرهابية إلى الكائنات الحيّة , الفردية المعذّبة التي تتحدث باسمها المفاهيم – المخيفة , البعابع النظرية , نعم أصبحت لا أفسح المجال في الفكر والممارسة إلاّ للنّاس والإنسان .

وباسم هذه المفاهيم – البعابع كتبت مثل هذه التعليمات التي يتلقاها الجلادون في بعض أقطارنا . والنصّ للصحفي الفرنسي بجريدة لوموند برونسال هيجور (1) أخذه من تقارير منطقة العفو الدولية عن دولة عربية وترجمته وأنا في حالة غثيان . رجائي أن تقرأه كلّه مغالبا غثيانك أنت لأن عليك أن تعلم :

أن هذه الممارسات موجودة (شأنها في هذا شأن أغلب بلدان العالم) من الخليج على المحيط . إلى يومنا هذا. وهي قاعدة وليست شاذة .

إن هذه الموبقات تمارس في ظل أنظمة تتهدّج أصوات مذيعيها وهم يتحدّثون عن الشعب والجماهير والوحدة والحرية والديموقراطية والاشتراكية , والعدالة والإنسانية والإسلام والتحرّر وفلسطين أي باسم هذه المفاهيم التي أسميتها برايات التمويه والتي يمكن أن نسميها من الآن الإرهابية لا أنّها تلّوح في وجه كلّ من يفكّر لإخماد صوته (ومن يجرؤ على مناقشة الله أو الشعب) , وإنما لأنّها أصبحت اليوم المصدر الأول والذريعة للإرهاب المنظم والشرعي .

1- يعرّى المتّهم

2- ينتف شعره

3- تحرق أعقاب السجائر على جسده في الأماكن الحسّاسة

4- تحرق الفروة الجلدية للشعر

5- تستأصل أظافره

6- يربط جهازه التناسلي بخيط رفيع من النيلون ويعلّق الخيط في مسمار على الحائط في حين يعلّق المتهم على الحائط المقابل وعلى أحد الجلاّدين أن يضرب على خيط النيلون الممدود .

7- يضرب بالفلقة على القدمين مائتي مرّة

8- يمدّد داخل حمّام مملوه ماء باردا

9- يحشر داخل عجلة مطاطية ويضرب ضربا مبرحا

10- يصلب رأسه إلى تحت

11- يمنع من الجلوس أو الامتداد أو النوم أياما مع الحفاظ على ذراعيه فوق رأسه طول الوقت .

12- يوقف مدّة طويلة على قدم واحدة ويضرب كلّ مرة إن وقف على قدميه

13- يجبر على الجري حاملا الأثقال تحت الضرب إلى أن يغمى عليه .

14- يجلس على خازوق

15- يجلس على قضيب حادّ

16- يعذب بالكهرباء , خاصّة في الأماكن التناسلية

17- ينفخ بالماء أو الهواء

18- يغتصب جنسيا

19- تستأصل أجزاء من لحمه بكلاّب

20- يسحل بالسيارة إلى أن يموت

21- يجبر على الجري داخل قاعة واسعة بين عدّة جلاّدين تحت وابل من الضرب

22- يجبر على شرب بوله

23- يرمى وسط خزان ماء مكهرب

24- يربط جهازه التناسلي لمنعه من البول بعد حقنه بالأدوية المسيلة للبول . وللقائمة بقية ستتفتق عنها عبقرية الجلاّدين الرجعيون منهم والثوريون على حدّ السواء .

عقـــــدة إيقانـــــوف

في كتاب الصفر واللاّنهائي (1) , يقصّ علينا آرثور كوستلر مأساة روباتشوف وهو مثقف وكوميسار سياسي روسي وقّف حياته على نصرة الثورة البولشفية إلى أن انتهت هذه الحياة في إحدى أقبية السجون الستالينية بتهمة التآمر على نفس هذه الثورة . هاهو عشية إعدامه في زنزانته يتلقى وعظا من قاضي التحقيق إيقانوف , والخطاب يكاد يكون بحذافره خطاب كل رهبان الاستبداد عبر العصور أي غد ستشرق الشمس أيها الرفيق بعد أن نستأصل الثلاثين الفاسدين باسم النظرية المعصومة لينعم الثلث الصالح . " تقضي الكوارث الطبيعية والأوبئة على ملايين البشر سنويا دون أدنى جدوى , وتريد منا أن نتراجع أمام التضحية ببعض العشرات من الآلاف في إطار أعظم تجربة تاريخية ؟

ماذا تقول في الجحافل التي يقضي عليها سوى التغذية ومرض السل بمناجم الفحم والزئبق , في مزارع القطن والأرز . لا أحد يفكر فيهم لا أحد يطالب بسبب موتهم , أما نحن فيكفي أن نعدم آلاف من الأشخاص الضارين موضوعيا , فإذا بالزبد يملأ أفواه كل إنسانيين في العالم أجمع . نعم لقد صفّينا الجزء الطفيلي من الفلاحين , وتركنهم يموتون جوعا . لقد كانت عملية جراحية فكان علينا أن نقوم بهذا مرة واحدة إلى الأبد . لذلك الزمان الطيب قبل الثورة ,كان يموت منهم عدد مماثل في عام واحد بالجفاف , لكنهم كانوا يموتون بلا سبب أو نفع . فالطبيعة تقوم بسخاء بالغ بتجارب لا معنى لها ولا هدف على الإنسان . لماذا لا يكون للإنسانية الحق في أن تجرب على نفسها ؟ هل اطلعت على مناشير بعض الجمعيات الرافضة للتجارب العلمية على الحيوان ؟ ستجد فيها ما يقنع بفظاعة هذه التجارب وما يمزق فؤادك وأنت تقرأ عن الطائر الذي يئنّ ويلحس يد جلاّده وهو يستأصل كبده , وستصاب بالغثيان مثلما أنت مصاب به هذا المساء . لكن تصور كان لهؤلاء الناس قدرة على منع هذه التجارب . أكنّا نتوفر على المصل الواقي من الكوليرا أو الخناق أو الحمّى التيفية " ؟

وقد أسميت هذا المنطق عقدة ايقانوف ويلخصها المثال المعروف " الغاية تبرر الوسيلة " , والعقدة كما علمنا علم النفس مجموعة من الأفكار والأوهام الخاطئة التي تترسب في شكل خطاب له كل مظاهر المنطق , وهو في الواقع مرض وهوس .

لا أدري هل فهم روباتشوف وهو على هاوية الموت أن هو الذي صنع ايقانوف وعبّأه وشحنه بذلك الصلف الذي جعله يقرر أن القضاء على ملايين الفلاحين عملية جراحية ضرورية وتطهيرية ؟ وهل أنه أدرك الخلل الرئيسي في خلقه لإيقانوف وأمثاله ؟ هل اتضح له أن النظرية المعصومة عندما تسنّ أن الغاية تبرر الوسيلة , إنما تفتح فم الثعبان الذي سيلتهم طبعا أعداء الثورة فأعداء النظام , فأعداء الرفيق الأكبر أي إعادة أصحاب الثورة نفسها ثم عامة الناس ؟

هل فهم وهو على بال الأبدية أن مبدأ : " الغاية تبرر الوسيلة " يؤدي أوتوماتيكيا إلى أن تصبح الغاية يوما هي الوسيلة والوسيلة هي الغاية ؟

نصيحة إلى مثالي (خاصة إن كان شابا غرّا)

إن أتاك أحدهم بخريطة الغد الأفضل وحتمية الوصول إليه عن طريق الدعوة الفلانية أو المذهب الفلاني فلا تفقد صوابك بسرعة أمام الإغراء , فكم من جيل تمخض فولد خازوقا , وكم من خيبات أمل مريرة عاشها أمثالك عبر التاريخ وما أكثرهم , حتى لا تتكرر المهزلة – المأساة تأمل جيدا في البضاعة الإيديولوجية , لا تركع مباشرة أمام المفاهيم الإرهابية : شعب – عدالة اجتماعية حق أمة عربية – اشتراكية – حتمية التاريخ – أعداء الإنسانية – تقدم – سلام – الخ ... كن عمليا . فككها إلى أجزائها المكونة البسيطة وطالب بالتوضيح أي ركز على الدور والمكانة التي تعترف بها هذه الدولة للإنسان – للناس لحق المعتقد , لحق التنقل , لحق التجمع , لحق الرأي , للاستقلالية القضاء , لحق مراقبة وتغير الحكام , لحق الإعلام , لحق التعلم , لحق المحاكمة العادلة والعمومية في حالة تهمة , لحق الكرامة للإلغاء التعذيب , لحق المشاركة الفعلية في القرار البلدي والجهوي والسياسي , لحق التمتع بجزء عادل من العمل الجماعي , ذكر صاحبك أنك لم تلدغ من نفس الحجر ألف مرة وأنك ترفض التفريق بين نظرية مثلى لا تطبق وواقعها ينقصها دوما لأنك تجعل من التطبيق أي من كل التجارب الماضية بدون استثناء معيار ومقاييس فعالية هذه العقيدة وقيمتها . وقد يكون صاحب البضاعة معارضا يحلم أو يخطط للثورة , طالب بضمانات وتعهدات وقيده قدر ما تقدر تأكد من موقفه من قضية الغاية والوسيلة وحاول بطرقك الذكية أن تتأكد من أنه ليس موبوءا بعقدة ايقانوف , فثورة لا يكون هدفها إلغاء تعذيب .. ومنح الإنسان حقوقه المبدئية الكلية لن تكون إلا الشكل الواحد بعد الألف لظلم والاستبداد وأسأل التاريخ .

أما إن كان في الحكم هو أو بني حزبه أو عقيدته في بلدك أو بلد آخر فلن يكون بحاجة إلى ضمانات قد تحترم أو قد تداس بالأرجل (وهذا أغلب الظن) فبإمكانك أن تطبق شعارك " أؤمن بما أرى لا أؤمن بما أسمع "

نعم لديك مؤشر يسمح لك بالتأكد من جودة البضاعة . أنظر إلى سجل أنظمة صاحبك في كناشات منظمة العفو الدولي فإن وجدت سجلها ملطخا بالاعدامات والاعتقالات والتعذيب فلا تجادل النظرية المعصومة والعصماء وأعرض عن صاحبك هذا فالبضاعة بالضرورة مغشوشة والرجل في أحسن الحالات غبي مخدوع وفي أسوئها دجال مخادع .

قال البياتي

قيم يصوغ الكذب أحرفها

ويفوح من ألفاظها العفن

العار يأنف أن يصافحها

وتعافها الديدان والدمن

أقزامها أشباح مهزلة

عرى يعيد فصولها الزمن

والصوت والحرمان في يده

عائشـــــة بــلا حقـــوق

عائشة الباكية

" ابراهيم بن ... عضو النقابة الأساسية للتعليم الثانوي بالسيجومي أعتقل منذ مدة ولا يزال رهن الاعتقال في ظروف غامضة . لكن ذلك لم يفت من عزم زوجته التي تأبت على السؤال عنه ومحاولة إيصاله القفة , آخر هذه المحاولات كان يوم الجمعة 10 فيفري 1984 حيث حملت السيدة (...) بعض المأكولات لزوجها فما راعاها إلا والأعوان يدخلونها إلى أحد المحلات وزارة الداخلية لمقابلة زوجها أو تسليمه مكانة معها لكن ... لتحقيق معها حول انتمائه وأنشطته كل ذلك في غمرة من الكلام البذيء ... ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أقتد زوجها وآثار العنف والإرهاق بادية عليه واستعمل كورقة ضغط نفساني على الزوجة للإدلاء " بالحقائق " (الرأي عدد 257)

عائشة المستغلة

" فتح صاحبنا معمل (الزرابي) يشغل فتيات القرية ... وصاحبنا يبيع ويقبض متناسيا جهد الفتات ... وطالبنا بعقد اجتماع .. فحضر صاحبنا كعضو من أعضاء الشعبة (مليتة – جربة) فهل سيكون التوجه الأخير للمعتمد وأي لفتاة قروية مثلي عزلاء من سلاح الأكتاف أن ...

إلى من نتوجه ,, إلى متى يضل صاحب الحق متسول... كذابا ... سارقا ... متشاغبا " ؟ .

عائشة الثكلى

" بولبابة (...) من قابس شاب في التاسعة عشرة من عمره محصل على شهادة في ختم التربص من ديوان العملة التونسيين بالخارج شارك في مظاهرة سلمية يوم 03 جانفي وأصابته رصاصة في رأسه توفي بمفعولها يوم 09 جانفي بمستشفى صفاقس " (الرأي عدد 256) . تعازينا يا أم بولبابة يا أم تونس ... وكلنا أبناؤك وكلنا نحبك و في مأساتك قال معين بسيسو :

" لكن الجماهير أبناء بلا عدد ** فلست وحدك يا أم بلا ولد

عائشة المعذبة

عن مأساة و ... بـ ...

" فقد اعتقلت شقيقتي منذ ما يزيد عن أسبوعين و لا تزال ظروف وأسباب إيقافها غير واضحة رغم محاولاتنا المتكررة للسؤال عنها .

وإنه لمن دواعي الأسف بل الخجل لأن تقع هذه الممارسات التي كن نعتقد بأنها ولّت مع عهد الاستعمار ... فقد وقع نقل شقيقتي إلى مستشفى شارل نيكول نتيجة النزيف التي كانت تعانيه من جراء "كرم الضيافة وطيب الإقامة التي حظيت بهما " وهو ما تأكد من آثار التعذيب التي تعرضت إليه وهي المرأة الحامل .

ورغم إجهاضها وحاجتها إلى رعاية طبية كاملة ودائمة وقع إرجاعها إلى مقر إيقافها دون استشارة الطبيب إضافة إلى رفضهم الكامل إيصالها بعض الثياب من قبل العائلة . "

عائشة المغتصبة

والمجتمع نفسه زاخر بالمظالم , ولأنه زاخر بها فإنها تزاحم ما نعرف في دنيا السياسة . من المآسي التي عرفتها وما أكثر ما يسمع الطبيب من المآسي فتاة تولد وأبوها في السجن وتتهم الأم في شرفها ظلما (و لكن هل من هذا وحده ما يبرر) ويخرج الأب ويرفض الاعتراف بالبنت وتربى هذه الأخيرة تحت وابل من الضرب , وفي جو من الإهانة الدائمة , ويأتي يوم ترمى فيه البنت في الشارع وهي لم تتجاوز العاشرة, وتتلقفها العمة أو الخالة لكن لتعامل بنفس الكيفية وتخرج البنت في ليالي الشتاء حافية لترى أمها , فتقول لها الأم : أطلبي من أبيك أن يعترف بك عند إذن أفتح لك الباب . وعندما تبلغ البنت ترميها العمة أو الخالة إلى الشارع لأنها " بنت حرام " وقد تفسد بناتها وتتلقف الشارع عائشة الشهيدة لتصبح مومسا يبصق عليه عابرو السبيل , وينتهك روحها وجسدها السكارى كل ليلة .

والمأساة اليوم هي القاعدة وليست الشاذة وقد دعيت مرارا في مؤتمر جمعية عالمية للدفاع عن حقوق الطفل وكانت المحاضرات تتهاطل من كل بلدان الدنيا عن تعذيب الأطفال واستغلال الأطفال واغتصاب الأطفال . وكنت أخرج منها متسائلا , أي خالق خلق هذا الكون , وهذا الإنسان ؟

عائشة الغاضبة

سناء عبدلي فتاة لبنانية لم تبلغ العشرين , ضاقت أمامها السبل واستعصت عليها كل الحلول , فالوطن محتلّ وممزق , والشرف الأثيل أهدر عددا لا يحصى من المرّات , والأمة تتراجع كلّ يوم ألف خطوة باتجاه العصر الحجري , تسجّلا سناء شهادة , وتملأ سيارتها بالمفرقعات , وتذهب لترتطم بشاحنة عسكرية للعدوّ (الصحف العربية 1985) حذار من غضب عائشة .

تعيـــش عائشـــــة

يوم يصبح احترام حقوق الإنسان عقلية لا شعارا .

يوم يعود فيه للكلمة وزنها ولضمير وعيه , وللعمل إتقانه وللانضباط شعوره وللرجولة والوطنية قيمتهما يؤمئذ تمسح عائشة آخر دمعة يزول الضباب وبيان الأفق .

وكما يقول محمد بن صالح كتاب أحوال عائشة :

وحقّ السماوات يا عائشة

وحقّ الزياتين كل الزياتين

لنا أن نموت كما النّملة

أو لنا الضحكة القادمة

المطـــــاردون

سنوات وعقود وأجيال والمأساة متواصلة .

اطردوا من قرى اسمها كفر قاسم أو الناصرة أو من مدن تحمل اسم حيفا أو القدس . فوضعوا حلهم وترحالهم بمخيمات في الضفة الغربية . ثم في الأردن . لكن حتى ذلك أعتبر بالأمر كثير , فذهبوا بل قل اطردوا إلى صبرا وشاتيلا وأماكن أخرى لا تقل فظاعة وحزنا . وعندما ضيق عليهم العدو الخناق هنا , قلنا نحن في تونس على بعد 2500 كيلومتر : نستقبلهم ونقاسمهم الأرض

والسماء والهواء وحلوا بيننا وهم يأملون في ممارسة الدرجة الصفر من الحقوق : البقاء على قيد الحياة . لكن القاذفات الإسرائيلية لاحقتهم بحقدها حتى إلى حمام الشط ترفض أن يمارسوا ذلك الحق الذي نعترف به لجل الحيوانات , وتحت الأنقاض تلاقت الجثث الفلسطينية بالجثث التونسية , ضحية نفس الهمجية . هاته الهمجية التي ترفض الحق لمن لا قنابل لهم ولا صواريخ ولا رادارات من آخر طراز في العيش آمنين . على أرضهم , وفي المقابل رأينا كيف تمارس حقوق الهمج : حق التبجح وحق التصرف في أرواح الناس وفي سلطة البلدان الصغيرة وحق احتقار الناس الذي وصل إلى درجة المطالبة بتفتيش شخصياتها وإن أتوا للاحتجاج على الهمجية وذلك طبقا للبند الأول من ميثاق حقوق المتغطرسين والمتجبرين والقاضي بأن لأمريكة وإسرائيل وبعض شعوب الله المختارة الأخرى أن تسوس " المتخلفين " بقطعة السكر وبالعصا لمن عصى .

ولقد عصوا – ولقد عصينا , وعصياننا لن يزداد إلا عمقا وقوة وذلك بموجب حق الفلسطينيين في الحياة , في الوجود , في أرض , في وطن , في سماء بلا قاذفات وهم علّمونا بتضحياتهم الجسمية على طول هذه السنين والعقود أن نصمد وأن نمارس حق العصيان . ولم نكن نعلم أننا سنواجه بالتحدّي يوما في عقر دارنا . أما وقد جاء فنحن مستعدّون لرفعه :

نعم ستدافع عن حق الفلسطينيين في الحياة بيننا وخارج بلدنا .

نعم ستدافع عن حقّهم في أرض وعلم .

نعم ستدافع عن حق الشعوب الصغيرة في السلم والكرامة, وسندافع عن الحقوق المبدئية التي داستها الأنظمة المتخلفة فزادت تخلفا وتجذرا , سندافع عن حق الرأي وحق التقييم وحق الإعلام وحق الديموقراطية ... لأننا أصبحنا ندرك اليوم أنها تزيدنا قوة وصلابة ومناعة , وبالتالي فإنها اليوم وغدا المظلة الواقية من حقوق الهمج ... إنها بالضرورة الشرط الرئيسي للتمتّع بالحق الأول : حق الحياة

امرأة من لهب

جمعني بها مؤتمر إفريقي حول حقوق الطفل في نايروبي ..

كانت تقول ونحن نتحلق حول كيسان الشاي بعد يوم طويل مضني من المحضرات والبيانات والتقارير حول عمق مأساة الطفل وفي هذا العالم المجنون .

الحل الوحيد هو القضاء على الرجال وهذه فرصتنا نحن النساء قد حانت اليوم . ألا يوفر لنا العلم قدرة الإخصاب والإنجاب بدون حاجة إليكم أيها الأشياء التي لا تقوى على شيء بدوننا نحن النساء " . وكنا نضحك معها الساعات الطويلة فقد كانت امرأة مرحة والضحك في إفريقيا مرض معدي واسع الانتشار و كنت أعابثها : ومن سيغازلك يا " مود " خاصة في عمرك إن أفنيت جنسنا الرجالي فتصرخ في وجهي مفتعلة الغضب : غزلكم كله كذب يا مخادعون , انتظر أن نبدأ نحن في تلقينكم هذا الفن . لكن " مود جاكسون " كانت تنسى المرح والمزاح , وكانت نبراتها ترن بصلابة وقسوة الفولاذ القاطع وهي تأخذ الكلمة في الجلسات العامة للحديث عن مأساة الطفل في جنوب إفريقيا .

في هذا البلد يأتي المزارع الأبيض إلى المدرسة الإفريقية ويقول لا دراسة اليوم , أنا بحاجة لهؤلاء للحصاد ويطأطأ المعلم الإفريقي الرأس ويذهب الصبية والبنات إلى الحصاد , هكذا . في جنوب إفريقيا لا يخرج الإفريقي إلا ومعه جواز سفر داخلي يسمونه الباس ومهمة البوليس تتبع الأطفال والكهول للتأكد من عدم حملهم لهذه الوثيقة لتسخيرهم للعمل في الحقول والسجون .

في جنوب إفريقيا حملت كثير من المراهقات في بعض المدارس ولما سألناهن عن الفاعل قلن المدير , كان يقول لنا أنتن معاقبات وكان عقابه لنا الاغتصاب .

في جنوب إفريقيا قانون يحرم العلاقات الجنسية والزواج بين الأجناس وعقوبة التطاول على هذا القانون ثلاثة سنوات سجن للأسود وثلاثة أشهر للمتلبس الآخر إن كان أبيض أو ملونا. وكانت" مود جاكسون " لا تنتهي من سرد فظائع هذا النظام الحقير إلا لتوالي بنبرتها القاسية سرد بقية القائمة وكأن لا نهاية لها . وكانت " مود " امرأة غريبة الشكل : سمراء اللّون لن تنتبه إليها ولو رأيتها في أي شارع بتونس زرقاء العينين جعداء الشعر, كانت مزيجا غريبا من كل الملامح العرقية المعروفة , وكنت أظنها حصيلة إحدى عمليات الاغتصاب الكثيرة الذي خلقت أكثر من مليون أسمر بجانب الأربعة ملايين من البيض والعشرين مليون أسود الذين يشكلون جنوب إفريقيا وأحببت المرأة العجوز لصلابة شكيمتها وقوّة شخصيتها ونضالها الطويل خاصة بعد أن علمت أنها من القيادات البارزة في حزب المؤتمر الإفريقي الذي يقود حركة الثورة المسلحة في جنوب إفريقيا .

وتحدثنا طويلا عن تونس , عن العرب , عن إفريقيا , عن آمالنا وآلامنا المشتركة وتطرّق الحديث يوما إلى الأمور الشخصية , فأريتها صورة لا تفارقني لعائلتي , ضحكت بقسوة قالت : أنت محظوظ انظر لو كنت في جنوب إفريقيا لحكم عليك أنت وابنتك الكبرى هذه أن تعيشا مع السمر الملونين , على أن لا تخرج زوجتك وابنتك الصغرى من مناطق البيض ولما أمكن لكم أن تعيشوا تحت نفس السقف ومرت سحابة على عينيها لم أفهم سببها إلا يوم روت لي صديقة من زامبيا قصة " مود جاكسون " المرعبة .

قالت : " مود " صديقة قديمة اعرف قصة حياتها لا تكاد تصدّق , فقد ولدت من أبوين بيض إلاّ أن تجعد شعرها وسمرة بشرتها رغم زرقة عينيها ,حملت موظّفي الدولة العنصرية على وضعها على قائمة الملونين وتبعا للقانون أمرت عائلتها بنقلها إلى مناطق الملونين وفقدت كل صلة بعائلتها الأصيلة وفي السادسة عشر دخلت

" مود " السجن لأول مرة لأنها تصدت لشرطي أبيض يضرب طفلا أفريقيا في الشارع ودخلت السجن حال خروجها منه لأنها تزوّجت أسود والقانون العنصري يحرّم الزواج بين الأجناس فمود ملوّنه لا يمكن أن تتزوج إلا ملوّنا , ووضعت " مود " ابنتها في السجن أين بقيت ثماني سنوات كاملة , ولمّا خرجت منه قرّرت أنها تهرب من الجحيم فقطعت أكثر من ألف كيلو متر مشيا تسحب طفلة في الثامنة محترفة الحدود ليلا , ولم تصل إلى تانزانيا إلا بعد أشهر طويلة ومن ذلك اليوم هي من ألذ أعداء النظام العنصري وهي المسؤولة عن الحركة النسائية لجنوب إفريقيا وهي الإدانة الحيّة لوحشية هذا النظام الحقير . والمآسي من هذا النوع لا تحصى ولا تعدّ في بلد " الأبارتايد " .

قالت لي " مود " يوم الوداع لقد دفع الجزائريون مليون شهيد في سبيل الحرية ونحن في آزانيا **AZANIA** . ولا تقل جنوب إفريقيا ستدفع خمسة ملايين لكن آزانيا ستعيش حرّة , قل لأهلك في تونس أننا ننتظر منهم الدعم والمعاونة , سلم على المؤسسات النسائية , وبلغ النقابات أن لنا طلبة ينتظرون منحا دراسية وقل لأجهزة الإعلام أن تفضح العنصريين ليلا نهارا . وما على الرسول إلا البلاغ .

افترقنا على أمل اللقاء ,كانت لا تعلم أن ثورة عارمة ستندلع بعد شهرين من لقائنا , في جنوب إفريقيا وأن النظام العنصري سيضطر لإلغاء قانون " العيب " **Immorality Acte** الذي فصل البنت السمراء عن أبويها البيض وكلفها ثماني سنوات سجنا لزواجها من أسود وكنت لا أعلم أنني سأجد نفسي في بلدي وفي نفس الوقت في خضمّ قضية قوامها موضوع من نفس النمط . وأنني سأتجند وأجند ضده لأن مأساة " مود " علمتني أن له ثمنا من دموع الأبرياء .

الطريـــــد

قلت له ونحن في بهوه الفندق وأنا لا أدري كيف أخفي خجلي آسف أنا لا أعرف شيئا تقريبا عن بلدك لصوتو "**Lesotho** " سواء أنه في بلد معزول تطوقه جنوب إفريقيا من كل جهة وأنه بلد مستقل .

مستقل **!** ؟ مستقل نظريا ولكنه مجرد بانتوستان تحكمه مباشرة بريتوريا , ولمست عبر هذا الغضب العاتي في وجه إنسان لا يعرف عمق مأساة أخرى .

ونظر إلي بان ماسيلو برقة وكأنه يريدوني أن لا أخذ في خاطري قلت : كلي آذان صاغية فأحكي لي عن

" لصوتو " وعن هذا الذي آثار غضبك .

قال اسمح لي بأن أقدم لك نفسي , أن الرجل الأول في كنيسة بلدي " لصوتو " ومن المسؤولين الكبار عن المنظمة الإفريقية للكنائس , وقد نجوت من الموت بأعجوبة منذ سنين , فالطاغي المحلي واسمه "جوناتان " هو إحدى هذه الدمى الحية التي ينصبحها النظام العنصري في البلدان كلوصوتو أو محمياته الداخلية التي يسميها البانتوستان , وهؤلاء البشر من أحقر وأقصى الطغاة وأكثرهم شراسة ودموية, هم يفوقون حتى أسيادهم في الوحشية , هذا الرجل الذي يحكم دولة " مستقلة " يتلقى أوامره

مباشرة من بريتوريا , الجيش الجنوب إفريقي هو الذي يحكم مباشرة , والويل لمن يرفع رأسه وقد رفعت رأسي ضد انعدام الديموقراطية والرشوة والاستكانة للنظام العنصري فجاءني القتلة ليلة ,كنت في فراشي أستعد للنوم وكانت زوجتي في الحمام لا أدري لماذا أطفأت أنا النور في نفس الوقت الذي أشعلته هي وفتح القتلة النار على الحمام مما ترك لي الوقت للقفز من النافذة و الالتحاف بظلام الليل وبقية مختبئا أياما عند بعض الناس وكان خروجي من لوصوتو ومن جنوب إفريقيا مغامرة دامت أشهر فمن مخبأ إلى آخر ومن كنيسة إلى أخرى وذلك عبر جنوب عبر جنوب إفريقيا نفسها وبمعاونة الرهبان والمؤمنين إلى أن وصلت كينيا حيث أنا لاجئ , أما عائلتي فقد ذهبت , فقد شنق ابني الأكبر و ... و ... و ... وخنقت العبرات الرجل .

رجل اسمه أوهورو

اقترب مني بهدوء وأنا أتجول في إحدى الحدائق الغناء التي تزخر بها نايروبي (متحسرا على تونس وقد غزاها الإسمنت والزبالة) قال مسلما وبادئا الحديث :

- الأخ هندي ؟

ضحكت في نفسي , لم أكن أتصور أنني سأصبح يوما كسواح سوسة الذي يقترب منهم القوادة والباعة ... هلّو ألماني ... من أين أنت ؟

وكنت قد تعودت بعد ساعات قليلة على هذا النوع من الناس , لكنه كان مختلفا أشد الاختلاف فهو قد تجاوز الخمسين أنيق الهندام ولم أتصور لحظة أنه سيعرض عليّا بائعة هوى أو قلادة من العاج المزيف .

- لا عربي من تونس .
- آه تونس ؟ إذن أنت تتكلم الفرنسية , لقد تعلمت هذه اللغة في بلجيكا ولم أمارسها من زمان .

وتجاذبنا أطراف الحديث بالفرنسية ونحن نتمشى في أجمل حدائق نايروبي . قال حدثني عن تونس , هل صحيح أنها بلد متقدم جدا في إفريقيا قلت وقد انتباتني نعرة شوفينية عابرة : طبعا نحن بلد فهي رابطة حقوق الإنسان مهابة وصحافة حرة واتحاد عمال قوي ومؤسسات مهنية يحسب لها ألف حساب , نحن بلد ألغ تعدد الزوجات, ويذهب جل أطفاله إلى المدارس وتمارس فيه المرأة حقوقها ويجلس فيه المثقفون مع الوزير الأول فينقدونه بحدّة دون أن يخشوا على أرواحهم وأرزاقهم , وتلك عادة قديمة فيا لا أكف عن شجبي ما يجري في بلدي داخل حدوده وفي الإشادة به خارجها وشعرت حقا بالنخوة وهو يضرب كفا لكفا : والله إنه لبلد فريد في إفريقيا .

قلت والآن حدثني عن نفسك من أين أنت ؟

ضحك وقال : من لا بلدا , أنا شريد هائم منذ أشهر بين مختلف دول إفريقيا أنا من جنوب إفريقيا هل أحدثك عن جنوب إفريقيا , عن العشرين مليون إفريقي الذين يعتبرون أجانب في بلدهم ,كيف أصف لك النظام العنصري ووحشيته وقذارته وهل سمعت عن الثورة التي تعصف داخل حدود " آزانيا " , إن شبابنا اليوم في حالة تمرد ونحن مقدمون على حرب أهلية دموية ستدوم العشريتين المقبلتين وستكون محور حديث العالم اليومي وشغله الشاغل , إنها فيتنام إفريقيا . وطفق يتحدث عن الأطفال الثوار في مدن القصدير , عن القمع , عن الإهانة اليومية الملحقة بشعبنا كامل , عن غباء "الآبارتايد " وبلاهته .

قلت : ماذا عنك أنت , قال هربت بجلدي لأنني كنت على قائمة البوليس السياسي , تسللت عبر الحدود إلى أنغولا ومنها دخلت الزاييرثم أوغندا وها أنا الآن في كينيا أتسكع بانتظار الفرصة للذهاب إلى تانزانيا ونحن اليوم بعض انتفاضات بوراليزايت وسويتو ودورابان بالآلاف نبحث عن ملجأ ووطن .

قلت : حدثتني صديقة في المؤتمر عن الدور الذي تلعبه تانزانيا .

قال : إنها مقصد كل مضطهد في إفريقيا وخاصة مقصنا نحن .

لقد أركع النظام العنصري الموزامبيق التي أصبحت تطاردنا , واحتل جزاءا كبيرا من أنغولا أما سلطات لوصوتو فهي تقتلنا وتتعقب آثارنا بلا هوادة , أما " الزمبابوي " وزامبيا وكينيا , فنحن فيها ضيوف ثقلاء لذلك فإن أملنا الوحيد هو تانزانيا و المعلم " جيليوس نييريري " هو بالحق الزعيم الأول في إفريقيا , إنه رمز الاستقلال والكرامة وياما تحملت تانزانيا من آلام وتضحيات من أجلنا , إن جل قواعدنا العسكرية ومخيماتنا موجودة هنا منذ أكثر من عشرين سنة فلا نلقى إلا الحفاوة والترحاب .

قلت :كانت تونس سنوات معقلا لأحرار الجزائر وامتزجت الدماء على الحدود لننعم اليوم بما ستنعمون به غدا .

وجلسنا عن العشب نستظل بشجرة بانيان وارفة الأغصان ... نتحدث عن مهنته كأستاذ حسابيات , عن تلامذته , عن البيداغوجيا وكان يتقد ذكاء وحيوية ومرحا ودهشت وأنا أتصور إنسانا كهذا يحرم من دخول مقهى أو استعمال مصعد أو امتلاك منزل , أو إبداء رأيا لأنه اسود اللون .

قلت وقد زاد فضولي لمعرفته , الآن أين تعيش وماذا تفعل ؟ ضحك وقال : في كينيا لا يحبوننا لأن هذا النظام عميل موالي للغرب . إنني أعيش في خوفا دائم من البوليس وأحاول بشتى الوسائل الدخول إلى تانزانيا للالتحاق بقواعدنا وأحسست من تردده المفاجأ أنه بحاجة إلى مساعدة ما وأن بقية من حياء تمنعه عن الإفصاح وتصورت نفسي لحظة شريدا لاجئا في بعض الحدائق العمومية أقترب من سائح لا أعرفه . الأخ عربي ؟

قال وهو يشد على يدي مودعا شاكرا , ولم يكن يعلم بأنني أنا الممنون منه . قلت له لأداري خجلي وخجله لا تنسى أن تقول أن لنا جنوب إفريقيا أخرى نحن العرب فشعبنا يعيش في فلسطين وجنوب لبنان الاحتلال والاحتقار والعنف قال أما هذه فستكون بالمجان فإسرائيل هي المزود الأول لسلاح وأطفالنا يموتون يوميا بوابل رشاشات أوزي الإسرائيلية وكفاحنا إذن واحد .

قلت بالإنجليزية "**Good Luck**" أي حظ سعيد فردّ " سلام عليكم" وفي مخرج الحقيقة تفارقنا ولوح لي الرجل طويلا بيده , فجأة تذكرت أنني لم أقدم له نفسي وأنني لا أعرف له اسما , ابتسمت قلت سأتذكره دوما تحت اسم أوهورو و أوهورو تعني بالسواحلية اللغة المتداولة في إفريقيا الشرقية : حرية .

سلام عليك يا أهورو وسلام على كل جنود الحرية في كل بقاع الأرض , وسلام على دار السلام عاصمة تانزانيا معقل الأحرار وإلى الأمام لتدخل أزانيا يوما دار الحرية والسلام .

عن سياسي محترف أنه قال : مادمت ضعيفا فسأطالب بحقوقي وفقا لمبادئكم , ويوم أصبح قويا سأحرمكم من حقوقكم وفقا لمبادئ أنا – فرانك هربرت .

في إطار التمايز الاجتماعي وتصاعد الوعي ووهن القلاع الفارغة المتزايد دخل الناس في تونس إبان العشريتين الأخيرتين في عملية بناء مؤسساتهم الممثلة لأهدافهم ومطالبهم فكان نضال نقابة العمال من أجل الاستقلالية وكانت الصحافة الحرة ومن أول براعمها جريدة الرأي , ثم ظهرت الأحزاب المعارضة ودخل القضاء في مناوشات مع النظام الحاكم لإرساء دعامات استقلاله هو الآخر , وتابع الطلبة معاركهم الضاربة لبناء تنضيماتهم الخاصة .

في هذا الجو الحي من التهيكل الاجتماعي الجديد والمتصاعد السرعة خارج القلاع الفارغ المهجورة التي شيدها حزب الوصاية والإقصاء ولدت الرابطة التونسية لحقوق الإنسان سنة 1977 أول رابطة عربية من نوعها وكان ميلادها حدثا حضاريا وسياسيا في آن واحد.

وقد لا يقدر عرب المستقبل أهمية هذا الحدث , إذن لن يعيشوا ربما ما عاشه جيلنا وما سبقنا من أجيال من انتهاك دائم مستمر " فطري " طبيعي لأبسط حقوق الإنسان في ظل حضارة لا تؤمن بالفرد لكن بالمجموعة , وتحت سيطرة أنظمة سياسية لا ترى في الناس إلا الوسيلة التي يمكن أن تحقق بها الغاية الوحيدة : السلطة والتسلط . وكانت ولادة الرابطة تحديا لمنطلقات الحضارة ولمتطلبات السياسة لذلك يسعني أن أقول أننا ندين وسنبقى ندين بالكثير للناس ... لأبطال الخفاء الذين كونوا الرابطة في ظروف بالغة الصعوبة وفي مناخ معادي .

لم أعايش ميلادها ولم أساهم في نضالاتها ومعاركها الأولى ضد التعذيب , والتعدي على الحريات والمحاكمات الصورية الخ الخ ... لكنني كنت أتتبع نشاطها بكثير من الحماس والفخر .

ثم كانت أحداث جانفي 1984 وصدور الحكم بالإعدام على عشرة شبان فقراء اتهموا بالمشاركة فيها , وثارت ثائرت الناس على هذا الحكم ودخلت كل المؤسسات الوطنية من نقابة وأحزاب وجامعة في معركة لإنقاذ الرؤوس العشرة , وكانت الرابطة التي فتحت تحقيقا خاصا عن ثورة الخبز سباقة كالعادة , تقود المعركة , ووجدت نفسي كجامعي , وكأحد المسؤولين في " الرأي " في نفس الخندق , وكان النصر للناس ولمؤسساتهم فالغي النظام الحكم بالإعدام وانتقلت المعركة إلى المطالبة بالعفو التشريعي العام (وهي لا زالت دائرة إلى حد كتابة هذه السطور) . كان من الطبيعي إذن أن أنخرط في صفوف الرابطة كعضو قاعدي في فرع سوسة وأن أساهم بقسط متواضع في عمل حضاري , إنساني , كنت أرى فيه بذور مستقبل مشرف , وكان انخراطي في صفوفها غير مشروط أو متحفظ إذ كان التزامي مبني على قناعتي بضرورة الإكثار من المؤسسات الاجتماعية الممثلة ودعم استقلالها لأن الاستبداد لن يتهشم إلا على جدارها .

لا غرابة أن أشعر بكثير من الفخر والامتنان لما دعاني الأخوة المسيرون للرابطة إلى الترشح للهيئة المديرة الجديدة في مؤتمرها العادي الذي تقرر انعقادها في أفريل **1985** . ولم أكن أتصور وأنا أتقدم لهذه المهمة التي اعتبرتها تشريفا وتكليفا , أنني سأعيش في ظرف ثلاثة أشهر فقط ثلاث معارك ضاربة ... و ثلاثة انتصارات رائعة .

فـي مواجهـــة العنصريـــة

انعقد المؤتمر الثاني للرابطة أيام **23 – 24** مارس **1985** في نزل تملكه المؤسسة التونسية عتيدة الاتحاد العامي التونسي للشغل (قرطاج) في جو عارم من الحماس وتحت شعار : " حقوق الإنسان قانونا وممارسة " تشكلت لجان فرعية لدراسة القضايا وعرض اقتراحاتها على المصادقة كما تقرر أن ينتهي المؤتمر بانتخاب الهيئة المديرة الجديدة وكان الرأي السائد في خصوص هذا الموضوع الأخير أن على الهيئة أن تتركب من أشخاص يمثلون كل التيارات والحساسيات الفكرية والسياسية , أن تكون الرابطة مدرسة للوفاق والتعايش الديموقراطي وحتى لا تصبح امتداد مقنعا لهذا الحزب أو ذاك .

وكلفت برئاسة لجنة حقوق الإنسان في الوطن العربي وكان الموضوع دوما شغلي الشاغل , وتشكلت اللجنة وبدأت أعمالها وما راعني إلا وأحد الأعضاء يحاول تركيز الاهتمام على انتهاكات حقوق الإنسان العربي من طرف " اليهود " , واستغربت إلحاحه على ضرورة التركيز على " اليهود " وعنف تهجماته المشحونة بعنصرية واضحة كنت أعلم (والفلسطنيون هم أول العرب الذي علمونا هذا) ضرورة التفريق بين اليهود والصهاينة , وكنت أعلم صعوبة هذا التفريق بالنسبة لكثير من العرب , كنت أعلم أيضا بكثير من الألم والشعور بالمهانة أن انتهاكات حقوق الإنسان العربي من طرف الأنظمة العربية من تعذيب وتقتيل جماعي واغتيالات سياسية وانتهاك حرمة القضاء والصحافة , أخطر وأعقد وأشمل من انتهاكات النظام الصهيوني العنصري . وأصابني الذهول وأنا أتابع الخطاب النازي للرجل , وتساءلت أمن المعقول أن يقال كلام كهذا في رابطة ينص بندها الأول على نبذ كل أشكال العنصرية ؟ وداهمني شك مخيف أي رابطة هذه ينتدب أعضاءها لمؤتمر وطني إنسان لا يفرق بين دين برمته ومذهب سياسي ؟ وداهمتني شك مؤلم ماذا لو كانت الرابطة مجرد إطار براق ماذا لو كانت قلعة مملوءة لكن بكل تناقضات السياسة والحضارة نفسها ؟ وقررت أن أغلق باب الشك مقرر بأن الرجل شاذة يحصى ولا يقاس عليها , ورفضت بالطبع أن يأتي ذكر في التقرير لأي مفهوم عنصري , وركزت أعمال اللجنة على انتهاكات الأنظمة العربية لأن انتهاكات النظام الصهيوني العنصري في الأراضي المحتلة تسقط تحت مقولة " والأشياء من مأتاها لا تستغرب " .

وخلت القضية انتهت , ولكنني كنت مخطئا لأن الفضيحة كانت في بدايتها , وكان الانفجار في الجلسة العمومية .

كنت أجهل أغلبية أسماء المترشحين للهيئة المديرة الجديدة ولم يخطر ببالي وأنا أواجه سيل الشتائم العنصرية ضد اليهود في اللجنة أن هناك مترج يهودي الأصل وهو سارج عدة الذي طلبت منه الهيئة المتخلية الترشح , كما طلبت مني ومن العديد وذلك لمواقفه النضالية التقدمية ومن جملتها مواقفه في نصرة القضية الفلسطينية ناهيك عن انتمائه لعائلة تونسية عريقة في الكفاح ضد الاستعمار , ولم يعجب ترشحه الكثيرون فبدأت عملية الدس والتحريض وذلك عن طريق إحدى الصحف الصباحية الواسعة الانتشار التي أشارت يوم انعقاد المؤتمر في خبرا مقتضب , إلى أن أحد المترشحين للهيئة المديرة يهودي , وكانت طريقة عرض النبأ توحي باستغراب الجريدة المحترمة إن لم يكن استهجانها وكنت غير واعي بخطورة ما يحدث في صفوف المؤتمر حيث تجند عدد من النواب لتشهير الخفي بهذا الترشح وكانت صدمت عندما فهمت أن هناك مؤامرة قذرة صامت لمنع سارج عدة من دخول

الهيئة المديرة لا لشيء إلا لأنه يهودي وفهمت إصرار النائب المحترم إبان اجتماع لجنة الحقوق العربية على التشهير باليهود . نعم كانت صدمة لأنني فهمت أن المعركة ضد العنصرية بشتى أصنافها قد انتقلت إلى داخل الرابطة في حين أنه يفترض فيها أن يكون هي قائدة المعركة , وفهمت أنها أصبحت تشكل خاصة في الجهات المحرومة من كل عمل سياسي شرعي , مساحة تتزاحم لاحتلالها الأحزاب الوصائية وخاصة المتطرفة منها وإنها ملأنه بالمدنسين .

إن الحصان قد دخلت قلعة طروادة , وإننا سنخسر القلعة حتى قبل أن نكمل بناءها . لكن المدافعين استبسلوا وتهشم حصان طروادة وكان أول نصر أعايشه .

بدأت المناوشات إبان للجلسة العامة عندما طلب الكلمة نجيب بولعراس رئيس فرع حمام الأنف ليندد بشدة بدس الجريدة , وبكل أصناف العنصرية , وتعالى التصفيق داخل القاعة . لكن العنصريين لم يستسلموا فقد تعالى صوت الناشز : ولما لا ندعو بيجين إلى الترشح ؟ ودخلت إلى القاعة في حالة من الهيجان لا تصف , فقد تعالت أصوات الاستنكار والاحتجاج وتداخلت التعاليق , وخلت أننا غير بعيدين عن معركة بالأيدي , كان جوا لا يوصف , فقد تكهرب بصفة مفاجئة ودرامية , وفهمت أننا وصلنا إلى بيت القصيد في موضوعا لا يحتمل التأجيل وأنه قد وضعت الخيارات المصيرية أمامنا وبصفة لم يتوقعها أحد . نكون أو لا نكون ؟ هل نحن عنصريون ؟ هل هناك عنصرية مقبولة وأخرى مرفوضة ؟ هل نقبل بيهودي بيننا ؟ هل نحن جادون في نضالنا من أجل حقوق الإنسان أما هل نحن مخادعون ؟ هل نضجنا أما لا زلنا في طور الهمجية ؟ هل نحن قادرون على التفريق بين الدين والسياسة ؟ بين الناس والشعوب ؟ هل سنتقدم ؟ هل سنبقى نتأرجح خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء ؟

كان التحدي واضحا وكذلك القرار والخيار , فقد كنا مواجهون في تلك اللحظة بشياطيننا الذاتية , فالعرب ككل أمة على سطح الأرض , تعرف من قديم الزمان العنصرية , واللاعنصرية , تعاني من المرض الخبيث وتملك الكثير من الأجسام المضادة لمقاومته .

خذ مثلا العنصرية بين العرب . لقد كتبت دواوين شعر كاملة يتشاتم فيها العرب ويعير فيها بعضهم بعضا , ولازالت القبلية إلى يومنا هذا جرح ينزف في جسم الأمة . أما عن عنصرية اللوم في عريقة الجذور فالسمرة حتى عند العرب الأقحاح مقبولة لكن إلى درجة معينة وقد كان سواد البشرة ولا يزال مرادفا ... للقبح , ولا زال الناس يسألونك في قرى الجنوب إن طلبت طريقك إلى شخص مجهول : هل هو حر أما ... عبد ؟ كذلك يرى أي عربي مؤدب في تونس من الجيل القديم أن عليه أن يضيف عبارة " حشاك " إن أتى ذكر لكلمة يهودي على لسان , وللعرب كلمات العديدة المشبعة بالاحتقار للحديث عن " الكافر " و " الرومي " و " القاوري " الخ ... لكن الأمة العربية تملك المر ض واللقاح , واللقاح كان التوجه الإنساني الثوري للإسلام , فمما لا جدال فيه أن الإسلام كان أول ,اعظم حركة مضادة للعنصرية , فقد ناهض الثائر العربي الأول للعنصرية العربية – العربية , وأراد للقبائل المتباغضة أن تكون نواة أمة واحدة كما أن توجهه لتحرير العبيد الذي التفوا حوله واضحا وما جعله من بلال الأسود مآذنه ومن المقربين إليه إلا مؤشرا من المؤشرات الرئيسية على نبذه للتمييز بين البشر , وقد اكتمل الدواء عندما فرض الإسلام مبادئ (وخلقناكم قبائل وشعوبا لتعارفوا ... لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ... ولكم دينيكم ولي ديني الخ ...)

حقا تحفظ الإسلام في خصوص اليهود لفرضهم الدعوة الجديدة لكنه لم يرفض لهم قط الحق في الوجود , ولا شك أن هذا التوجه العام للإسلام قد حد بصفة هامة من العنصرية فينا دون أن يستطيع إلغاءها يبقى أن دوره لا يقدر بثمن . فالأمة العربية ذات توجه عنصري قوي حقا لكنه توجه فرداني ... غريزي مترسم , وهي تختلف بهذا عن كثيرا من الأمم الأخرى التي جعلت في وقت ما من العنصرية جزءا من إيديولوجيتها وهذا مما يفسر لنا أن تاريخنا لم يعرف قط مجازر كالتي مورست ضد اليهود أو الهنود الحمر أو الغجر , وأن الأقليات حظية دوما في إطار نظام تجاوزه الزمن حقا بكثير هو إطار الذمة بحقوق كانت مجهولة في جل بقاع العالم في تلك العصور .

كانت كل هذه الخواطر تمر بسرعة البرق في دماغي ... وأنا أنظر إلى القاعة الهائجة المائجة وقد زاد في غليانها أن نفس الشخص الذي تحملته الساعات الطوال في اللجنة , استلم الميكروفون ليدافع عن الخطاب العنصري الكلاسيكي : أنا لست ضد اليهود والدليل على ذلك أنه لي أصدقاء يهود ... لكن . والتهمت " لكن " صداقته الحميمة , فاليهود هم قبل كل شيء يهود , كما قال بذلك الذكاء الفذ الذي لا يتمتع به إلا العنصريون من كل صنف ومن كل جنس . وخلت أن القاعة قد أوشكت على الانفجار وأن أشلاء الرابطة هي التي ستتطاير من جراء الانفجار . وطلبت الكلمة وكنت في حالة من التأثر لا توصف وأذكر أنني قلت : " إنني فخور بالأمة العربية لا شيء إلا لأنها أمة اتخذت رمزا للشجاعة زنجيا هو عنترة ابن شداد ورمزا للكرم مسيحيا هو حاتم الطائي ورمزا للوفاء يهوديا السموءل " وكان تجاوب القاعة أول رد ثم كتبت بسرعة لائحة منددة بالعنصرية ورافضة لكل عنصر حق الاحتماء بدرع الرابطة وصادق عليها المؤتمر بالإجماع , وأخيرا أتى تنديد بعض القوميين العرب بكل نوع من أنواع العنصرية ليبدد كل الأشكال . كانت إجابة المؤتمر على الأسئلة التي خامرتني وأنا أعايش العاصفة واضحة : لا ليس هناك عنصرية مقبولة وأخرى مرفوضة , نعم لتفريق بين الدين والسياسة , نعم نحن جادون ولسنا مخادعين , نعم بصدد النضج , نعم لحقوق كل إنسان لبلدنا بكل تحفظ واحتراز .

وأتى الرد المفحم في شكل ضربة قاضية للعنصرية داخل الرابطة , انتخاب سارج عدّة للهيئة المديرة بعدد هائل من الأصوات تجاوز بكثير عدد الأصوات التي منحت لكثير من نجوم وشخصيات الرابطة .

كان يوما مثيرا ورجعت حقا ذلك اليوم إلى بيتي كما كنا نختم فروض الإنشاء في الابتدائي فرحا مسرورا فقد غلبنا يومها شيطانا من أخطر شياطيننا .

نعم للمرأة

كانت قضية سارج عدّة مواجهة حاسمة بين الرابطة والعنصرية متمثلة في الفصيل المتخلف من القوميين العرب بتونس واعتبر الملف منتهيا لكن ما راعنا غلا ظهور إذاعة مشبوهة سلّطت لأشهر على تونس والجزائر والمغرب ساعات من الدعاية المسعورة ضدّ الرابطة وضدّ اليهود مناشدة عرب المغرب قتل هؤلاء "الأعداء " وهم مواطنون بسطاء , تجندت يومها كل القوى الوطنية لتنديد بهذه الإذاعة المجهولة الهوية وبإيديولوجيتها الحمقاء , لكن احتقار ولامبالاة الناس في تونس والجزائر والمغرب هما اللذان أسكتا الإذاعة الحقيرة. ولم تهدأ هذه العاصفة إلا لتدخل الرابطة في دوامة عاصفة أخرى لا تقل خطورة عن الأولى : قضية مجلة الأحوال الشخصية , وكان الخصم هذه المرة غير متوقع بالمرة نظرا لارتباطاته الوثيقة بالمؤسسة الإنسانية : الاتجاه الإسلامي .

ولابد هنا من فتح قوسين للحديث عن هذا التيار الفكري والسياسي حتى تتضح خلفيات واسباب المعركة . لقد أفرز المجتمع التونسي أمام التمايز المتصاعد لمكوناته وسياسة الوصاية والإقصاء والشخصانية وتعمق الفوارق الطبقية والجهوية وتفسخ النسيج الثقافي القديم , إجابات متعددة ومتناقضة تمتد من أقصى اليسار على أقصى اليمين تهيكلت في حركات فكرية وسياسية و تعبر كل واحدة منها عن اختيارات عقائدية ومصالح اجتماعية معينة .

وكان اليسار إبان الستينات والسبعينات حامل نداء الرفض دون أن يكون له في الواقع بديل حضاري مؤسساتي ديمقراطي لا وصائي مقنع , وقد أصابه وهن عظيم من جراء تكذيب الواقع لأحلامه وبرامجه في مختلف أنحاء العالم وخاصة من جراء القمع المتواصل الذي شلّ تدريجيا قدراته على التحرك بفاعلية على الساحة التونسية . وكان من الطبيعي , في إطار الفراغ الإيديولوجي أن ينمو التيار الإسلامي كرد ممكن على التحديات التي كان يواجهها المجتمع و ونمى هذا التيار بشكل متسارع ومتزامن مع انتصار الثورة الإسلامية في غيران وتصاعد أهمية الحركات الإسلامية في العالم .. مما جعل النظام يسلط عليه بدوره القمع الذي خص به من قبل الحركات اليسارية والقومية .

وقد وضع هذا القمع الرابطة وكثيرا من الديمقراطيين المستقلين أمام خيار صعب ومفارقة غريبة : الانتصار لمناضلي حركة كان الكثير منا يؤمن بأنها رجعية لا ديمقراطية , بل وخطر على المكتسبات الهشة التي استطاع الناس افتكاكها من السلطة , أو التنكر لمبادئ حقوق الإنسان . وقد اخترت منذ بداية الثمانينات أمام تكاثر حالات تعذيب الإسلاميين والاعتقالات التعسفية والمحاكمات الصورية من أجل أفكار لا من أجل قتل أو إرهاب صف الناس ضد القمع .

وكان البعض يجد في هذا الموقف تناقضا مفضوحا , أو سذاجة مفرطة , أو تواطئا موضوعيا (؟) مع أعداء الحرية ... والديمقراطية لكنني كنت لا اعرف مخرجا مشرفا من المفرقة غير هذا . فقد كان الكثير من الأصدقاء والأقارب والتلاميذ والمساعدين ينتمون إلى هذا التيار . وكنت أدرك أن جلّهم يعبرون بهذا الانتماء عن تلك المثالية التي غلّفها جيلي برداء اليسارية , كما لم يكن من الممكن صمّ الأذنين أو إغلاق العينين عمّا كانوا يتعرضون إليه من إرهاب وقمع , خاصّة وإن الحرية لا تتجزأ , والحقوق واحدة , لكني اعتبرت أنه من الواجب أيضا التصدّي في نفس الوقت لأفكار تحمل في بذورها كل خصائص نظام وصائي , إقصائي من أعلى طراز فالتجارب التاريخية عديدة وبليغة في خصوص فظاعة الوصاية والإقصاء الممارسين باسم الدّين , بينا كانت ولا تزال المشكلة الأولى في المجتمعات العربية إرساء دعائم أنظمة تعدّدية – ديمقراطية – تحترم حقوق الإنسان .

وحصلت مناوشات فكرية متعدّدة بيني وبين الإسلاميين على صفحات الرأي حول المفاهيم والاختيارات الإسلامية وأذكر أنني ردّدت على رئيس الحركة الأستاذ راشد الغنّوشي , لما فسر ظهورها وتناميها بفشل اللاّئيكية واليسار , إن ظهور اليسار واللاّئيكية كان نتيجة فشل السلفية الإسلامية التي سيطرت على مقدّرات الأمة قرونا طويلة , وأن الحل يمكن في استخراج العبرة من الفشلين لبلورة نظرية وممارسة جديدتين تشكلان تواصلا وقطيعة مع الماضي والحاضر لغزو المستقبل لا للرجوع إلى ماضي تغيرت ظروفه الموضوعية . كنت إذن متبنيا رغم هذه المناوشات مواقف الرابطة في دفاعها عن حق الإسلاميين في التواجد الشرعي وفي تتبعها الصارم وتنديدها بكل التجاوزات . وكان الاتجاه الإسلامي بطبيعة الحال كثير التعاطف مع الرابطة , خاصة بعد أن لعبت دورا فعالا في إطلاق سراح القيادة التي اعتقلت سنة **1981** بعد ثلاث سنوات من السجن الظالم . لذلك , كان من الطبيعي أن

يدخل الهيئة المديرة في إطار صيغة الوفاق وجمع أكبر عدد ممكن من الحساسيات الفكرية والسياسية , ممثلا للاتجاه الإسلامي . وقد انتخب بدون مشكلة في المؤتمر الثاني (وللشهادة أنه وقف هو وسائر النواب الإسلاميين في المؤتمر موقفا مشرفا من قضيّة سارج عدّة)

ما الذي إذن في هذه الظروف إلى المواجهة ؟ لابدّ هنا من التذكير بانتصارات الاتجاه الإسلامي طوال سنة **1985** . فقد استطاع فرض مؤتمر طلاّبي انبثقت عنه مؤسسة طلابية إسلامية , واحتل موقع قدم في الرابطة , وبدأ يتسلل إلى مؤسسة المؤسسات : الاتحاد العام التونسي للشغل , وكانت جلّ الأحزاب المعارضة والشخصيات المستقلة تخطب ودّه عن قناعة وانتهازية , لذلك خيّل له أ، الثمرة قد نضجت , فاختار لجس نبض الثمرة , ولمعرفة درجة استعدادها للقطف قضية يدرك حساسيتها لعلاقتها بحياة الناس اليومية : مجلة الأحوال الشخصية.

ففي أول مؤتمر صحفي علني لقادة الاتجاه تفضل الشيخ عبد الفتاح مورور , بالإفصاح عن رأي الحركة في المجلة . ويتلخص في ضرورة مراجعتها , لأنها عمل فردي فرض على المجتمع . وفهم الجميع أن مراجعتها لا تعني مراجعة مواقفها من الميراث مثلا للاجتهاد في مقولة " وللذكر مثل حظّ الأنثين " , وإنما تعني العودة إلى النصوص القديمة بحذافيرها . وتزامن هذا الموقف مع قرار خطير اتخذه برلمان الكويت بمنع المرأة من حق التصويت , والحال أن الكويت من البلدان العربية الأكثر تقدما وليبرالية , مما زاد في قناعتنا بأننا نعيش فصلا من شامل في كافة أرجاء الوطن العربي للتراجع في المكتسبات الهشّة التي حققها المجتمع المعاصر . والمجلة هذه كما نعرف هي إحدى مكاسب المجتمع التونسي غداة الاستقلال , حيث ألغت تعدد الزوجات والزواج المفروض والمبكر , وقننت الطلاق الذي كان ورقة يد الرجل يستطيع أن يلعبها متى شاء , فقد كانت المرأة تفتح بابها يوما فتجد ورقة تنبؤها أنها طالق ومطرودة هي وأولادها من البيت , هكذا بكل بساطة وأريحية وباسم شريعة تصف نفسها بأنها سمحاء .

والجدير بالذكر أن هذه المجلة لا نظير لها في أي بلد عربي دخلت في عاداتنا وتقاليدنا , وأصبحت من معالم حياتنا وكان الموضوع بالنسبة للكثير منّا تطويرها خاصّة في ميدان التساوي أمام الإرث والحضانة لا التراجع فيها . وكان من الواضح دوما أن المجلة تتعارض مع حرفية النصوص المقدّسة , لكنه كان من السهل الرد على السلفيين بأن مجلة لأحوال الشخصية الإسلامية إن صحّ التعبير وضعت في بداية الدعوة وشكلت هي نفسها ثورة هائلة وقفزة تحررية لا نقدر خطورتها اليوم , فنحن ننسى أن الإسلام جاء في قوم يقتلون بناتهم ويتزوجون ما طاب لهم من النساء بدون حصر , ويمنعون المرأة من كل إرث , وبالتالي فإن تحريم قتل البنات وتخصيص نصف الميراث لهن وتحديد الزواج بأربع , مع التذكير بأن العدل لا يكون إلا بواحدة , وأن الطلاق هو أبغض الحلال , كان بحق ثورة (لا شك أن سلفيي ذلك العصر واجهوها) . وأن محمدا لو بعث اليوم لكان من أنصار المضي قدما في الطريق الذي فتحه وعبّده هو لا غير .

وكنت قد وصلت بعد عدد لا يحصى من المناقشات العميقة مع العقائديين سواء أكانوا متدينين أو لائيكيين , إلى استنتاج ألا وهو أن الجدل بين المتشبثين بروح العقيدة وبين المتشبثين بنصوصها لا نهاية له . ولا جدوى من ورائه لأنه كنقاش من نوع أيّهما أفضل أمّي أم أمك , فلكل اختياراته المبدئية وخاصة مصالحه فيها , وبالتالي فإن الذكاء مجند في كلتا الحالتين , لا لفهم الآخر , وإنما للدفاع عن الاختيارات والمصالح . وقد حللت وبررت هذا , بأن للفكر نزعتين نزعة التجدد والتحرر ونزعة المحافظة . وبالتالي

فإن وجود النزعتين ضروري ولا بد منه لإيجاد توازن يضمن التجدد والتطور دون أن يكون هذا الأخير ريحا صرصرا لا يكبح جماحها أحد شيء , لذلك تعلمت أن أقدر آراء الأخر مع اختيار دوري في السيناريو , وكانت اختياراتي المبنية على عوامل شخصية – فكرية – اجتماعية معقدة بجانب الحركة ضدّ المحافظة , لذلك آمنت دوما أن ما هو صالح في كل زمان ومكان في الإسلام هو الدعوة إلى عالم بلا ظلم وعنف يضيئه الإيمان بالله , أما الشريعة فليست إلا جملة من النصوص تتعامل مع مشاكل ظرفية لمجتمع معيّن في مكان معيّن وزمان معيّن , وبالتالي يمكن تغييرها وتجاوزها دون حرج إذا تغيرت الظروف الموضوعية بالنسبة لتلك التي وضعت فيها , عملا بالمقولة الشهيرة " تتناهى ولا تتناهى أحوال الناس " . لكن قناعات قادة الاتجاه كانت مختلفة . فاستبدال الشريعة بقوانين وضعية عصرية بدت وكأنها قضية تمرد المجتمع غداة الاستقلال عن الدين . هذا التمرد الذي " قاده بعض الأشخاص " منتهكين قدسية النصوص . أما وقد ظهرت في الأفق بوادر انتصار "الإسلام " على اللائيكية , فقد بدا من الضروري إعداد الأفكار والتمهيد لرجوع الأمور إلى نصابها .

لا شكّ أننا سننسب غباء ليس فيهم لقادة الاتجاه لو تصورنا لحظة واحدة أنهم كانوا فعلا يريدون العودة على تعدّد الزوجات وهم أول من يعلم أن أزمة السكن وحدها ألغت مثل هذا الاحتمال , وبالتالي فإن قضيّة مراجعة مجلة الأحوال الشخصية كانت عمق وأهم من هذه الصبغة الفلكلورية التي ركز عليها أعدائهم , لأنها أول قضية مبدأ : رفض الاعتراف بشرعية قوانين لا تنبثق عن الشرعية في بلد إسلامي وكانت فرصة ليكشف فيها الاتجاه عن أوراقه , وليكشف أن السفن الاجتماعية تجري بغير ما تشتهيه الرياح الإسلامية , وكانت الصدمة والتصادم .

وكان ردّ الأغلبية الساحقة : لا . صراحة لم أعايش في حياتي ضجّة كالتي أثارها موقف الاتجاه , ولم أعايش أيضا إجماعا كذلك الإجماع على رفضه , فقد ندّدت كل الحركات السياسية والفكرية وشنّت عليه الصحافة المستقلة حملة في منتهى العنف , وتجنّدت الحركات النسائية ووقفت الرابطة وقفة حازمة لا لبس فيها ولا غموض . فقد اجتمعت اللجنة المختصة بحقوق المرأة داخل الرابطة وأعدت مشروع نصّ يقرر , بكل وضوح , أن مجلة الأحوال الشخصية مكسب حضاري لا رجوع فيه , ويناشد كل القوى الديمقراطية المحافظة عليه , وصادقت الهيئة المديرة بالإجماع على البيان . وكان ختام المسك في عملية التصدّي الجماعي لحركة سياسية أخطأت في تقييم القوى وتجاهلت طبيعة المجتمع التونسي , واعتقدت أنها ستتمكن من إعادة مجتمع عصري , متحرك , متزايد التعقيد , شبّ على الطوق وبات يرفض أي وصاية , إلى إطار جامد وسيطرة قوانين تجاوزها الزمن , وكأنه يمكن معاملة المرأة في عصر صعدت فيه إلى الفضاء , وتولّت رئاسة الوزارة , وقادت فيه الطائرة , كما كانت تعامل في عهد ذات النطاقين .

الميثـــاق

كان لتدخل الرابطة وزن هائل في معركة المجلة , إذ لم يكن موقفها نابعا عن حسابات سياسية , وإنّما عن مبادئ جديدة (على المجتمع العربي الإسلامي) أصبحت تزاحم بعض المبادئ القديمة المهترئة . وكان ردّها على السؤال الضمني الذي واجه به الاتجاه الإسلامي المجتمع أي أيجوز لمجتمع إسلامي أن يحيا وفق قوانين جديدة لا تنبثق عن الدين ؟ واضحا لا لبس فيه . . . نعم وجاءت الأزمة الثالثة بعد أقل من شهر لتطرح نفس التحدي , لكن بصفة أشمل وأخطر.

قلت إن المؤتمر الثاني أوضح عبر قضية سارج عدّة أن الرابطة ملآنة بأناس دخلوها , خاصة في الجهات , لأنها الإطار القانوني الوحيد تقريبا المتواجد والمتوفر على كثير من الهيبة والمصداقية والذي كان يمكن العمل داخله للتشهير بالنظام (وكان جلهم يتناسى أن التشهير ليس غاية الرابطة وأن قدرها أن تدخل غدا في صراع مع الأحزاب الوصائية , الاقصائية التي يمثلونها , إن هم استولوا على الحكم وانتهكوا حقوق الإنسان مثلما هو متوقع) .

لذلك , اتضحت ضرورة الفصل بين العمل السياسي كما تمارسه الأحزاب وعمل الرابطة وضرورة التحري في اختيار أعضائها , وذلك بإلزامهم بميثاق يحدد بصفة مدققة التزامات المنخرطين أخلاقيا وقانونيا . وقبلت الهيئة المديرة فكرة تدبيج ميثاق ملزم لكل انخراط مقبل . وكنّا لا ندري آنذاك أننا قد دخلنا معركة من اخطر المعارك التي خاضتها الرابطة , وإننا قد وضعنا مصيرها نفسه في الميزان . ولمتسائل أن يتساءل ولماذا كان علينا أن نضع ميثاقا والحال أن الميثاق العالمي بفصوله الثلاثين كاف خاصة وإنه وثيقة أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة (ديسمبر **1948**) , وأن المادة الثلاثين منه تقول : إنه " ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله " . وكان للمطالبين بميثاق تونسي حجج مختلفة , أذكر منها ضرورة " تجذير " الوثيقة وربطها بخصائصها الحضارية والثقافية , وبالنسبة للبعض ضرورة تقريب الوثيقة بتعريبها , حتى لا يندسّ داخل الرابطة مندسّ .

وانفتح فمّ الثعبان الذي كاد يبتلع الرابطة عندما قلبنا هذه الحجج دون إعمال النظر فيها .

شكّلت إذن لجنة لإعداد وثيقة الميثاق واجتمعت مرارا , وكانت المسودة الأولى , واتضحت معالم الفخّ لما ووجهنا كلنا بتناقض أربع فصول من خمسة عشر بصفة واضحة مع التعاليم الدينية :

1– تناقض الفصل الثامن في ميثاقنا (وهو الفصل السادس عشر في الميثاق العالمي) , أي " حق الرجل والمرأة متى بلغ سنّ الزواج في تأسيس أسرة دون أي قيد بسبب العرق والدين " , لأن هذه الفصل يقرّ للمسلمة بحق الزواج من غير المسلم , وهو ما تحرمه الشريعة .

2– تناقض الفصل التاسع (الفصل الثامن عشر من الميثاق العالمي) وينصّ على أنه " لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين , ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته " . فهذا الفصل يتنافى مع الشريعة التي تحلّ قتل المسلم الذي يتراجع عن دينه .

3– تناقض الفصل الخامس عشر (الفصل الخامس والعشرون من الميثاق العالمي) والمطالب بأن " ينعم كل الأطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعي أم بطريقة غير شرعية , لأنه لا وجود شرعي للّقيط في الفقه الإسلامي فمل بالك بالحقوق .

4– تناقض الفصل الرابع المحرّم للعقوبات الجسدية مع الحدود الإسلامية .

وشعرنا يومها بتلبّد السحب وقرب انفجار العاصفة , لأن الاختلافات اندلعت داخل الهيئة المديرة نفسها وكان الجدل عنيفا , وبما أن مبدأ الرابطة الأساسي هو التراضي والوفاق , فقد قلّمت أظافر الفصل الخامس عشر تحت ضغط البعض (سامحهم الله) وترك اللقيط ضحية على قربان قدسية العائلة , وكأن هذا الفصل سيشجع الناس على الزنا بما أن الرابطة ضمنت حقوق ثمرات الخطيئة . وآلمنا أشد الإيلام هذا التراجع , وكأن النقاش الحّاد داخل الهيئة المديرة يدور مرة أخرى بين أهل التراث وأهل التجدد ,

وتبودلت للمر الألف بعد المليون نفس الحجج حول " ضرورة التجذر في حضارتنا العربية الإسلامية لأننا ندافع عن حقوق الإنسان في تونس لا في باريس أو هولندا " .

وحول " ضرورة اعتبار حقوق الإنسان وحدة لا تتجزأ ولا تتغير بتغير الزمان والمكان " وعرضت صيغة وسط اتفق الجميع عليها , وافتتحنا بها الميثاق . تقول : " إن الرابطة تستمد مبادئها من ثلاث روافد تصب في نفس المصب ألا وهي القيم التحررية للحضارة العربية الإسلامية , ودستور الجمهورية والطموحات الإنسانية كما عبرت عنها وثيقة الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولم تكف الإشارة إلا الحضارة العربية الإسلامية لإسكات بعض التناقضات داخل الرابطة . فقد نوقش الفصل الثامن والتاسع بحدّة , وكنت من جملة الذين أيدوا إدراجها بصفة لا تقبل التأويل . فقد كنت ولا أزال تحت وقع لقائي مع مأساة مود جاكسون , ولم أكن أرى فارقا بين اضطهاد المرأة لزواجها من الرجل من لون آخر أو من دين آخر , كذلك كانت مأساة محمد محمود طه زعيم الجمهوريين الإسلاميين ماثلة أمام أعيننا , ولم يمض على قتل الرجل إلا أشهر معدودة بتهمة الردّة وذلك في السودان , حيف أكتشف دكتاتور لمّا ضاقت به السبل , كل الاستعمالات الممكنة للدين والمتدينين , وكانت الأغلبية لصالح إيراد هذين الفصلين , ولم يبقى إلا عرضهما على التصديق على المجلس الوطني . وانعقد هذا الأخير في جويلية **85** , وانفجرت الأزمة إذ كان النقاش صعبا والجو مكهربا , ومرّ التاسع بعد حذف كلمة تغيير واستبدلها بكلمة اختيار مع " السماح بالاجتهاد " .

أما المعركة حول الثامن فلم تنتهي إلا لصالح هذا النص وبأغلبية صوت واحد (وقع فيما بعد التشكيك فيه) : للرجل والمرأة متى بلغا سنّ الرشد اختيار الزوج وتأسيس أسرة بدون قيد أو شرط .

وافترق المجلس الوطني وفي القلوب ضغائن , إذ ظهر لأول مرّة شرخ عميق في بناء الرابطة , وبدأت الزوبعة تزمجر حول البناء المتصدع .

صراحة فوجئت ككل أعضاء الهيئة المديرة بالحملة الشعواء التي شنت ضدّنا حال انتهاء اجتماع المجلس الوطني والإعلان عن الميثاق . فقد تجندت أغلب الصحف وبعض الأحزاب السياسية للتشهير بالرابطة وبميثاقها, وكأنه لا يحتوي على أربعة فصلا من الحقوق الهامة المشروعة المنتهكة يوميا , وإنما على فصلين يحرضان على زواج المسلمة بالمسلم وغلى حق الردّة . وكنت أضحك بمرارة وأنا أتصور كوابيس أصحاب المقالات من نوع " لماذا أرفض الميثاق " , والسياسيين المحترفين وهم يحملون بجحافل من الطليان واليهود والمجوس وأصناف أخرى من الكفار لم يقع حصرهم إلى اليوم تكتسح تونس للمطالبة ببناتنا , طبقا للفصل الثامن , وجحافل من المسلمين يخرجون من دين الله أفواجا مستظلين بالفصل التاسع . والحال أن تونس كانت في إبان هذه القضية تتخبط في أزمة اقتصادية خانقة وعلى أبواب أزمة سياسية خطيرة مع ليبيا .

والغريب أن الهجمات تركزت بالخصوص على الفصل الثامن وكأن عازفا غير ماهر ضرب بعنف على وتر حسّاس , واتخذت الحملة أوجها عدّة , فقد سارعت إدارة الشعائر الدينية إلى مطالبة أئمة الجوامع بمهاجمة الرابطة . وهاجمها فعلا الأئمة أمام المصلين في صلاة الجمعة كفرنا حزب يدعي التقدمية , ودعت جريدة مختصة في الجنس وكرة القدم إلى سحب التأشيرة القانونية من الرابطة , ولوح بعض النواب بإمكانية حلها لأن مواقفها تتعارض مع دستور الجمهورية القاضي في فصله الأول بأن الإسلام دين الدولة. وفتحت حتى"الرأي(**1**)

أعمدتها لهجومات من نوع " نحن الممضون أسفله بعد اطلاعنا على الميثاق الجديد للرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان :

- نستنكر ونندد بشدة بما جاء في الفصل الثامن المتضمن لإباحة زواج المسلمة بالكافر والفصل التاسع الذي يبيح الردّة عن الإسلام
- نذكر بأن هذين الفصلين يطعنان في الصميم الشعور الديني للشعب التونسي المسلم . نعم المسلم .

- نرفض أن تكون الرابطة إطارا لتمرير مواقف سياسية تهدف أساسا لهدم القيم السامية للدين الإسلامي العظيم من طرف أناس عرفوا بأفكارهم المعادية للإسلام والمسلمين
- نؤكد أن مثل هذه الممارسات تفقد الرابطة لامحالة وبسرعة مصداقيتها لدى الجماهير المسلمة وبالتالي تصبح قلعة فارغة لا طائل من ورائها
- ننادي بإلحاح بشجب وإلغاء هذين الفصلين فورا
- نعلم الجميع أننا لن نسكت على هذه الانتهاكات الخطيرة للدين الإسلامي التي سنعمل بكل جهدنا على إبلاغها لكل الأوساط الشعبية بالسرعة اللازمة
- نحمل المسؤولية كاملة للرابطة عن هذا الدوس للمقدسات الدينية للشعب من طرف مجموعة منبتة عن محيطها تنكر الدين وتتنكر له , وتعمل جاهدة بالوسائل الرخيصة كالتمريرات المبتذلة على تغريب البلاد والعباد مكرسة بذلك الانفصال بل قل الاغتيال الحضاري متناسين أن هذا الشعب مسلم غيور على إسلامه , رغم كل المحاولات البائسة النكراء , وأنه قادر على إحباطها مهما تعاضمت في أعين المتآمرين "

والحق يقال إن قيادة الاتجاه الإسلامي أدانت الفصل الثامن لكن بتحفظ واتزان كبيرين مقارنة للحملة الهستيرية الإسلام الرسمي وبعض التنظيمات , وكأنها أدركت النوايا الحقيقية لحملة هذا الإسلام الرسمي (سحب البساط من تحت رجليها) , أو خطورة تهشيم الرابطة باسم الإسلام .

ولابد من التركيز هنا على أن الاتجاه الإسلامي لم يكن وحده على الساحة الإسلامية , فقد لعب الإسلاميون التقدميون دورا هائلا في هذه المعارك الحضارية , وكانوا دوما خلافا للسلفيين في نفس الخندق مع القوى التقدمية والمستقلة .

ولم ترتفع إلا أصوات قليلة ومحتشمة للدفاع عن الفصل الثامن . وهكذا وجدت الرابطة نفسها في موضع المتهم لأول مرة , وكانت الاتهامات عنيفة وخطيرة . الكفر , الانبتات , التحريض على المقدسات اللامسؤولية , تحدي المجتمع , التطاول على دستور البلاد , وكان أي من هذه الاتهامات في أي بلد عربي آخر غير تونسنا باعتدالها وتسامحها " رغم الضجة "كاف لقطع رأس كل واحد من أعضاء الهيئة المديرة على الأقل . وتساءلت ما هي خلفيات هذه الهجمة ؟ وكان للإجابة مستويان : تكتيكي واستراتيجي , ظرفي وعميق الخطر .

أما على المستوى الأول فقد كان وراء الحملة أهداف سياسية واضحة . إذ أصبحت الرابطة بفضل مصداقيتها والتفاف الناس حولها واشعاعها داخل البلاد وخارجها مصدر إزعاج دائم للسلطة خاصة وأن عمقها لم يكن بالشيء السهل , فهي ليست تنظيما سياسيا يهدف إلى افتكاك السلطة وإنما هي نفسها سلطة معنوية لها وزن داخل هذا المجتمع الفاقد للقيم والمتعطشة للقيم . وجاءت قضية (الثامن) وكانت فرصة لا تعوض لسحب البساط من الإسلام المعرض بإظهار تمسك النظام بالدين واستعداده للدفاع عن حياضه , وفرصة لإضعاف الرابطة التي ما انفكت تزعجه بترصدها اليقظ والحذر لكل التجاوزات , وذلك بإظهارها بمظهر نادي ميتافيزيقي لنخبة منبتة تتطاول على مقدسات الجماهير , وتظافرت حسابات الإسلام الرسمي مع حسابات بعض الأشخاص وبعض الأحزاب التي جعلت من خطب ود التيار الإسلامي منهجا سياسيا تتوقع أن يوصلها إلى سدّة الحكم . ولا جدال أن بعض المؤمنين شاركوا في الحملة عن اقتناع صادق بأن خالق الكون وسره المهيب , أكثر عنصرية من بيتر بوطا رئيس جمهورية جنوب افريقيا الذي ألغى في خضم معركة الثامن(وخاصة في خضم معركته هو مع السود) قانون العيب (IMMORALITY ACT) المحرم للزواج بين الأجناس . والحق إنني لا زلت أتساءل عن المنطق الذي يعيره هؤلاء المؤمنون لخالق الزمان والمكان , وسر كل وجود وموجود والقاضي بأن امرأة تنتمي إلى أمة رسوله لا يمكن أن تتزوج أحدا من أمة كليمه أو من أمة نبيه عيسى . هذا بالطبع بدون اعتبار الأجناس المنحطة الأخرى (كاليابانيين مثلا) والتي لا ندري من خلقها ولأي سبب ؟

نأتي إلى حساسية الوتر , إلى الأسباب العميقة التي حركت رياح الزوبعة , فمثل هذه المعارك رغم صبغتها الفلكلورية (التي يحرمها عادة الإرهاب الفكري في شكله الديني أو السياسي) فرص للكشف عن الأزمات والتناقضات العميقة التي يمر بها المجتمع . وقد كان موقف الرابطة وموقف أعداءها يتلخص في الإجابة الواضحة والمتناقضة عن أسئلة مصيرية طال اللف والدوران حولها في كل البلدان العربية والإسلامية .

1– هل للمجتمع المواجه بتحديات جديدة وظروف موضوعية جديدة كدخول المرأة ساحة العمل واختلاط الأجناس ببعضها البعض نتيجة سرعة المواصلات في عالم جديد متجدد , هل له الحق في أن يشرع لنفسه قوانين جديدة تتلاءم مع المعطيات الجديدة ؟ أم هل عليه أن يرغم هذه المعطيات على الانصهار بأي ثمن في بوتقة القوانين القديمة التي خلقت لأجيال وظروف ولت وانقضت ومنها التحريم الشهير الذي سنّ في إطار ظروف الحرب بين طلائع الثورة العربية الأولى وأعدائها ؟

2– لماذا يتزوج الرجل المسلم بغير المسلمة (وفي تونس نفسها آلاف من هذا النوع من الزواج) دون أشكال , وتصبح المسألة قضية خطيرة إذا عنّ للمسلمة أن تتزوج بغير المسلم ؟

هل نحن صادقون عندما ننادي بالمساواة بين الجنسين ,أم هل مساواتنا مشروطة ومحدودة ؟

3– هل هناك حقوق إنسان عالمية وأخرى خصوصية ؟ وهل الميثاق العالمي لحقوق الإنسان بدعة غربية استوردناها مع أحمر الشفاه ؟ أم هل هو الحد الأدنى من الحقوق الذي يجمع بين الأمم على اختلاف أجناسها وعقائدها وأنظمتها والذي قد يؤدي احترامه إلى الحد من آلام الإنسان والإنسانية ؟

4– إذا اعترفنا بأن الميثاق العالمي يكرس حقوق الفرد تجاه المجموعة , وإذا اعتبرنا أنه " وردّ " لنا فكرة ثورية قوامها أنه يجب احترام كرامة وحياة ورأي الفرد , ولو خالف المجموعة وإذا عرفنا أن المجتمع الإسلامي لا يعترف بهذه الفكرة , بل يعكسها ,

فهل لنا أن نهجر الميثاق أم المجتمع ؟ أم هل علينا أن نجد صيغة تتعايش بين حقوق المجموعة وحقوق الفرد ؟ خاصة وأن أربعة عشر قرنا من التجارب المريرة بينت إلى أي درجة من الفظاعة قد نصل , إن لم نعتبر هذه الحقوق الأخيرة .

كانت كل المواقف تنبع عن ردود مختلفة لهذه التساؤلات الواضحة أحيانا والمبهمة غالب الوقت , وكنت قد اخترت من زمان أجوبتي . ولم تهدأ الهجمات يوما طيلة الصيف , وبدأت تتضح آثارها السلبية على معنويات ومصداقية الرابطة . فبدأ التراشق بالتهم بين الأعضاء أنفسهم على صفحات الجرائد وتعددت الإشاعات عن نية التخلي عن (الثامن) , ثم عن ضرورة هذا التخلي , ثم عن توقيت المؤتمر الاستثنائي الذي سيدعى للإلغاء . ونشطت التحركات السياسية في الكواليس , وبدأ للجميع أن الرابطة خضعت , إنها جثت على ركبتيها , وأنه لم يبقى لها إلا التسليم بغلطتها الفادحة وبتقديم اعتذاراتها للمجتمع على الوقاحة التي أبدتها

وذهبت لزيارة محمد الشرفي في بيته بصفته رئيس اللجنة التي وضعت الميثاق , فوجدته شديد الألم والمرارة , وكان يشعر بأنه خدع لأنه نبه أعضاء اللجنة إلى ترتبات الثامن , وقبولها بما فيهم ممثل الاتجاه الإسلامي , وكان تبرير هذا الأخير لموقفه أنه يفرق بين ما هو حرام دينيا ما هو ممكن قانونيا وكان الشرفي من شعور مؤلم بأنه تسبب للرابطة في أزمة قد تفجرها وأذكر أنني قلت له : إنها معركة حضارية فرضت علينا , وأن كل المجتمعات مطالبة يوما أو آخر بمواجهة هذه الخيارات الصعبة لشياطينها .

إن الأسئلة الحقيقية التي يطرحها (الثامن) طال اللف والدوران حولها , لأننا تحاشينا دوما الصراع المكشوف وقد آن الأوان لنتحمل مسؤولياتنا .

إن الرضوخ للغرائز الجماعية المستحكمة لن يكون خدمة نقدمها للناس .

إنه من الأحسن أن نذهب لمؤتمر استثنائي يلغي الثامن ويطردنا , على أن نتراجع فيه من تلقاء أنفسنا , بعد أن أرهبنا الضجيج . وقررت الأغلبية الساحقة للهيئة المديرة المواجهة والثبات .

واتفقنا على أنه لا تراجع في (الثامن) . أقصى ما في الأمر أن نقبل بإعادة صياغته بصفة لا يشتم , منها أننا نتحدى بصفة مجانية معتقدات الجماهير , وهي التهمة الرئيسية الموجهة ضد الرابطة مع رفض أي جدل حول

(التاسع) .

وخرج النص من عديد المداولات بين أعضاء الهيئة المديرة واضحا لا لبس فيه وبالإجماع (ماعدا ممثل الاتجاه الإسلامي الذي رفض المشاركة في التصويت) .

" للرجل والمرأة متى بلغ سن الزواج حق تأسيس أسرة بما يتماشى وقناعتهما الشخصية وضميرهما " ترجم أكانت قناعات الشخصين المعنيين بالأمر وحدهما دينية أم لا . والتأم مجلس وطني ثاني في سبتمبر **1985** , وكان اجتماع مهيب , فقد جاء ممثلو **4000** منخرط بقناعة مشتركة : ضرورة الصمود في وجه العاصفة , ضرورة المحافظة على مكسب فريد من نوعه في ربوع العروبة والإسلام , ضرورة الدفاع عن مواقف مبدئية لا جدال فيها , وصوتت الأغلبية الساحقة للنص بل وصوتت من دون أدنى إشكال لبند إضافي يقول " إن الرابطة تعتبر مجلة الأحوال الشخصية مكسبا حضاريا وخطوة هامة في سبيل تدعيم حرية المرأة وصيانة الأسرة " .

ورغم هزيمتهم فقد تغلبت روح الرابطة عند الإسلاميين إذ وقف أحد ممثليهم ليطالب بدقيقة صمت على روح صحفي مناضل تقدمي مسيحي هو ميشال النمري الذي اغتيل قبل انعقاد المجلس ببضعة أيام . وكانت لحظة مؤثرة جمعتنا في خشوع على اختلاف مواقفنا وتضارب آراءنا .

وهكذا ردت الرابطة على الأسئلة المصيرية بصراحة : نعم للتساوي المطلق بين الرجل والمرأة , نعم لحق المجتمع في التشريع خارج الأطر الموروثة , لا ليس هناك حقوق عالمية وأخرى خصوصية , وإنما حقوق دنيا متشابهة لكل البشر , نعم لحقوق الفرد تجاه المجموعة خاصة في أمور شخصية كالزواج , فمن منعته قناعته الشخصية عن التزوج بهذا أو ذاك فهو حر في ذلك طبقا لمبدأ حرية المعتقد , لكن هذه القناعة الشخصية لا تخول له أن يفرضها على إنسان آخر , أكان رجلا أو امرأة وتحت أي سبب ما .

وصمدت الرابطة أمام الزوبعة ولم تنفجر من الداخل ولا استطاعت العاصفة أن تقتلع جذورها ومر الميثاق . أول نص من نوعه منذ أربع عشر قرنا في أرض عربية يفتح آفاق جديدة لمفاهيم الحقوق والواجبات في مجتمع جديد , ومرت أشهر على أخطر أزمة واجهتها .

وتتالت اجتماعات الهيئة المديرة , تتابع بيقضة لا تفتر تطور معركة تحرر الإنسان في هذه الأرض وتساهم فيها بما تستطيع من جهد, رافضة أن تحابي هذا الحزب أو ذاك متمسكة بمبادئها وميثاقها , وكم من مرة خطرت ببالي ونحن الخمسة وعشرون مجتمعون حول مائدة مستديرة إننا أشخاص جد مختلفون منا الشيوعي والإسلامي واليساري والمستقل من الرجال والنساء من مهن ومناطق وطبقات مختلفة , ومع ذلك قادرون على الحوار البناء (حتى ولو كان ساخرا) وعلى التلاقي على أرضية تجمع وتوحد .

كنت أتساءل دوما هل يمكن تصدير عقلية الرابطة إلى خارجها , إلى هذه الأحزاب وهذه الشخصيات المتباغضة المتناحرة , المؤمنة بأنها على هدى وصواب وأن الآخرين على خطأ وضلالة , وكيف يمكن أن نحمي الرابطة " من استيراد " هذه العقلية المدمرة المتخلفة , خاصة وأن قدر الرابطة أن تخرج من أزمة إلا للدخول في أزمة أخرى , فالمواجهة اليوم مع النظام وغدا مع المتدينين وربما بعد غد مع ديكتاتور أحمر أو أسود أو بلون وطعم الدم , خاصة وأن الأرضية غير مهيأة والظروف غير سانحة للنجاح في العملية المستحيلة : ترسيخ حقوق الإنسان التونسي والعربي قانونا وممارسة , في مجتمعات تعاني منذ قرون من أمراض التعصب الفكري والديني والسياسي .

ومع ذلك ... ورغم كل شيء أن الرابطة ستبقى وستتعمق جذورها وستكون قدوة ونموذجا لرابطات عربية أخرى وستكون مسمار آخر يدق في نعش الاستبداد , وسنسلمها إلى من يأتي بعدها نبراسا وضميرا لأنس سيعلمون أن عليهم أن يحموها لكي تستطيع حمايتهم .

ملحـــــق

الميثـــاق فـــــي صيغتـــه النهـــائيـــة

وبعـد التنقيـح

الديبـاجة

سعيا لتثبيت المبادئ الأساسية لحقوق الإنسان بين مناضلي الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان .

تؤكد الرابطة أنها تستند في بلورة مفاهيمها على الروافد المتكاملة الثلاثة التالية :

أولا : الرافد التاريخي المتمثل في المبادئ التحررية في قيم حضارتنا العربية الإسلامية .

ثانيا : الحريات المنصوص عليها في دستور الجمهورية التونسية .

ثالثا : طموحات الإنسانية المتجسدة في المواثيق العالمية لحقوق الإنسان المتضمنة للحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . على أن لا يكون بين ميثاق الرابطة وهذه المواثيق أي تناقض .

المبادئ العامة

تستمد الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان مبادئها من الأسس التالية :

1- تهدف الرابطة إلى الدفاع عن حريات الإنسان الأساسية , الفردية والعامة , وإلى المحافظة عليها .

2- تقاوم الرابطة في كل الظروف مظاهر التعسف العنف والتعصب وجميع أشكال الميز مهما كان مصدرها .

3- تدافع الرابطة عن الحقوق ولا تخدم المصالح الخاصة أبدا , وتدافع تطوعا عن ضحايا الظلم أفرادا كانوا أو جماعات .

4- تدافع الحريات الديمقراطية وعن العدالة الاجتماعية وتسعى لتحقيق الوسائل التي تضمن سلما عادلة دائمة بين الأمم .

5- الرابطة المستقلة عن جميع الحكومات والأحزاب السياسية وعن غيرها من المنظمات .

6- تلتزم الرابطة بالوسائل السلمية والقانونية في نشاطها وفي السعي لتحقيق أهدافها.

7- تؤكد الرابطة على أن حقوق الإنسان كل لا يتجزأ وتعمل على إشاعة وتوطيد روح التسامح منهجا وممارسة في مختلف مجالات العمل .

المادة الأولى : يولد جميع الناس أحرار متساوين في الكرامة والحقوق , وقد وهبوا عقلا وضميرا . وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح التسامح والإخاء .

المادة الثانية :لكل الناس حق التمتع بكافة الحقوق دون أي تمييز , خاصة بسبب العنصر أو اللون أو العرق أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو مكان الولادة أو الأصل الاجتماعي أو الوضع الاقتصادي ودون أي تفرقة بين النساء والرجال .

المادة الثالثة : لكل فرد الحق في الحياة والحرية وحرمة الذات .

المادة الرابعة : لا يعرض أي إنسان من طرف أي كان للتعذيب ولا للعقوبات الجسدية أو للمعاملات القاسية أو الوحشية أو الماسة بالكرامة في حالة الإيقاف . والاستنطاق والمحاكمة وقضايا العقوبات العدلية أو في أي ظرف آخر .

المادة الخامسة :

أ- كل متهم بجريمة بريء ما لم تثبت إدانته إدانة قانونية عن طريق محاكمة علنية يؤمن له فيها حق الدفاع واستقلال القضاء .

ب -كل شخص يقع إيقافه يعلم فورا بجميع التهم الموجهة إليه .

المادة السادسة : لا يعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة ولا في حياة أسرته ولا في مسكنه ومراسلاته , ولا ينال من شرفه وسمعته , ولكل شخص الحق في أن يحميه القانون من مثل هذه الممارسات .

المادة السابعة :

أ– لكل فرد الحق في حرية التنقل في اختيار محل إقامته .

ب – يحق لكل فرد أن يغادر أرض الوطن كما يحق له العودة إليها .

ج– يحق لكل فرد الحصول على جواز سفر .

المادة الثامنة : للرجل والمرآة متى بلغ سن الرشد القانوني حرية اختيار الزوج وتأسيس أسرة بما يتماشى وقناعتهما الشخصية وضميرهما .

المادة الثامنة (مكرر) : إن الرابطة تعبر مجلة الأحوال الشخصية التونسية مكسبا حضاريا وخطوة هامة في سبيل تدعيم حرية المرأة وصيانة الأسرة .

المادة التاسعة : لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير الدين ويشمل هذا الحق حرية اختيار ديانته أو الاجتهاد فيها وحرية الإعراب عنها بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها فرديا أو مع الجماعة على شرط احترام حقوق الغير .

المادة العاشرة :

أ– لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير والإعلام والنشر

ب– لا ينبغي أن تؤدي ممارسة هذه الحقوق إلى هتك حرمة الذات ولا إلى فضح سرية الحياة الفردية .

ج – لا ينبغي أن تفضي الإعلامية وغيرها من وسائل التواصل المتطورة إلى النيل من تلك الحرمة ولا إلى هتك هذه السرية

المادة الحادية عشر :

أ – لكل شخص الحق في عقد الاجتماعات السلمية وفي تكوين الجمعيات والنقابات والأحزاب السياسية والاشتراك فيها .

ب– لا يجوز إرغام أحد على الانضمام إلى جمعية أو حزب ما .

ج– حرية العمل الثقافي مضمونة

المادة الثانية عشر :

أ– لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يسهم في اختيارهم اختيار حرا .

ب– الشعب هو مصدر السلطة يعبر عن إرادته بانتخابات ديمقراطية دورية نزيهة على أساس الاقتراع السري وعلى قدم المساواة بين الجميع .

المادة الثالثة عشر : لكل شخص الحق في أن تكفل حاجياته الأساسية وخاصة منها حق التعليم المجاني والعلاج والشغل والضمان الاجتماعي وكرامة العيش والتغذية والملبس والمسكن والخدمات الاجتماعية , كما له الحق في قسط أدنى من الرفاهة ووقت الراحة , وفي سلامة المحيط الذي يعيش فيه .

لا تمييز بين الرجل والمرأة فالمكافأة عن العمل .

يضمن للمعاقين الحق في التعليم والشغل .

المادة الرابعة عشر : يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شحصية الإنسان جميع مقوماتها الحضارية وإلى تعزيز احترام الذات البشرية وإلى تدعيم الحريات الأساسية وتنمية التفاهم وإشاعة التسامح والصداقة بين الشعوب .

المادة الخامسة عشر : يتمتع كل الأطفال بنفس الرعاية والعناية الاجتماعية .

***

البـــاب الثـانـــي

الـــــــنـــــــاس

ولما كان هؤلاء يؤمنون بالجوهر الأفلاطوني أكثر من إيمانهم بان عصا صغيرة يمكن أن تشق البحر , فقد جردوا السبعة ملايين تونسي من علمهم وجهلهم النسبيين , من تناقضاتهم العقائدية والطبقية , من تفاوت أعمارهم واستعداداتهم لتصديق خرافات سماسرة الأرواح , وأطلقوا عليهم صفة هي ميتافيزيقية تدل على عدم وجودهم أكثر مما تدل على وجودهم . هذه الصفة هي " الشعب " .. ليصلوا – في النهاية – إلى أن هذا الشعب / الجوهر لا يمكن أن يوافق على كل بنود حريته .

محمد الصغير أولاد أحمد

عنــدما يتمــرد النـــــاس

إذا كان قلبي خفاق إلى أمد فقلب الجماهير خفاق بلا أمد

معين بسيسو

3 جانفي 1984 – الانفجار

عشرات القتلى , مئات من الجرحى , مدن مفتوحة للحرق والنهب , حالة طوارئ , سمعة في الحضيض , وبلد في حافة الهاوية .

السؤال المطروح هو كيف وصلنا إلى كل هذا ؟ الأمر يتطلب بالطبع أن نعرض ولو لحظة عن تبادل التهم إذ يجب أن نفهم لا أن نحكم , أن نفهم من داخل الواقع لا من داخل النظريات المحلية أو المستوردة أو الهجينة خاصة وان القضية قضية نظام ووطن .

مكّة في عهد الرسول :

دوز – قرية الغضب – أي انطلقت الشرارة يوم الخميس 29 ديسمبر و دوز – قريتي – لذلك لن أتحدث عن فقرها بموضوعية وإنما بغضب , والغضب أيضا من العوامل الموضوعية التي نسي الحكم التعامل معها . وقريتي واحدة من آلاف قرى الفقر .

قلت له ونحن جالسون على الأرض نتعشى في بيته الفقير ورائحة المعز تملأ أنفي , تغير العالم ولم تتغير دوز لأن الإنسان في دوز , الإنسان الفقير , يعيش مع الماعز . قال مهاجما ومتهكما : هذه مكّة في عهد الرسول نسونا – تركونا – آبارنا جفت , نخلنا مات , خربت الواحة , حكموا في رقابنا شركة الستيل تعاملنا كالبهائم , هجرنا نبحث عن الخبز , وهجروا لنا السواح فجعلوا منا منجما يغرفون منه شعراء البلاط ليضحكوا منا وأنتم أبناؤنا هاجرتم وتركتمونا نحرس لكم الأرض , لكن هل أنتم عائدون , هل تعلموا أننا لا زلنا تلك المنطقة العسكرية التي عرفتها في طفولتك وهل لنا أمل في غد مشرف كما تقول التلفزة ؟ من دوز الفقر المر انطلقت الشرارة , تجمعوا , تظاهروا تلقائيا ولم تكن هناك يد تحركهم .

رفع ثمن الخبز أكثر من مائة في المائة ... والأغلبية الساحقة لا تجد هنا ما تقتات به إنه الطيش بعينه وزاد الطين بلة : الإهانة قال قريب لي ... يجوعوننا ويهينوننا هل تتصور أنني أنا أو أي أحد آخر اقف أمام مركز التضامن الاجتماعي لأمد يدي ؟ إنهم لا يعرفون أنفة المرازيق , أموت جوعا ولا اقف أمام التضامن الاجتماعي ولأنه لم يرد أن يموت جوعا نزل –كعشرات الآلاف من فقراء هذا البلد اللذين سمتهم تلفزة الحزب بقطاع الطرق والبطالين – على الشارع . وأردت أن أسمع رأي الناس . فدلوني على رجل اسمه بلقاسم بن رحومة فذهبت إليه ووجدته من أبرز فقراء دوز ومن فطاحل شعرائها ونموذجا فذا من الأبطال المغمورين .

قال ضاحكا في البداية آمنا بفرحة الحياة وبضرورة التحديد (للنسل) ولنتعم بها .

فكـرنا عملـنا التحـديـد

مـن غيـر بنيـة ووليـد

بـاش الخيـر علينـا يـزيـد

وبـاش الـذر يشيخـوا فيـهـا

تـو ولـدك بـاش يـشيـخ

يولـــي يطلـع للمريـــخ

يـــاكـــل دلاع وبـطـيـــخ

وهـالـدنيـــا يـتمـتـــع فيـهـا

ثم جاءت نشرة الأخبار ليلة من ليالي جانفي الحزن لتقنعنا بأن كثرة رمي الخبز في المزابل أجبرت الحكومة على مضاعفة ثمنه مذكرة بأننا نستطيع أن نتقدم للعمدة فيجد لنا عملا في الحين حتى نستطيع أن نشتري الرغيف اليومي .

اتصنتنـا سمعنـــا الأخبـار ** أني والعيلـة فـي وسط الـدار

قـالوا تنزيدوا فـي الأسعـار ** القليـل (1) الخبزة ينسـاهـا

غـلاء الخبـزة هـذي نقمـة ** ومـدة عـمري مـا ننسـاهـا

والـلي طـلع الفـكـرة ** قل له هـالفـكـرة يلغيـهـا

اللي يلوح (2) توا في الخبزة ** يبقـى لديمـا يلـوح فيـهـــا

أمـا اللي حالتـــه كحالتي ** من الأنـهاج يلقـط فيـهـــا

أماكلكم (3) على كل الأنواع ** أصحانكم ما نقدش (4) نحصيها

إحنى العيلـة تاكل في قصعة ** التـالي يقعـد يـلحـس فيـها

---

(1)القليل : الفقير – (2) يلوح : يرمي – (3) أماكلكم : أصناف طنجكم – (4) مانقدش : لا أقدر

قلت مداعبا من الواضح انك مغرضا حاقد في قلبك مرض بل ومناوئ للنضال . قال : من الأوضح أنني فقير معدم وأن النظام مناوئ لي وضحكنا لأننا نعرف من القديم أن شر البلية ما يضحك .

عشية الجمعة مررت أمام مشروع يكلف البلاد ستون مليارا ... نعم ستون مليارا كلفة مشروع لا يصلح لشيء إلا لإرضاء الجهوية ... ستون مليارا كنا بأمس الحاجة لصرفها على الطرق الفلاحية بالقصرين أو مصنع في تالة أو إحياء واحة دوز ... أو ... أو ... السبب الأول للانفجار : جهوية إن لم تستحي فأفعل ما شئت .

شلالات الويسكي :

طيلة الأسبوع المشؤوم وأنا لا أكف عن تسقط الأخبار من جريدة "الرأي " بالتلفون قال لي أبو بكر الصغير وهو في حالة لا توصف:إنهم يحرقون كل شيء مائتي حافلة وكل السيارات الفخمة وغير الفخمة التي تعترضهم .

كانت جريدة "لابريس " ليوم الأحد على المكتب فجأة خطرت ببالي فكرة فتحت صفحات الإعلانات الدعائية لحفلات رأس السنة وأخذت أقرأ مشدوها تلك الإعلانات التي مررت عليها مر الكرام قبل يومين , خمسون دينار للسهرة وللشخص . أربعون دينارا , ثلاثون دينارا وانفجر مخي كأنه قنبلة موقوتة رقم آخر ... 13% من التونسيين لا يتجاوز دخلهم الستين دينارا في السنة وأنت لم تقرأ غلطة مطبعية وتصورت شلالات الويسكي ليلة رأس السنة – لا عجب أن يتهجم الناس على المظاهر الفاضحة لبذخ طبقة ترعرعت في بلادنا كسرطان خبيث في السبعينات . طبقة اتسمت بالجشع و التحدي وقلة الذوق . هذه الطبقة التي تراجع

النظام عن تتبعها يوم لاح التهديد بضرائب عادلة فتشنجت ولوحت بالويل والثبور فلم يزدها مائة في المائة من الضرائب . ثاني سبب الانفجار طبقية إن لم تستح فافعل ما شئت .

على قد فلوسهم :

الإنسان المقهور الشاعر بالغبن , بالظلم , بالعجز , إنسان لا يمكن أن نطالبه بشيء وخاصة بمزيد الإنتاج والإنتاجية (هذه المزحة) وآن له أن ينتج وهو ضحية تنظيم فاسد لا فعال في كل المستويات : المصنع,المكتب , الكلية , المستشفى وأنا لا أعرف عن علل الإنسان وسوء التنظيم في الميادين الأخرى إلا سماعا لكني أعرف بالتجربة سوء تنظيم القطاع الصحي وهو مثال لا غير : مستشفى فرحات حشاد , يوم الاثنين على الساعة الثانية بعد الظهر هناك صفان واحد لطبيب جامعي مختص يعمل كامل الوقت بالمستشفى لا هم له إلا التدريس والبحث العلمي وعلاج المواطنين , وصف آخر أمام اختصاصي نصف الوقت (أو ربع أو ثلث الوقت) قال الممرض مازحا لطبيب الفقراء : شفت صاحبك سبع دينارات في العشرين هي مائة وأربعين دينارا في اليوم وأضاف ضاحكا شهرية خوك قبل الزيادة وكان ضحكه مصطنعا لا يبشر بخير ..كان واحدا من الألف .

من أين لهذا الممرض أن يعمل ومن أين للطبيب الباحث المدرس القانع بمرتبه أن يعمل والنظام يسمح لهذا بالإثراء ويطالب الآخر بالإنتاج والإنتاجية ؟ كل مؤسساتنا على هذا النمط الفاضح شعارها أفعل ما أقول ولا تفعل ما أفعل . ويتصاعد شعور القهر والغبن والظلم حتى في أعلى إطارات الدولة .

ثالث سبب الانفجار : (المحسوبية والشخصانية والمصالح الخاصة) تنظيم إن لم تستح فافعل ما شئت .

ويوم ضاعفوا ثمن الخبز وضعوا على ظهر البعير القش المشهور وانقسم الظهر . هل كان لظهر البعير بالضرورة أن ينقسم ؟

طبعا لا لكنه انقسم وقد انقسم لأن أجهزة الإنذار والرقابة والإنقاذ كانت عاطلة أي أنها كانت غير موجودة

– لنذهب إلى أبعد الملاحظة حتى نفهم الاختلال الجهوي والطبقي وسوء تنظيم الإدارة الخ .. فهذه آفات تعرفها كل المجتمعات وبلدنا ليس أحسن من غيره لا في هذا الميدان ولا في غيره . لنقارن أنفسنا بالمجتمعات المتقدمة بما أننا ندعي أننا مجتمع متقدم (وهو الأمر الذي كذبته الأحداث الأخيرة قطعيا) حتى نقدر الأسباب التي أدت بنا إلى حافة الهاوية .

في هذه البلدان التي مرت لكل التجارب التاريخية ومن جملتها تجربة المواجهة بين القوة المنظمة لوسائل القمع والقوة التلقائية للشعب المتمرد , نجد أن المجتمع ما انفك يبني تلك المؤسسات الوقائية الرادعة لحل المشاكل بالعنف والتي نذكر منها الأحزاب السياسية الممثلة والبرلمانية الممثلة والصحافة المسؤولة والإعلام الوطن

(لا الحزبي) الخ ... دور كل هذه المؤسسات أن تجعل السلطة العليا في موقع المعرفة الدائمة والتقييم الصحيح لما يجري , دور هذه المؤسسات المشاركة في وضع القرار في تنفيذه في تقييمه في استبدال المسؤولية وتتابعهم على سدّة الحكم في إطار عملية تقييم لا تنتهي وهكذا تكون السلم الاجتماعية (الكاملة أو النسبية) وهكذا يكون الإنتاج والإنتاجية .

وعندنا نفس المؤسسات لكنها قلاع فارغة لا ترى فيها إلا أسوارها لكن أدخلها تجد أنها لا تحتوي على شيء .

بطاقة يا دلال :

قال السائق ضاحكا ونحن نتوجه إلى الكلية , احتفالات الحزب إنها لا تهمني في شيء .

قلت مداعبا لكنك حزبي وبالبطاقة .

نعم .. حزبي قاعدي .

هل تعلم كيف أخذت البطاقة أو كيف سلموها لي . يوم سمي مسؤول آخر جاءنا الواحد تلو الآخر وأعطانا البطاقة مجانا وقال : أنتم الآن في الحزب وأخذناها وقلنا لعل وعسى أنها تنفع في قضاء مصلحة .

قلت : واجتماعات الشعبة والقرارات الديمقراطية وكل ما نسمع عنه ؟ ... وانفجر ضاحكا لدقائق طويلة .

هكذا كان أحد آلاف هو الآخر .

لا غرابة أننا لم نسمع بمظاهرات حزبية كالمظاهرات الشيوعية أو الديغولية في فرنسا سنة 1968 فالقلعة فارغة لا شيء داخلها سوى ذكريات مجيدة أو مئات الآلاف من البطاقات الموزعة بالدلال وحتى لا يستبلهنا أحد لنقل أن المظاهرات التي تبعت رئيس الدولة مرت من فوق ومن خارج الهيكل الحزبي إنها كانت مظاهرات الشعب وإن الحزب كان غائبا إنه مدين بوجوده لزعيمه لكن ما هو مستقبله يوم يولى هذا الزعيم ؟

هل لاحظتم أننا طوال الأحداث لم نسمع شعارات يحيا الخميني , يحيا لينين يحيا فلان أو علان , إننا لم نسمع شعارات إيديولوجية كانت الشعارات تلقائية , شعارات المعارضة الحقيقية الوحيدة , شعارات لم تلقن تتكلم عن الخبز والكرامة , عن الحيات فقط . منذ سنين وهم يوهموننا أن الخطر على الدولة على المؤسسات سيأتي تارة من الشيوعيين واليساريين والقوميين وتارة من الإسلاميين لذلك زجوا بهم على دفعات في السجون لكنهم ارتكبوا غلطة كادت تكون قاضية على المؤسسات ومن جملتها مؤسساتهم هم . فقد أدى ضرب المعارضة وتمييعها والاستهزاء بها (راجعوا قاموس الشتائم) إلى شل إحدى قنوات التعبير والتغيير الواقية من العنف وهم في الواقع لم يفهموا في قرارة أنفسهم أن المعارضة ليست أشخاصا إنها ليست مسألة طمع في الكراسي (وهل اتهمت المعارضة الحاكمين بأنهم يتشبثون بالكراسي ؟) , إنها وظيفة اجتماعية ضرورية لتوازن المجتمع إنها لا يمكن أن تؤدي هذه الوظيفة إذا أهدرت كل طاقاتها للحصول على حق التعبير بدون الحصول على حق التغيير .

والمعارضة ليست قلاعا فارغة لإنهاك النظام لها فحسب ولكن لأنها لم تقدم إلى حد الآن البديل حتى التجمع الإسلامي الذي كانوا يخيفوننا به أنفسهم تجاهله المد الشعبي وبقي هو الآخر يتفرج .

مشاكل هذا الشعب ليست ميتافيزيقية . هي اقتصادية سياسية و عاجلة نفس الشيء عن كل المعارضات تجاهلها الشارع لم تنظمه أو تنقده سلبا أو إيجابا .

ولأن المعارضات قلاعا فارغة فإنها كانت غائبة عن الساحة ووجدت القوة التلقائية نفسها عن مواجهة القوة المنظمة وكاد التصادم أن يؤدي إلى الهاوية لأن المجتمع لم يكتسب هذه المؤسسات التي حلت وتحول في البلدان المتقدمة بين هاتين القوتين .

مجلس النواب ؟ أنا لم أنتخب هذه المؤسسة ومن ثمة فهي ككل التونسيين لأنها لا تهمني قلعة أخرى فارغة ومؤسسة أخرى لم تؤد وظيفتها ولأنها لم تؤد وظيفتها وصلت تونس إلى حافة الهاوية .

الشكل العام للقلعة الفارغة : اسم بلا محتوى , شكل بلا مضمون , مؤسسة بلا وظيفة , قوة بلا فعالية , جسم بلا حياة . من أو ما الذي أفرغ القلاع من محتواها وأين تسربت القوى الفعالة ؟ أقول : أفرغت القلاع الإرادة الفردية والمصلحة الشخصية

واستحالة التقييم بالتصحيح – أين تسربت قوى الحياة الكامنة في أعماق المجتمع أقول في كل مكان ... تنتظر الوقت الملائم لإعادة تشييد القلاع أو على الأقل لترميم المهجور منها .

السم الزعاف

هذه قلعة ليست فارغة وإنما مملوءة .. بكل العيوب والمساوئ : الإذاعة والتلفزة الحزبية وأربأ بنفسي أن أسميها الوطنية لأنها ليست ملك تونس بل بعض التونسيين . طيلة الأسبوع المشؤوم ونحن نتسقط الأخبار عن بلدنا ... من إذاعة فرانس أنتار (التي أطردوا مبعوثها) من مونتي كارلو ... هل من احتقار أبلغ .

سؤال : أنتم تعلمون أنكم تغالطون وتعلمون أننا نعلم أنكم تغالطون وأننا قادرون في أي لحظة في هذا البلد الذي تعصف به كل رياح الخارج على معرفة الحقيقة فما هو بالضبط تقييمكم لدوركم في المجتمع ؟ الإعلام المتزلف سم زعاف لكنه سم زعاف يتسمم به النظام وحده فأولى خصائصه اللافعالية المطلقة خذ شعبا كشعبنا نصفه لا يزيد عمره عن خمسة وعشرين سنة إذا واع , متعلم , مثالي , ناقد , نافذ الصبر , متوثب إلى مطامح عليا , أضف العمال , أضف النخبة المثقفة , ضع هذا الشعب أمام نشرة الأخبار باستقبالاتها وخطب شعبها ونشاط وزرائها (أي خطبهم وجولاتهم) مارس هذه السياسة بثبات , سجل , بغباء , بإصرار , بتحد , رغم كل الإنذارات النقد على " من في قلوبهم مرض وطامحين والكراسي والطغمة الضالة ذات الإيديولوجيات المستوردة " .. يكون الحاصل في نهاية اللامصداقية المطلقة . والآن حدث هذا الشعب عن التضحيات الضرورية وكن صادقا في حديثك معه لن يصدقك لا لشيء إلا لأنك تتكلم من هذه التلفزة التي أصبحت رمزا الاستبلاه الناس . منتهى السخرية , إنهم أصبحوا ينظرون إلى نشرة الأخبار فينتهون إلى تصديق ما يرد فيها والحال أنمه أرادوا حجابا واقيا ضد الحقيقة المرة التي يعرفها هذا الشعب الذي أوصاه أجداده بأن لا يحاول حجب عين الشمس بالغربال . والقلعة الفارغة هنا هي اللغة نفسها :

" ألقى كلمة نوه فيها أعرب فيها وبعث برقية تهنئة , واستقبل وفدا أعرب عن عميق شكره وبالغ تأثره ودوت الزغاريد لحزبنا المناضل العتيد من أجل الديمقراطية والاشتراكية (نعم الاشتراكية) والحرية والعدالة الجهوية (نعم العدالة الجهوية) وفرحة الحياة (إيه والله) في هذا البلد الذي تخر له الجبابرة ساجدين الخ ...

مهمة الإعلام اليعيشي ليست حجب عين الشمس بغربال فحسب وإنما إفراغ المصطلحات النبيلة من محتواها وتفقد الكلمات محتواها ويأتي هذا أو ذاك ليستعمل " الشلايك " هذه " الأجساد اللفظية " فنقفل آذاننا وعقولنا ولأنه يدرك أننا أغلقنا آذاننا وعقولنا فإنه يكرر الهجوم ويزايد في الجعجعة ونزداد صمما . يأتي يوم تفق كل الألفاظ قيمة معناها ويبلغ التسمم هنا منتهاه فلا المسؤول قادر على الإقناع لأنه لم يعد له رصيد لفظي لأن رصيد الثقة نفد لأنه سحب شيكات على اللاشيء ولا المواطن قادر على سماع ما يقوله المسؤول حتى ولو كان مخلصا ونقترب من الهاوية .

تلك هي الضريبة الفادحة المهولة لأعلام البلاهة والاستبلاه , تلك هي الضريبة الفادحة , لأننا لم نتعود على الاقتصاد في الألفاظ لأننا لم نظهر يوما أحزمة الفقر , لأننا لم نطرح منتهى الصراحة مشاكلنا وعيوبنا في الابان , لأننا لم نفتح الحوار أو لم نتابعه , لأننا لم نتبادل الفكرة ونقيضها قبل فوات الأوان ... وعندما يفوت الأوان تبقى اللغة الوحيدة الممكنة لتجاوز اللغة الطفلانية السحرية الخالية البلهاء ... لغة العنف ونتزايد اقترابا من الهاوية لأن المؤسسات أفرغت من محتواها , لأن الحزب ليس حزبا

والمعارضة ليست معارضة والبرلمان ليس برلمان , والإعلام ليس إعلام . وهكذا أصابت تونس أمراض اسمها الجهوية والطبقية والشخصانية ويوم وضعت على ظهر البعير قشة اسمها زيادة في الأسعار انقسم ظهر تونس أو كاد .

والآن تعود حليمة إلى عادتها ونبدأ عملية الرجوع القهقري خطوة خطوة أو نرفع كلنا التحدي فنجعل من هذه المصيبة فرصة لانطلاقة جديدة .

ما الحل ؟ أي طريق ننتهج ؟

النموذج الشيلي , الأرجنتيني , التركي أم النموذج الإيراني أو السنديني بعبارة أخرى أي نموذج ستفرضه علينا الأحداث إذا عجزنا أو رفضنا الدخول في مغامرة ملأ المؤسسات والقلاع الفارغة ؟ وأقول لنتحكم في مستقبلنا حتى لا يتحكم فينا ماضينا ونبقى أسراء لنطبق النموذج التونسي للخروج من هذه الأزمة ويا ما رددنا معالم هذا النموذج فلم ينتصحوا هل آن الأوان أم هل فات لتطبيقه كل ما أدريه هو أن علينا أن نذكر وأن نعمل من جهتنا على التغيير في مستوانا المتواضع كما فعلنا دوما لكن بإصرار متزايد لأن تونس اليوم في خطر :

1- تغيير الأسلوب : يكفي من معاملة المشاكل بالخطابية والنرجسية والمطرقة والأعلام اليعيشي والصلف واستبلاه الناس وتهميش واضعاف المعارضات القانونية , آن الأوان لعهد الاحترام ... المتبادل .

2- تغيير الأولويات : قال الشعب في خصوص الجهوية : إن لم تستح فلن تفعل ما شئت وقال في خصوص التطاول على مكتسباته وحقوقه إن لم تستح فلن تفعل ما شئت وعلى أي حكومة من الآن أن تتعامل مع الشعب على هذا الأساس : شعب صلب واعي بحقوقه قوي الشكيمة يمهل ولا يهمل والطريق للتماشي مع إرادته هولا غير ... واضحة .

3- ملأ المؤسسات الشرعية لكي تؤدي وظيفتها الطبيعية ملأ الحكومة بإتلاف وطني واسع ممثل للشباب , للطبقة الشغيلة , لقوى الخلق والإبداع و للتنظيمات السياسية و لكي تكون قادرة على إقناع الناس بقبول التضحيات العادلة من أجل غد أفضل , ملأ البلديات بممثلين حقيقيين و ملأ مجلس النواب بنواب تفرزهم أصوات الشعب , ملأ المعارضة بالاحترام وتبادل الرأي , ملأ المعرضة لصهاريجها لكي تكون قادرة على التعبير وعلى التغيير , ملأ الاتحاد الطلابي والعمالي , ملأ الصحافة , ملأ التلفزة والراديو بنضج الساهرين عليها واعتبار أنفسهم شيئا , أهم وأنبل من مجرد أبواق مأجورة وإنما قيمون على وظيفة اجتماعية لا تقل خطورة عن العدل والدفاع والعمل , وظيفة الإعلام الوطني لا الدعاية الحزبية البدائية .

4- الدخول في سلسلة الإصلاحات الجذرية في كافة المؤسسات المشلولة حليا بالشخصانية والفردية والمصلحة الخاصة وإدخال التقييم الدائم للأشخاص والمؤسسات وإعطاء حق الكلمة لإصلاح الناس أنفسهم خاصة وأنه لا يوجد في تونس مسؤول إلا وله فكرة واضحة عما يجب إصلاحه في ميدانه لكن العين بصيرة واليد قصيرة , فالحاكم لا يريد الإصلاح أو لا يقدر عليه والمعارض يصرخ في الصحراء وتبقى المشاكل بدون حل إلى أن نفيق فنجد الشارع في الشارع وترتفع سحب الدخان على المدينة الحزينة .

في إفريقيا حيث جل الأدب الشعبي شفاهي يتناقله الرواة عن الحفظة منذ عشرات القرون , يقولون كل ما مات لهم شيخ : لقد احترقت مكتبة ولقد احترقت لتونس مكتبة يوم مات الشيخ , كان جزءا من ذاكرة هذا الشعب وبموته فقدت تونس شيئا من ذاكرتها . والذاكرة وظيفة لازمة . فالشعب لا يبنى إلا على دعائم حضارة شاركت في صنعها الأجيال المتتابعة لتكون منطلقا لتطوره وضمان دوامه , والذاكرة حلقة الوصل بين الماضي والمستقبل والذاكرة مستودع سر المجموعة الوطنية وياله من شرف أن يحرص الإنسان ذخر المجموعة وكنزها الحقيقي : تجربتها الذاتية عبر الزمان والمكان .

وقد أدى الرجل الأمانة وقام بالواجب لا ينتظر شكرا ولا جزاءا لأنه كان يعلم أصدق العلم في أي ظروف صعبة حكمت عليه الأقدار بحظ شيء من ذاكرة تونس , فقد اختلطت على المجتمع الطرق وضاعت ملامح الماضي فسدت اللغة وماتت قيم لتحل محلها قيم أخرى وعمت الفوضى الأفكار لكنه هو حافظ الذاكرة بقي ثابتا وكل شيء حواليه يميد ويتساقط فقد عايش المفكر والأديب الانتفاضات والحركات العصابية فلم تؤثر فيه ولم تفقده صوابه ولا حادت به قيد أنملة عن خط مرسوم فلا الأهواء ولا الأطماع أعمته ولا المذاهب ولا القيم اختلطت في عقله ولا اللغة فسدت بين يديه , ولم هذا ؟ أقول لأن الرجل كان متجذرا ولأنه كان متجذرا فقد استطاع أن يكون شيئا من ذاكرة هذه الأرض . كان متجذرا في الصحراء , هذه الصحراء التي أحبها حبا لا يوصف وكان لا يطيق عنها بعدا طويلا كان حنينه إليها شيئا ألفناه منه فهو دائما في حل وترحال , بين تونس ودوز القرية التي رأى فيها النور لأول مرة سنة **1916** , وكان حبه لها حب كافة أبناء الجنوب هذا الحب الذي عبر عنه نور الدين فارس بأبيات تشهد .

هـذي الرمال كخـلـان مجمـدة ** يمتـد عبـر الفيـافي موجهـا كثبـا

نمشـي عليها كم نمشي على بسـط ** مفـروشـة ونـرى ذراتهـا ذهـب

كانت الصحراء بالنسبة إليه كائنا حيا تسبح في طياتها لآلة الحياة, أشجار الرتم و العرفج و العنادي و الكلخ و العلقي و الرمث و الأثل و الطرفاء و المرخ و الجعدة و أعشاب الشقارى والينم السعدان و مختلف أصناف الإبل من حوار وحق وجذع, و رباع وسداس وقارح, و إضطل و أخم و أعز و أرثم وأرقط .

كان تجذره في الأرض كتجذره في اللغة, شيئا طبيعيا, نعم كان متجذرا في لغة الضاد, لا يرضى بغيرها وطنا لفكره, مثلما كان لا يرضى بتونس و صحراءها بديلا لوطن, و لأنه كان متجذرا في اللغة كانت الصحراء التي يخالها السواح و الأغراب ميتة تكتسب بفضله حياة, فإذا بها مئات الأصناف من الأعشاب و الأشجار و الحيوان و الثمار, و من ثمة تمازجت في فكره اللغة و الأرض, فالأرض لغة و اللغة أرض و كلاهما عماد الشخصية و التربة الكريمة التي سيترعرع فيها الغصن ليصبح شجرة وافرة الظل.

و رأى الشاعر نفسه غصنا من شجرة فأراد أن يزداد بالجذع التصاقا, و الجذع هو هذا التاريخ الذي نحن كزبد موج بحره الزاخر. لذلك كان بحكم تجذره في الأرض و اللغة متجذرا في التاريخ, لا تجذر المؤرخ الباحث عن أسرار الحكام و الحكومات, و لكن تجذر المصغي إلى نداء الأوائل و إلى زفرات الأحفاد.

كان عربيا يجاهر بعروبته في زمن أصبح العربي يرد على من يسبه و يعيره بأصله من بني جلدته أنفسهم و على أرضه "سيدي النبي عربي" و كان فخره بهذا الانتهاء كفخرنا به هو اليوم : طبيعي.

و لأنه كان فخورا أراد أن يزداد معرفة بهؤلاء الذين يقول عنهم الأغبياء أنهم موتى و هم أحياء يوجهون حركاتنا و سكناتنا و يتحكمون في أفكارنا و مصائرنا, و لم يكن فضوله لمعرفتهم فضول المؤرخ العادي بل شوق الابن لربط الصلة بروح أجداد أحباء. و كان البعض يجدونه "أنتيكة" . أيعقل أن يمضي إنسان ساعات و أياما و أشهرا و حتى سنوات ينقب في المكتبات العتيقة عن آثار انمحت؟ عن أسماء ابتلعها بعبع اسمه التاريخ ليربط اسمه بسلسلة من الأشباح؟ و كانوا يجهلون أن دور الذاكرة أن تحفظ, "يقولون لنا و ماذا ينتج عن معرفة النسب ؟ أن النسب لا يورث مجدا و لا شرفا و إنما المجد و نقيضه ينتجان عن تصرفات الإنسان في الحياة و عن قيمته بين الناس...نعم هذا صحيح و لكن ما رأيكم في قيمة إنسان يجهل أوائله. أجل إنه لأمر مؤسف و مخجل أن يتساءل العربي و هو المشهور من قديم الأزمنة بالمحافظة على الأنساب و حفظها و روايتها أيضا أن يتساءل العربي اليوم حفيد حفظه الأنساب الأولين : من هم جدودي؟".

نعم كان يستغرب أن يتساءل عربي :من هم جدودي و هو المتجذر في أربعة عشر قرنا من التاريخ, لكن أتراه لم يفهم أن عربي اليوم غصن نخره الفرانكوآراب, و عصفت به المادية و اقتلعته رياح الانبتات, فهوى مهشما مهزوما, لا يلتصق بماض و لا مستقبل يرجى له.

أكان استغرابه صادقا أم كان قناعا يخفي وراءه تهكما بأناس عجزوا عن تصفيف أربع جمل عربية سليمة, فكيف لك أن تطالبهم بربط وجودهم بمصدر كل وجود , جذع الأمة العربية الخالد الأزلي, و كان لا يعبأ بتقلبات " الموضة" أما الزبد فيذهب جفاء و كان ممن يمكثون في الأرض.

هاهو يتتبع مجرى النهر دائم إلى أعلى فأعلى لعله يدرك مصدر النبع, فإذا بالمرازيق أكثر من حفنة رعاة إبل توقف بهم الزمن الراكض المسرع و نسيهم في بعض الفيافي القاحلة, فهم حلقة من سلسلة أحفاد " هيب أبن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن غيلان بن مضر بن نزار بن معد بن ععنان" من فرسانهم في الجاهلية عمرو بن شهريد والد الخنساء و من ولاتهم في عهد عمر أبن الخطاب أشد ما أنجبت مصر و البصرة و الكوفة و الشام و المرازيق مجرد غصن أما بقية الأغصان فأسماء تلمع في سماء هذه الأرض العربية منذ أن أنصاع التاريخ في تونس لمشيئة طلائع محمد بن عبد الله القرشي : أي ملحمة كانت ملحمتك يا قوافل المثاليث و الهمامة و بني يزيد و الحمارنة و أولاد يعقوب و أولاد دباب و أولاد سليم و أولاد سلطان و العذارى و الشتاوى و الطرود, و نسي جل الأحفاد تفاصيل الملحمة التي حملت تلك الجحافل من صحاري نجد إلى أرض الخضراء و كان حافظ ذاكرة المجموعة لم ينس, و بعثت الجازية الهلالية من رقدتها مرة أخرى و أنى لها أن تموت و هي أجمل حلم لاح للحالمين تحت نجوم الصحراء.

و لانه كان متجذرا في الأرض و في التاريخ كتب عليه أن يدون للذكرى ... لملحمة الإنسان العربي في هذه الأرض .

و لم تكن مهمة سهلة فهو لا يدون لغزاة فاتحين وانما لبقايا تلك الأمواج المتلاطمة التي دكت أسوار الحصون ترفع إلى الأبد راية العروبة والاسلام و تطبع هذه الأرض بطابع لم يمح منذ أربعة عشر قرنا قال حكيم : لو دامت لغيرك لما أتتك و الأيام لم تدم لفرسان هلال و سليم فها هم غرباء في أرض ملكوها بحد السيف يصلون بنار استعمار يهددهم في حياتهم و أرزاقهم و تلك الأنفة الأسطورية التي طالما تحدو بها أزمانا جائرة . لكنه هو كان ذاكرتهم التي تربطهم بزمان كانوا سادته وأحبهم الرجل على

ضعفهم وتمزقهم وفقرهم . هاهو يتقصى الأنساب لترتفع الرؤوس وكأنه يقول للعدو الباغي : غض الطرف فلا سليما بلغت ولا هلالا . وهاهو يتتبع في كل فج عميق عادات وتقاليد هؤلاء الأعراب الذين نسوا من أي طينة هم . وهاهو يدق في كلامهم وعاداتهم وتقاليدهم ليثبت لهم أي قوم هم وعن أي جذع مهيب تفرعت الأغصان وإن تساقطت عنها الأوراق المخضرة .

وأحببته دائما لأنه حافظ ذكرى أولئك الذين لا تذكرهم الكتب الرسمية فهو لا يترجم لعظماء القوم ومشاهيرهم وإنما لحياة أبطال يدعون الدغباجي وعلي الصيد وعبد الله الغول والطاهر بن عبد الملك وعشرات غيرهم , أبطال أسدل على بطولاتهم ستار النسيان عمدا والذي كان يشدني إلى الرجل أنه كان يدون لهؤلاء الأبطال الحقيقيين , للأبطال المغمورين للذين نسيناهم وتعسفنا كثيرا في نسيانهم , وكانت تلك الربوع المنسية على ضفاف الصحراء , تلك القرى الفقيرة المهملة التي هجر منها النظام العمال وهجر إليه السواح تصبح بفضله هو حافظ الذاكرة مسرحا لملحمة هذا الشعب بدوز والحامة وبازمة ومدنين وغمراسن ونفطة وتوزر ملامح مضيء في تاريخ هذا الوطن ويكفيها فخرا أنها أنجبت لتونس الشابي والدغباجي وأنها أعطت للوطن الكثير من حملة " الرمح والسيف القرطاس والقلم " , وصبر النملة يعيد إلينا حافظ الذاكرة الأسماء المنسية – محمد الدغباجي – المبروك بن مفتاح البقلي – إبراهيم بن حفيظ الشعيلي – محمد بن عمار الجماعي – أحمد بن مرزوق الغيلوني – حسين الجماعي – عامر الجماعي – بلقاسم بن لطيف الجماعي – محمد بن سعيد الدبابي – عمر كريد – الحامد وغيرهم ... إنها أسماء الشهداء فاقرؤوها بخشوع حتى وإن استعصى عليكم حفظها كلها .

وتحاول التلفزة أن توهمنا بأنه لم يكن لتونس تاريخ قبل التواريخ ولكن صوته يدوي الذاكرة وإذا بنا نعايش واقعات جبال مطماطة والمزونة وجديقة والحلباية وواد الزاس في ... العشرينات وينقل لنا لكي نعلم ولا ننس أبدا موتة أحد هؤلاء الأبطال الذين كتبت وثيقة الاستقلال بدمهم " الدغباجي " : " ثم وضع ببطحاء سوق الحامة الحالي وخلفه أكياس الرمل وقابله اثنا عشر جنديا يرأسهم ضابط فرنسي برتبة ملازم أمر بضع عصابة على عينيه وجلوسه على ركبة ونصف فامتنع من وضع العصابة رغم إصرار الضابط ثم عرض صدره لرصاص منفذي الحكم في اثني عشرة طلقة ... " وأشعر ستين سنة بعد الحادثة بالفخر لأنه لم " يثن الركبة " ولأن الرجل كان هو أيضا فخورا به نقل لنا الأشعار التي قالها شعر الشعب في الفارس العربي .

طفا قنديل اللي تشعل ناره ** ضوه ولى ظلام

الدغباجي فعله من داره ** من تونس للشام

الدغباجي ناره ولاعه ** ديمه ماتطفاش

جابوه مسلسل في أصباعه ** لا قدره لا باش

بإمحال وعسكر فزاعه ** لكنه ما بغاش

ثنى الركبة وعقل كراعة ** على اللغطة حضر باش

دفق دمه حدر في القاعة ** من صهد النواش

على قول الناس اللي راته ** شيء يغيب الأذهان

مرحومة أم اللي جاباته ** طباب القمان

أحببت فيه أنه لا يجمع شعرا للذين يجدون تسليط الأضواء على أنفسهم وإنما لشعراء أمثال : عبد الله بن عبد العزيز وعمر بن العربي وضو بن مسعود بن النصر الأبيض وعلي الصيد , وغيرهم من الذين ظلمتهم ذاكرة التاريخ أو كادت لو لاه .

وأحببت فيه أنه لم يكن يتعامل مع الضبابيات الميتافيزيقية وإنما مع واقع قرى فقيرة منسية من قرى هذا الوطن تسمى دوز والحامة وجمنة وأنه أعاد لها بقلم سيّال شيئا من الحياة وكثيرا من الكرامة وقد تتساءل من هم هؤلاء المغمورين من أبطال لم يحفظ إلا هو ذاكرتهم ومن هم هؤلاء الشعراء الصعاليك من رعاة إبل وفلاحين وعمال ؟ وأو حتى لمثل هؤلاء في الشعر سوق ؟ ورد هو : هم الشعب والتاريخ إن لم يكن تاريخ هؤلاء فهو مهزلة و أنا وأنت وكلنا نعرف في قراراتنا أننا نحن الأبطال . ولم يفعل الرجل شيئا آخر عبر قصصه وأبحاثه وعبر جمعه لشعر الفلاحين والرعاة والعمال سوى التأريخ للشعب ولتجربته . والسؤال المطروح اليوم هل سينسى الشعب هذا الذي قضى عمره يخدم ذاكرته ؟ هل سينساه شعراء الصحراء والفيافي وكتاب هذا البلد التي أصبحت نصف جرائده تنطق بالفرنسية في انتظار اكتمال سطوة الانبتات والتغرب ؟ أقول نعم سينساه , لأنه كان بصفة أو بأخرى" أنتيكة " .

كان نسابا بين قوم أيديولوجيتهم الانبتات , وكان عربيا من قوم يزدرون العرب وإن كانوا عربا رغم أنوفهم , كان شاعر الناس وأديب الناس وسط قوم يضنون الثقافة بضاعة أرستقراطية , وكان يخرج للصحراء يبحث عن أسماء الأعشاب الأشجار والعربية حوليه تتمزق وتتهشم وتتحطم ولا من مستمع لعويلها . ننساه إلى مدى ... إلى أن يثبت التغرب والانبتات فشلهما الذرية , ننساه حتى تكون ردة الفعل ضد بشاعة الفرنكو آراب , سننساه حتى يمتلكنا الحنين في هذه المدينة الهمجية إلى أصولنا في تلك القرى المنسية . عندئذ سنعيد اكتشاف محمد المرزوقي وسنعلم أنه كان بيننا ممثلا للقيم التي لم نعرف لها تطبيقا : التجذر والوفاء والأرض واللغة والتاريخ والعرق والدين .

نعم سيكون لنا مع أديب الفقراء الذين يملئون بوادي صحراء هذا الوطن الطيب شمالا وجنوبا لقاء في يوم من الأيام .

***

لا شك أنك كنت تثير حيرتها واسغرابها لو سألتها عن رأيها في العمود والحر والمقيد وأوزان الخليل وفي المعارك الدارة حول دور الفصحى والعامية وأمهات قضايا الشعر الأخرى . ولا شك أنها كانت ستعتذر آنذاك بكثير من التردد والخجل عن جهلها بكل هذا فمستواها لم يتجاوز التعليم الابتدائي لكن البدوية شاعرة تجهل أنها شاعرة وحتى ما هو الشعر . وكم ذكرتني بعمق مقولة معلمي الفيلسوف الشاعر الصيني لاوتسو " إن الفضيلة الحق بلا فضائل والموسيقى الحق صمت مطبق " والبدوية تجهل أنها شاعرة لأن الشعر ليس عندها تصنعا وإنما هو سليقة , بل قل غريزة كغريزة الأكل والنوم والحب وبالتالي فهو ليس وسيلة وإنما هدفا في حد ذاته فهي لا تقول الشعر لاستهلاك الآخرين وإنما لتبثها لواعج قلبها , لتعبر به عن أفراحها واتراحها دون أن تتساءل لحظة عن مصدره أو عن مصيره . والبدوية ظاهرة وقاعدة تحصى ويقاس عليها فهي عربية قحة , متجذرة في أمتن وأعمق نسيج هذه الأمة العظيمة الملعونة ولأنها عربية متجذرة في عروبتها فإنه كان من المحتم أن تكون شاعرة أو لم يقل عظيم هذه الأمة ومؤسسها محمد الثائر " لن تترك العرب الشعر حتى تفنى " .

وهي واحدة من مئات ذكورا وإناثا وفلاحين وربات منازل تجدهم في قرى هذا الجنوب الحافظ للذاكرة والشخصية , هذا الجنوب الذي ما انفك ينجب لتونس من الدغباجي إلى الشابي جل شعراءها وثوارها تنظر إليهم ولا ترى إلا الفقر والخصاصة ولا تنفذ بعمق البصر والبصيرة إلى الكنوز المطمورة في العقول والقلوب . لذلك فإن عامل الصدفة هو الذي يحمل بعضا من هذه الكنوز لتطفوا إلى السطح فتفهم عمق الخديعة التي يعاني منها هذا الشعب الذي مازال يجهل أنه وحده البطل .

والبدوية كسائر أمهات هذا الوطن الفقيرات المتواضعات نبتتا من الأرض بل قل هي الأرض , لا غرابة أن تكون الأرض مصدرا من مصادر إلهامها , فهي تقول في وصف حنينها للأرض :

يـا ريتـني طيـر طيـار ** ونـزور بـر الغـوالـي

نـرتاح مالـوحش نطمـان ** نحـكي لهـم ما جرى لي

تـو نـذكـرك يـا دوز ** يـا سـاكنـة فـي العلالي

يـا ونسـة القلب والـروح ** يـا نـاشـدة بحـوالي

يـا أم الـرميلـة ذهـب ** ومسـكـن جدودي وخوالي

ولقائل أن يقول ما الذي يشدها إلى هذه القرية الفقيرة التي هجرها الكثير من أبناءها لأنها عجزت عن توفير أبسط سبل الحياة فتجيب البدوية بتلك العجرفة التي يتميز البدو وبتلك الأنفة الأسطورية التي تجعلهم يقرون بمنتهى الجد أن القصوى العليا تبدو بالمقارنة مع حيشانهم (جمع حوش) زرائب حيوانات .

نخلـك وتمـره عسـل ** بيه نـفخـروا عـل الجـليبة

وحيشـان مـا ناشها جير ** حـذاها القصـور كالزربية

تـرجـح بنـت المـدن ** وهـي ملـونـة كالحـريبـة

وحشـك سقـاني مرار ** وراسـي تـبرقـط بشيـه

والله لـو زرت الأبحـار ** ديمـا حـذايـا قـريبـة

جميـع ماحكيـت يا دوز ** محـال وصفـك إنجيبـه

وتختلط السبل والأفكار والمفاهيم فحن لا نعلم هل هي تخاطب الأرض أم الأم أم هل اتضح لها أنه لا فرق بين الاثنين عندما تقول :

يا عـاطية بـدون مـنّ ** قـداش ضقـتي علينـا

مشي العمر من أجلنا الكل ** بيـن الصفـى والغبـينـة

بعـك الحـوش ظلم ** بـلا بيـك دارك حـزينة

إذا لفـيـت تفرح تهـلـل ** يا مـرحبـا بالحنيـنـة

صـدرك مـدينـة حنان ** عيـونـك أمـان وسكينـة

ذكـرك يحـلي الفـم ** وشـبحـك كـما العيد فينا

والأرض حيّة لا تموت لكن مصير الأم أن توارى يوما في التراب فينفجر الألم وتأتي هذه المرثية المؤثرة .

زهـرة بكـت يـا غـالي

جنـاحـي انـكسـر

نحسـاب حـيطـي عـالـي

مـن بعـدهـا اللي يعدي هبـالي

لكـن المـولى رادهـا فرقتـها

قـلبـي انحـرق يـا دادة

على الغالية الـلي دايما علي نشادة

وتـبـري أوجـاع ظايمـة بنيتـها

ولا شك أن قدرة البدوية الخارقة على هذه المحبة هي الظاهرة المميزة لحياتها وبالتالي فإن شعرها كلّه ينضح بها , فهاهي تناجي نفسها موصية إياها بالوصية الأولى التي بنى عليها آخرون دينا برمته .

نوصيـك يا قلبي تنـاسى الغلطة ولا تـود لاشـي كـره لا دونيـه

يجي يوم من الأيام تنسى جرحك وتـرتاح مـن بعـد التعـب والعيـة

ونقـولك يا عين يزي ارتـاحي كبـرت ضميـدة جـرحهـا البنية

وحبها هذا سنراه تغمره به كل من حولها فهو نهر متدفق يرتوي منه كل عطشان , ولأنها نبع المحبة فإنها غير قادرة على رد الإساءة خاصة إذا كانت من حبيب , ممنية نفسها الموجوعة بأن الزمن سيعالج ما أثخنه فيها من جراح .

حبيـب انـزرع في ضميـري علّـة

ولا نقـدش نشـكي نـظهـر القولان

شيـّر بسهمـه اليـوم بيـه رمـاني

عــلى سيـّتــك والله لانــي قايل ديمه

حبيــبي مــن قـــداي اطـــمـــان

الجــرح المبــربــر لازماته ضمايـد

ويبـــريه طــول الــزمــن والنسيــان

والبدوية ككثير من النساء هذا الوطن عرفت مأساة هجرة الرجل زوجا أو أخا وفي كلتي الحالتين حبيبا . ويغيب الأخ وراء البحر وتقل أخباره وتبهت معالمه , لكن من أين للبدوية أن تنساه وقد دسّته في القلب وبين الحشى فتبعث إليه تعاتبه .

حيــة نـــار تضرام دخــان في الكبــد عملـت شــرارة

على زول من فارق الــدار أولاده صغار عمر بلاد النصــارى

عــاملين بالعـد تحكــار لا طـل ولا زار خــلّ خواتــه حيارى

فــراق الــوخي مـــرذ لا تشوف شرّ وحشة سقاني مــرارة

بجــاه النبـــي السمـــح لبشـــر قــرب قــداي مـزاره

وحتى لا يكون العتاب موجعا ولأن حساسيتها أشف من بسمة الفجر فإنها تبادر وتعيد الكرّة .

نحــدثــك مــن قــلب وأنــت اصغــالي

وبالــك عـلي تضــحـك تقـول بوهــالـي

جــافيــتــني بــلا مـوجعــة بلا سيــّة

وحشـــك وذرف الدمـــع راهــو عمــاني

فــي القــلب مــا بيــن الحــشى دسيتــك

ومغــلفــاك بمــحبـــتي وحنـــانـــي

ولقد تمعنت كثيرا في شعر البدوية لأنني أحب شعر الفقراء والبسطاء والمغمورين هؤلاء الأبطال الحقيقيين الذين يجهلون أنهم أبطال والذي يتاجر أو يستولي على بطولتهم المحتالون . إلا أنني لا أعرف من شعرها قصيدة أكثر تأثيرا في نفسي من قصيدتها في ابنتها كريمة , فالبدوية لا تبتل بضنك العيش والغربة , وبهجرة الأخ والأب وإنما ابتليت بأعظم مصيبة يمكن أن تصيب أما بهاته الرقّة وبهاته الحساسية : ولادة طفلة معاقة

وقد حكت لي ونحن نخترق البحائر هذه المساحات الشاسعة من الحجارة التي تفصل بين قابس وقبلي ظروف ولادة هذه القصيدة فقد آلمها أن يعنف أحد أبنائها عن غير قصد الطفلة المريضة العاجزة عن الفهم وعن ردّ الفعل , فانتحت جانبا من المنزل لتبكي فجاءها الشعر مع الدموع مدرارا .

نـدمي عليـك المـوج ونطّـب البحـر

نخـشّ عليـك النـار لا نقـولـش خطـر

نعـطي عليـك عيـوني كـان طلبوا النظـر

قصـة صبـري عمـاك سطّـرها القـدر

انكتـب فـي جبينـي ما ينفـع حـذر

لـك عمـري هـديـة كـان طـال العمـر

مـن بغـاك بغيتـه لـو سقـاني المـر

مـن كـرهـك مـا نـريده إن كـان أغلى البشـر

كـان عشـت انخبـيك تحـتي كالسـقـر

كـان مـت وخليتـك غيـر رومي الصبـر

نـوصي عـليك آمـال وعـلي وعـمـر

نـوصي عـليك الـزهـرة وجـميع من حضـر

نـوصي عـليـك الحـوش حيـوطه والشجـر

بعـده زوروا قبـري تلـقـوه انـشـطـر

انجـيكـم فـي المنـام إن كـان وصلها شـرّ

قلت لها مداعبا ومغيّرا الموضوع حتى لا تلاحظ تأثيري أنا الذي أعلم كثيرا من العائلات تربط الأطفال المتخلفين ذهنيا إلى السرير كالكلاب طيلة النهار .

" هلا فسرت لي من أين أتاك لقب البدوية , وأنا أعرف لك منذ سنين اسما آخر " ؟ قالت تفتعل الغضب : أبنائي أصبحوا "بلدية " , ويتهكمون على لهجتي المرزوقية الصرفة , قلت مداعبا : " هم على حق أتتصورين الفضيحة التي ستتسببين لي فيها , لو قدمتك لمن أعرف من المتفغنسين والمتفغنسات ؟ أليس من العار أن تتكلمي الساعات دون أن تنطقي بكلمة فرنسية واحدة أو تصرّفي فعل " فكنص " للحديث عن اجازتك في باريس ؟ لابد أن أضعك في متحف , فأنت اليوم حالة شاذة في وطن الفرانكو آراب .

قالت : لأهجونّك إن فعلت , مثلما هجوت زوجي هذا الجالس بقربك . وصرخ الزوج : ماذا ؟ هجاء أيضا . ورفضت البدوية رغم التهديد والاستعطاف أن تقول لنا الأبيات .

" هذا سلاح ردع ألوح به دوما , ولا أريد استعماله الآن " . وضحكنا وكانت رحلة من أمتع الرحلات .

لكن حذار من أن تتصور البدوية امرأة توقف اهتماماتها على مشاكلها الشخصية , أو أن نرجسية الشعراء طغت عليها فحبستها في إطار شخصيتها ,كلا لأن البدوية بصفتها أما ومواطنة تعاني من صعوبات الحياة , مرآة صادقة لما يختلج في صدر كل أمهات من تطلع لغد ينعم كل الناس فيه بالمساواة والحرية والكرامة .

لا غرابة أن تبث جام غضبها على من حولها من رجال متخاذلين , فتدعوهم بسخرية هم المتشدقون برجولتهم , والمتجبرون على نسائهم , لعجزهم عن فرض أنفسهم خارج جدران البيت , إلى ترك لباس الرجال والالتحاف

"بالحولي " النسائي , وإلى التعامي والغط في النوم ,وممارسة الجبن كرياضة يومية , والتهرب من الاصداع بالحق والدفاع عنه .

لكن البدوية تعلم أن هذا الجنس من الرجال إلى فناء وأن هناك من سيأتي بزهرة الحرية , فتعدهم بعيونها هدية وعربون محبة .

يا رجال يا أمالي القلوب صدية

نحو الجبايب والبسو حولي لا حظكم كدوارة

ولا حظكم اسم الرجال خسارة

زدتوه وطني على الغيار غيارة

وزدتوه على دركه تعب وعيه لا تغضبوا لا تغيروا

ولا يوم من ذل الهوان تحيروا

غير اغفلوا – غير ناموا

تكلموا وتخاصموا وتعاملوا

مرتاح يضحك على هبالكم نية

مساكين أنتم كي مثيل نعامة

قلبي شعل بركان فاض علي

تاريخكم يا شينة مشى بين الصفى والغبينة

فيكمش منه اللي ديني على دينه

صرخ قال هذا الحق راهو لي

تتكلموا في الحجبة

وخائفين من الايام قلبة بقلبة

يقولوا عليكم تصبحوا في غلبة

والحبس للازفات والقطعية

الحبس للرجاله اللي يغضبوا ولا يقبلوا ها الحالة

أحرار ولو لبسوا جميع أغلاله

ودهليز مظلم هم يبدوا ضية

للهم عيوني هدية وللهم كفوني يريحوا ما العية

و نهارها نتحاسبوا عالدية

وفارقت البدوية وكان فراقها صعبا , وتساءلت زمنا طويلا لماذا كنت أشعر وأنا أفترش الأرض في منزلها المتواضع بكل هذه الراحة النفسية . حقا كانت لهجتها البدوية المحببة تغسل أذني و عقلي من أدران الفرنكوآراب وكان حنانها الذي تغمرني به هي و زوجها و أولادها كلما زرتهم يمسح عن نفسي المتعبة ما تراكم عليها من غبار كراهية الوصوليين و الانتهازيين و الجبناء .

حقا كانت براءتها تنزل بردا و سلاما على عقل أنهكه التفكير في مشاكل بلا حل. حقا كنت دوما أطأ عتبة دارها وكأنني آت لأملأ بطاريات طالها الوهن و أتعبها طول النزيف, لكن بماذا؟ ثم فهمت يوما فالبدوية في هذا المجتمع الذي أصبح فيه الرياء والكذب والجبن و التملق والاستغلال و التغرب و الغش أسلوبا مقبولا للعيش , رمز يجهل أنه رمز , حصن يجهل أنه حصن, ولأنها الكرم والمحبة والبراءة و التعفف, ولأنها الذاكرة التي تربط الماضي السحيق بالمستقبل الذي يعد لتونس أجيال النصر, فإنني كنت من دون أن أشعر أملأ بطارياتي حذوها بهذه المادة التي بدأت تنضب و نحن بين موت ومخاض : الأمل والثقة بتونس والتونسيين, فشكرا و ألف شكر لك يا خديجة , فقد غمرتني بالعطاء من حيث لا تشعرين .

****

الباب الثالث
سياسة للإنسان و الناس

مجوس هذا العصر غربتهم يكون

لم يظهر النجم لكن ظهر السادة واللصوص

وشعراء الحلم المأجور

وأغمدوا سيوفهم في جثث الأطفال

وفقراء المدن الجياع

وحرفوا شهادة الأموات

والكتب المقدسة

من أين يأتي النور ؟

ونحن في كل العصور حجر الطاحون

نستبدل الأغلال بالأغلال في الطابور

يبيعنا الطغاة للطغاة والملوك للملوك

عبد الوهاب البياتي

بـين الملائـكـــيين و بنـي مكيافـــال

يقول إيليا أبو ماضي :

واهـجر أحـاديث السـياسـة والآلي ** يتعلـقون بحبل كل سياسـي

إنـي نـبذت ثمـارها مذ ذقتـهـا ** ووجـدت طعم الغدر في أضراسي

و قد اختصر محمد بن صالح كل هذا الاحتقار للسياسة وأهلها في جملة :"إن أردت أن تشتم أحدا فلا تقل له يا ابن ال..... و لكن قل له يا ابن السياسة ". ومن المضحك ومن الطبيعي أيضا أن يبادرك اليوم أي سياسي أكان هاويا أو محترفا بالموقف المعروف: أنا لا أمارس السياسة (معرفا إياها بتعريف غريب"السياسوية") محاولا إقناعك , عبثا أن من الأعداء والمنافسين من يمارس هذا النوع القبيح من السياسة, أما هو فمثالي طاهر جره شعوره بالمسؤولية و حبه للوطن إلى حلبة المعترك السياسي . وما عليك إلا أن تفهم أنه لا يمارس السياسة وإنما عملا آخر قوامه البذل والعطاء وخاصة الكفاح ضد ... السياسة. ومع ذلك .... رغم اللامصداقية التي أصبحت الكلمة تثيرها عند القاصي و الداني (الشيء الذي جعل السياسي نفسه يتعاطى مهنته كمن يتعاطى تهريب المخدرات أي بكثير من الشعور بالذنب وهو الشعور الذي يتغلب عليه باحترامه الشديد للأرباح التي تحققها له المهنة) فإنه يسعنا القول مع إدقار موران أن السياسة أهم ما في الوجود , إنها أهم من الطب , من العلم , وحتى من الدين الذي لا يشكل سوى فرعها المقدس وأنها أعقد منهم بكثير.

فالطب يتعامل حقا مع صحة وحياة الأفراد والمجموعة , ولكن السياسة تقرر حياة أو موت الأمم والشعوب , أضف إلى هذا أن السياسة تتعامل دوما مع أغلى وأهم الأشياء بالنسبة للإنسان , الحرية – الكرامة – السلم أو مع النقيض : العبودية – الإذلال – الظلم – الحرب .

ومن ثمة السؤال المبدئي (والساذج) هل السياسة ما يصف إيليا أم هل هي ما يقرره موران ؟ لكن هل نحن حقا بحاجة إلى الاختيار والانتصار لأحد الموقفين ؟ فمن الواضح ومن البديهي أن السياسة كانت ولا تزال وستبقى ممارسة قذرة ملطخة بالوحل , والدم والدموع . إنها مدرسة الغدر والنفاق والرياء والجبن والطمع والأنانية والوصولية . إنها مرتع الهوس وشتى أصناف الجنون والعصاب , لكن من الواضح ومن البديهي أيضا أنها كانت ولا تزال وستبقى مدرسة وميدانا من ميادين انتصار الإخلاص والتضحية والشجاعة والنبل وحب القيم لا المصالح ..

لا غرابة في هذا لأن الثنائي والازدواجية هي الخاصية الأولى المكنونة وسر الأسرار هي النواة الصلبة لكل مظهر من مظاهر الحياة , والإنسان يحمل هو الآخر هذه الازدواجية وهذه الثنائية , بل قل إنها تشكله وتوجهه وتتحكم فيه لأنها حقيقته الأخيرة .

يقول سارتر :" إن الجحيم هو الأخر " ويقول هوبز : " إن الإنسان هو ذئب للإنسان " , لكنهما مخطئان على طول الخط لأنهما وقفا عند ويل للمصلين , فالآخر هو الجنة الوحيدة الممكنة ... والإنسان هو أيضا الحامي الوحيد للإنسان من شتى أنواع الذئاب , أكانت تصطاد داخل الغابات , أم داخل المدن المتحضرة سمين الصيد من أبناء البشر .

ومن ثمة نفهم سذاجة النقاش الكلاسيكي حول علاقة الإنسان بالمجتمع , هل هو خير بطبيعته لكن المجتمع أفسده كما يدعي روسو ؟ أم هل هو شر مطلق يأتي المجتمع لتمدينه وتقليم أظافره ؟ وحتى تكون لنفسك فكرة عن الموضوع, أنظر للطفل في بداية تطوره, وستفهم طبيعة الإنسان الأساسية . لاحظ أنانية الطفل وقسوته الفطرية

(البريئة؟) وحسده و غيرته ونزاعه مع اخوته للاستئثار بعطف أبويه و بقطعة اللحم الدسمة الوحيدة في الطبق العائلي . راجع أهمية و طبيعة الجهود المضنية التي تبذلها كأب أو تبذلينها كأم لكسر شوكة هذه التصرفات, لحملة على قبول تصرفات أخرى قوامها التعاون والمحبة والتسامح و...و....

لا جدال أن الطفل – الإنسان ليس شرا مطبقا, وإلا لما استطاعت التربية أن تتعامل معه في شيء. ولاشك أيضا أنه ليس خيرا مطبقا و الدليل أهمية الجهود التي تبذلها لتمدينه والتي قد تأتي بأكلها أو لا تأتي .

والمجتمع بطبيعته مكون من ملايين الناس الأطفال , يأتون لهذا المجتمع بغرائزهم و بقابليتهم للتغلب عليها, منهم من ينضج فيصبح " إنسانا", ومنهم من يموت في أرذل العمر وهو لا يزال ذلك الكائن الغرائزي البدائي الذي أضفت عليه جل الحضارات في محاولة للتمويه وصفة البراءة, وهو أبعد ما يكون عنها, و من ثمة الازدواجية داخل المجتمع لأنه ليس أكثر من حصيلة الغرائز الأولى وحصيلة محاولات تجاوزها .

وعن هذه الازدواجية داخل الإنسان و داخل المجتمع تنبع بالضرورة ازدواجية السياسة , فإذا بها في نفس الوقت كل الخير و كل الشر .

والسذاجة أن نتصور أن هناك إنسانا / حزبا / عقيدة يمثل اليان (**YAN**) النور / الخير / وأن هناك في المواجهة إنسانا / حزبا / عقيدة يمثل الين (**YIN**) الظلام / الشر . فلو كانت الأمور بهذه البساطة, لما شكلت السياسة معظلة المعظلات , وهي معظلة لأن التكامل / التناقض / التجاوز / التجاوز بين اليان / الين , وبين النور / والظلام, بين الخير / الشر , بين الطفولة والنضج , بين الهمجية و التمدن , موجود متطور داخل كل سياسي , داخل كل حزب, داخل كل عقيدة لأن التناقض موجود متطور داخل الإنسان, داخل المجتمع, داخل الحضارة نفسها , وهذا ما أدى و يؤدي إلى اختلاف الرؤية والتقييم للسياسة , فمنا من لا يرى إلا النصف الأيمن للوجه ومنا من يصر على أنه ليس للوجه إلا النصف الأيسر. والحال أن السياسة بالضرورة وجهان.

ويبقى السؤال الأهم : بما أن السياسة أوظار و أدناس و في نفس الوقت أهم ما في الوجود, وبما أنها تتدخل في كل جزء من أجزاء حياتنا فكيف نتعامل معها؟

نحن نعلم أننا إن أهملناها فإنها لا تهملنا , إنها خطر ما حق يهددنا دوما, و إنها أملنا في حياة أفضل.لأن الإنسان مزدوج, لأنه ملاك شيطان ومن ثمة فلا أمل بانتصار نهائي ما حق لقوى الخير على قوى الشر(انتصار السياسة على ... السياسوية) كيف نواجهها إذن؟ بما أن المعركة ستبقى و ستتطور طالما بقي الإنسان, طالما ولد طفلا... طالما بقي له خصائصه, طالما بقي الكثير من الناس أطفالا.

والرد هو أن علينا أن نحاول دوما ترجيح الكفة ...كفة الجنة على جهنم ,كفة صائد الذئب على الذئب ... وأن نتسلح باليقظة لأن العدو متجذر ... متمرس داخل كل واحد منا . ولترجيح الكفة (ولو مؤقتا) ظروف وشروط منها ما يدخل في نطاق صلاحياتنا ومنها لا يدخل . فمن البديهي أن قيام حرب عالمية مثلا وتقهقر الحضارة المخيف الذي قد يتبعنا سيعني انتصار الذئب ثم سيادته لقرون طويلة قبل أن تعيد الإنسانية ترتيب البيت وإعطاء الكلمة من جديد لصائد الذئب . وحتى لايصل بنا الذئب إلى مشارف الحرب الكبرى , وحتى لا يصل بنا إلى مشارف التطاحن المدمر داخل أوطاننا الصغيرة ومجتمعاتنا المريضة فإن علينا أن نبحث

وبسرعة متصاعدة نظرا لتعاظم الأخطار , عن شروط وظروف سياسة أخرى تعطي الأولوية (ولو مرحليا) للملاك عن الشيطان لصائد الذئب عن الذئب وما فصول الصراع بينهما من قديم الزمان إلا فصول صراعاتنا السياسية .

نحن اليوم كناس كل العصور مواجهون بالأخطار والآمال , لكننا خلافا لمن سبقونا , بدأنا نفهم الكثير من قواعد اللعبة فعدد الواعين وكثافة الوعي داخل كل دماغ في تصاعد متسارع , وبما أننا أول المعنيين بالأمر فقد آن الأوان لأن نقحم نحن " المتطفلين " أي عامة الناس , أنوفنا في السياسة لنفهم آلامنا وآمالنا , ولنمارس حقنا في تقرير مصيرنا , خاصة وأن إحدى دروس التجربة هي خطر ترك السياسة لمن يتمعش منها , وهذا يتطلب منا في البداية أن نفهم لماذا التمعش وكيف أصبحنا رعية تحرسها الذئاب ليجز صوفها . والتجارب السياسية اليوم لا تحصى ولا تعد , وهي تزخر بالدروس والعظات . وقد بدأت هذه الدروس تتغلغل شيء فشيء في عقول الناس وقلوبهم , وبدأنا نفهم أعراض المرض الخبيث الذي ينخر في أحشاء السياسة (السياسوية كما يقولون) , ويوم يبلغ الوعي درجة معينة يأتي التغيير بالضرورة

والمرض الخبيث واضح جلي في لغة السياسة نفسها . فقد أفرغت الخطابية الكلام السياسي من كل محتوى , وأصاب الألفاظ مرض خبيث , وبهتت ملامح المعاني , وأصبحنا نسمع السياسي , فلا نصدق حرفا مما يقول , بل أًصبح هو الآخر يخطب وهو لا يصدق نفسه , وهو يعلم أننا لا نصدقه . وبانهيار الخطاب السياسي هذا الانهيار الذي عجلت به وسائل إعلام أصبحت مسخرة الجميع , أصاب المجتمع مرض اسمه التفسخ . فالسياسة كخطاب هي بالضرورة دعوة وتركيز على قيم صائد الذئب : العدالة , السلم , النظام , التآخي الخ ... ومن ثمة الكارثة , عندما يصبح هذا الخطاب مثيرا للشك ثم للسخرية , ثم للتنفيذ , وأخيرا للتكذيب القاطع , لأن السياسة هي المشروع الجماعي , وعندما يفقد المشروع كل مصداقية , يكون التذرّر والانخرام والفوضى .

الواجب الأول إذن : إعادة الصدق والمصداقية للخطاب السياسي لكن للمرض أبعاد أخرى أخطر وأعمق تتعلق بالأسلوب المعتمد , بعقلية الممارسة نفسها .

هذا "القرف " الذي أصاب الناس من السياسة هو النتيجة القصوى للماكيافيلية التي سيطرت وال تزال على عقلية رجالها من قراء كتاب لأمير الماكيافال حيث يتعلم الكل أن الغاية تبرر الوسيلة , أن السلطة هي هدف الأهداف , حيث يدرس الجميع فنون الغش والخداع للوصول إليها والمحافظة عليها . والمكيافيلية بالطبع هي محاولة التنظير لمواقف الذئب , وهي إن لاقت هذا الرواج وهذا القبول الواسع فلأنها تخاطب أعمق الغرائز وأهمها , فهي تجد استعدادا فطريا لقبولها والتعامل معها , ولكن المشكلة المكيافيلية , أظهرت في شكلها العنفواني الوقح , أو تغطت بهذا الرداء أو ذاك أن الإنسان ليس شيطانا فحسب , لكنه أيضا ملاك . ومن ثمة ظهور المقاومة أوتوماتيكيا , فلا شيء يبلور الوفاء قدر الغدر , ولاشيء يجعل بالمطالبة بالعدل قدر ممارسة الظلم . ولا شيء يمكن من بروز الشجاعة قدر استشراء الجبن . وال شيء يثير القرف من الشخصانية قدر المبالغة فيها الخ ... الخ ...لذلك كانت حدود ومأساة المكيافيلية , إذ تخلق ظروف نهايتها , وتتعهد أسباب القضاء عليها , فمن البديهي أن يكون السيناريو في كل مرة الفشل المطبق حتى ولو تكررت الأساة إلى ما لا نهاية .

فالمكيافيلية إذن حتى بمقياس المقاييس الذي تعتمده (الفعالية) فاشلة بالضرورة , فهي لا تصل للسلطة إلا لتفقدها طال الزمان أو قصر , وهي لا تمارس السلطة إلا لتكشف عجز السلطة , ناهيك عن الثمن الفادح الذي يدفعه لها بنو مكيافال . فمن منا يعرف جو الخوف والحذر الذي يعيشونه ويقبل عن دراية ووعي بالتمتع بالسيطرة مقابل فقدان النوم .

والثمن هذا بغير ذي أهمية بالنسبة للثمن الحقيقي الذي يدفعه الناس للمكيافيلية وفشلها الحتمي , وله أسماء مختلفة : تعذيب ,حرب , استبداد , فقر ,إرهاب , سوء تصرف , ومن ثمة الضرورة الثانية أو الواجب الثاني : أن نجعل من السياسة لعبة شفافة لأن المكيافيلية لا تزول ولكنها كخفافيش المغارات لا تتحمل النور , ولا تستطيع شيء والأضواء الكاشفة مسلطة عليها .

ولكن ألسنا هنا بصدد الوقوع في فخ السذاجة القاتل , أمن الممكن في عصر كهذا ومجتمع كهذا أن تكون السياسة ممارسة ملائكية ؟ طبعا لا , لأن الممارسة اللامكيافيلية أو الطوباوية مهددة بفشل أعمق وأسرع من الممارسة الأخرى .

فالملائكية في السياسة ,كمصارعة الثيران بالخرقة الحمراء لكن بدون السيف , فالنصف الذئب في الإنسان لا يثيره شيء قدر الضعف أو ما يخيل إليه أنه الضعف , ونحن نعلم أن التاريخ وأن لا يعدّ كثيرا من "الملائكين " فإنه حفظ أسماء الأغلبية منهم وفي القائمة نجد اخناتون وعيسى المسيح وغاندي ومارتان لوثر كنج , الخ ....

ولاشك أننا نجد في تعاطف الإنسان مع اخناتون ضد الكهنة , ومع عيسى ضد قيصر روما ,ومع مارتن لوثر كنج ضد الكوكليس كلان , وفي تقززه من نيرون وانتصارهلكلود ضد كاليجولا , ما يرسخ قناعتنا أن الذئب فينا حتى وأن انتصر المرة تلو الأخرى ليس بالضرورة منتصرا في النهاية .

يبقى أن الملائكية لا توصل للسلطة , ولا تمكن من الاحتفاظ بها طويلا في حالة التربع على سدتها . وعدد السياسيين المغتالين لتعرضهم للمكيافيلية الذئبوية لأصدق دليل على هذا . أين الحل إذن بما أنها إذن لا فعالة مثل المكيافيلية .

نحن نتصّور عادة عندما نوضع أمام مثل هذه المفارقات المصيرية أن علينا أن نعمق النقاش بيننا , فنختار عن كثب وروية و تنتهي الإشكالية , و الحال أننا غالبا مسيرون و لا مخيرون , و أن وعينا و نقاشنا ليس إلا جزءا من هذه المفاعلة البالغة التعقيد التي تغلى في قدر التاريخ , و التي نحن وقودها و قادتها في آن واحد .

فمن البديهي أن التاريخ (أي تطور تجربة الإنسانية) تشهد و ستشهد فصولا مريرة من الصراع بين الملائكية و المكيافيلية , و أنه يمكن لنا أن نصف أشكالا من تجاربه تحاول لجم المكيافيلية دون الوقوع في فخ الملائكية , فنقرر آنذاك أن علينا تعميق مثل هذه التجارب لأنها المخرج الوحيد من المأزق المصيري , و أننا إن فعلنا فسنكون وضعنا أنفسنا في مجرى هذا التاريخ و بالتالي إ ن حظوظ النجاح ليست منعدمة .

لا شك أن التجربة السياسية الأكثر تقدما في العالم اليوم أي الديمقراطية هي من أنجع هذه المحاولات و التجارب , فالشفافية التي تسمح بها حرية الصحافة و سيادة القانون الذي يسهر عليها قضاء مستقل , والاحتكام الدوري للناس الذي يمكنهم من تقييم الأحزاب و الأشخاص , تقنيات سياسية , أنضجها التاريخ في محاولته لكبح جماح الذئبوية البشرية و الاجتماعية و ترجمتها السياسية , أي المكيافيلية , و الموضوع مرة أخرى ليس كالقضاء المطلق على هذه الأخيرة , و هو الأمر المستحيل ,إذ سيعرف أي نظام مهما كان متقدما تجاوزات الشرطة في أقبية السجون , وارتشاء الوزراء و القضاة , واستعمال الصحافة للمآرب الخسيسة

, و ارتقاء البعض إلى أعلى المناصب بالغش و الخداع إلخ ...و إنما الموضوع كان و سيبقى تطوير أجهزة الردع و المراقبة و التطويق التي تمكن من احتواء الذئبوية و تقليم أظافرها .

لكن دور السياسة الأهم هو أن توظف و تستثمر , و تتعامل مع الوجه الآخر للإنسان : ملائكيته أي قدرته الخارقة عن البذل و العطاء و الأثرة و التضحية و الشهامة الخ ...هذه الخصائص التي جمعناها في مصطلح الإنسانية (رافضين أن تكون الذئبوية (1) جزء من هذا المصطلح أو متصنعين الدهشة من تواجدها داخل الإنسان)

حقا لقد بنينا و سنبني المؤسسات التربوية و الدينية الخ ... التي تنمي هذا الجزء من الإنسان و الإنسانية , لكننا نستطيع القول عندما ننظر حوالينا أن مردود مثل هذه المؤسسات لا يزال ضعيفا .

و لماذا ؟ .. لن الأغلبية الساحقة من الطاقات و من القدرات مجمدة , و هي كثروات لا تهدر لا لأنها تنفق بسخاء و إنما لأنها تبقى في الخزائن الحديدية , بلا جدوى و نفع لأحد .

ولم هذا؟ لأن السياسة تعرف حقوقها تجاه الإنسان و تتجاهل حقوق الإنسان تجاه السياسة ومن ثمة اختلال التوازن المريع بينما يطلب من الإنسان و الناس , بينما يعطي للإنسان و الناس , فشعار السياسة المكيافيلية تلك المقولة التافهة " رجل كألف و ألف كأف" و الحال أن لا الواقع و لاالمنطق ولا العلم يمكن من الموازاة بين ألف دماغ و دماغ واحد . لكي يعطى لدماغ واحد قدرة العمل دون تقييم , والخطأ دون التصويب و نتج عن هذا "التنظيم " المهدر للطاقات المضيع للكرامة , الذي لوث السياسة و سائر مؤسسات المجتمع , العجز و الإحباط , والتمرد الدوري .

لهذا أصبحنا اليوم مطالبون بأن نقول : آن الأوان للتوقف و لمراجعة قواعد اللعبة إذا أردنا أن نتحصل على نصيبنا المشروع من الدنيا , والقواعد الجديدة بالضرورة عكس القواعد القديمة : ومن أهم ملامحها أولوية حقوق الإنسان والناس على حقوق بعض الأشخاص , وأولوية الألف على الواحد , أولوية الفكر الجماعي على الفردية و الشخصانية .

لكن ما هي جدوى الاعتراف بحقوق الإنسان والناس إن لم يكن ذلك مدخلا لإشراكهم بصفة فعلية لا بصفة خيالية مزيفة (إنتخابات الـ**99.99 %**) في تقرير مصيرهم و مصير المجتمع , خاصة و أن من شأن هذا وحده أن يدفع بنا إلى الأمام وأن يمكننا من تحقيق مطامحنا الفردية و الجماعية ؟ ومن ثمة الضرورة الثالثة إلغاء كل وصاية أو إقصاء يحدان من طاقة الناس , ومن استغلالها المحكم في عملية التنمية واستغلال كل هذه الطاقة الجبارة في المؤسسة والمصنع والإدارة و الكلية و الحزب و الجمعية .

ويــوم

نعيد للخطاب السياسي مصداقيته

و نبني دولة القانون الكفيلة بلجم الذئبوية الميكيافيلية

و نبني دولة المؤسسات الديناميكية بالمشاركة الفردية في كل دواليب الخلق و الإبداع و العطاء مع ضمان التجدد بالتقييم والتداول.

فإننا سنكون قد تقدمنا خطوة هامة ...لأننا سنتجاوز وضعيتنا كفاران المختبرات التي يجري عليها التاريخ تجاربه , لأننا سنكون قد روضنا السياسة بعد أن طال استبدادها بنا لأنها هي التي ستصبح فأر تجربة ونحن المجربون

***

قال مجيبنا و كان واحد من المئات الذين حملت إليهم تساؤلاتي , لأنني رجل الأسئلة ولست رجل القناعات : هل تعلم أن الأحداث و أعمارهم لا تتجاوز أحيانا الرابعة عشر من العمر يلقى بهم اليوم في غياهب السجون ؟ و أضاف و العبارات تخنقه : هل تعلم أنني أصبحت أشعر بآلام حادة في بطني هذه الأيام , كلما تتبعت بعض القضايا ؟ قلت في نفسي : هل أحدثه عن المغص الذي ينتابني بعد كل عيادة , هل أقول له ذلك المثل الذي طالما رددته لنفسي " رب طبيب يداوي الناس و هو عليل " . يحدثونني عن آلامهم و أشاهد عمق فقرهم و هوانهم و مذلتهم و وصولهم و دورا نهم إلا منتهى بالحلقات المفرغة , فينفذ فجأة الأمل و تتلاشى الأمنيات , و يبعد الأفق و يتضح عمق المرارة و الخيبة , وتنتابني أوجاع لا قدرة لي على ردها .

قال : أأحدثك عن العجائب التي لا تخطر لك ببال في أروق العدالة ؟ قلت : و هل هناك فضائع و فضائح تفوق ما أعرفه في عالم الطب ؟ و تدخل ثالث ليحدث عن غرائب المحاماة و أعاجيب المقاولين و خرافات رجال السياسة و دخلنا في مقارنة و كأننا في مباراة , و طال الحديث . قلت : هل تحدثكما عن البنية التي جاءت من عين دراهم منذ سنوات في سيارة الإسعاف جميلة , حية , فوصلتني جثة هامدة , اتضح في ما بعد أن لا أحد يعرف لماذا أتت , و كيف ماتت ؟

, أذكر أنه قال : و هل أحدثك عن المحكوم عليهم بالإعدام الذين يساقون إلى المشنقة تحت وابل مكن الضرب ؟

قلت يومها هل تعلم ؟ قال : هل تصدق ؟ قلت : أسمعت ؟ قال :"و اللي فاتك أغرب " , قلت أصحيح ؟ قال أما في موضوع ... قلت موش معقول , قال ألم تعلم ؟ قلت : و في خصوص ... قال ... قال ... صرخت :كفى , فقد اشتد علي المغص .

و الحّ علي السؤال الأوحد : هذا الشعب ! شعبي الطيب , المسالم , التحضر ما هو الداء الخفي الذي ينخر أحشائه ؟

و تلك عادة في ... نتيجة تربيتي الطيبة , و المجتمعات هي الأخرى تمرض , تهرم و تموت , و قديما قال أحدهم : إنما السياسة طب لكن على مستوى شامل نعم الحّ علي السؤال أشهر و سنينا , شعبي الطيب هذا , أصبح شعاره ذراعك يا علاف , حوت يأكل حوت و قليل الجهد يموت .أضح السمع و سيهالك ما تسمع .

شعبي المتحضر هذا يعيش مآسي الرشوة و المحسوبيه و الانتهازية و الخضوع تارة و التمرد , و الظلم و يحترق كل يوم بلهيبها لماذا؟ و استعرضت قائمة الإجابات الممكنة :

لأننا تخلينا عن الإسلام فأصبحنا بلا دين و لا ملة .

لأن الصراعات الطبقية لم تفض لصالح البرولتاريا

لأننا شعوب متخلفة و دنيئة عرقيا و عنصريا .

لأن " سيدي ربي" لم يهد الحكام إلى سواء السبيل.

لأن الحزب الحاكم شاخ.... و تحجر و نخرت فيه سوسة اسمها الوقاحة لأنني لم أقم بواجبي , لأنك لم تقم بواجبك , لأننا لم نقم بواجبنا , لأنهم لم يقوموا بواجبهم .

لأنه لا حل اجتماعي و اقتصادي في إطار مجتمع نصف زراعي نصف صناعي و الحال أن وقت الزراعة فات و كذلك زمن الصناعة

لأن الركب فاتنا مرتين : فنحن في عصر الصواريخ الحجري بسرعة ..

لأننا نعيش تحت و وطأة الإمبريالية العالمية

لأننا في عمر الكلب .

لأنه لا وجود لمجتمع مثالي .

لأن الأمور لا يمكن إلا أن تكون على حالتها هذه .

لأننا خير أمة أخرجت للناس بشهادة الرب نفسه .

لأننا قدوة لبلدان العالم الثالث و انظر ما يجري عند الآخرين .

لأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان .

لأننا تعلمنا أن الأقربون أولى بالمعروف وان علينا أن ننصر أخانا ظالما أو مظلوما.

لأن الأمور تتطور بسلبياتها .

لأنه لا و جود للنور بدون الظلام ولا و جود للظلام بدون نور.

لأنني مغرض , حاقد , طامع في "كرسي ", فأفتعل المشاكل و لا أرى إلا السلبيات .

لأن في قلبك مرض و العهدة على الراوي أي على إعلام الحكم .

لأنهم يصطادون في الماء العكر .

لأن فينا من يؤمن بمقولة : هذا الشعب بحاجة إلى الخبز لا للحرية .

لأننا لا زلنا نؤمن بخرافة الحزب الذي لا يصبح بقاؤه الهدف الرئيسي له.

لأننا لم نفهم أن المستبد لا يكون عادلا والعادل لا يكون مستبدا.

لأننا ننتظر المهدي المنتظر عبر هذا الحزب أو ذاك الشخص .

لأن جريدة الحزب الحاكم الغراء تبيع سبعين نسخة في كامل إقليم تونس .

لأن الصعاليك و قطاع الطرق , و الحفتاريش و الأوباش لا يمارسون التنظيم العائلي .

لأننا نستهلك ولا ننتج إلا القلة و الرداءة .

لأن كلمة مهنة مشتقة من المهانة .

لأن نبيهم كان نجارا , فبنوا حضارتهم على العمل , و نبينا كان تاجرا فبنينا حضارتنا على البيع و الشراء .

لأنه لا معنى لكل هذه التساؤلات , ومن ثمة لا قيمة للردود .

لأنني حزين ... كالموت : هذه الليلة , أحمل حداد خادمة من عين دراهم ماتت ولا أحد يعرف لماذا و كيف .

لأننا فقدنا قدرة الغضب .

لأننا نتمعش مما نهاجمه.

لأن الغرب قلم أظافر قتلته قالييلي و جيور دانو برونو بينما لا نزال نرتعد فرقا أمام قتلة الحلاج .

لأن ملامح الطريق ضاعت .

لأن بصيص الأمل يضعف يوما بعد يوم .

لأننا أركعنا لأساتذة في المختبرات العلمية

لأن المعلم لم يعد رسولا .

لأننا لم نثأر إلى الآن للزنج و القرامطة و ابن المقنع.. و... و....

لأننا نحرم المخيلة .

لأننا نحرم المخيلة

لأننا نضطهد الذكاء .

لأننا نحاصر المخلصين و نكره المجددين .

لأننا نضطر الأكفاء إلى الهجرة و نتباكى على هجرة الأدمغة .

لأن لنا مصطلحات خاصة و خصوصيات , و خاصيات , و دولة خاصة ... دولة خواص .

لأن حس الجمال فينا يظهر في تزيين واجهات بيوتنا بجليز المرحاضات , أما الشوارع فلا يضيرنا أن تكون مملوءة بجثث القطط و الكلاب المنتفخة.

لأن الماركسية ليست علما و إنما خرافة جميلة

لأن ثقافة الأغلبية تتخلص في يا "بنت الفلاح يا حليلي من عينيك" ينهق بها بقارئ في مضخم صوت إلى الثالثة صباحا.

لأننا لا نعرف و ليس لنا كلمة مرادفة لكلمة **FINITION**

لأن شعار كل من يعمل "كعور اعطي للأعور "

لأننا ضربنا على الأرجل بالفلقة , فتعلمنا الذل من الكتاب.

لأنهم لا يزالون يضربون أطفالنا على الأصابع لتربيتهم في عصر بيداغوجيا العقل الالكتروني .

لأنني – لأنك – لأنه – لأنها – لأننا – لأنهم – لأنهن ...الخ.... الخ...

و الانحطاط ..كما علمنا التاريخ مرحلة نهائية لتشابك و ترابط مائة ألف سبب و سبب , لكن إحدى خصائص الفكر أنه لا يستطيع مواجهة التعقيد الهائل في التحليل لذلك تراه ينتشل هذا السبب أو ذاك و يبني حوله جسم النظرية ... طبيعي فأولى مهام التفكير : التبسيط و أنا لا يضيرني أن تنتشل من القائمة السبب "ترك الاسلام " أو السبب "لأننا لا نستطيع حلا مشاكلنا الاقتصادية بالتصنيع أو الفلاحة في عصر يرتكز التقدم فيه على تكنولوجيا ما بعد التصنيع " .كما لا يضيرني أيضا أن نفسر مأساتنا ب" إنما الأمم أخلاق إن ذهبت أخلاقهم ذهبوا .. ولماذا ؟ لأنني لا أستطيع باسم العلمانية أن أحرم عليك ما استبيحه لنفسي . وأنا أيضا أريد أن أفسر التردي الاجتماعي و الأخلاقي بسبب واحد يغنيني عن صداع رهيب لا طال تحته , و يوفر علي عناء التفكير العميق . وقد اكتشف السبب لا بالفكر و إنما بالممارسة .

هل لاحظت أنك أينما وليت و جهك و في أي مؤسسة : الجامعة – المصنع – الادارة – الاعلام – الدولة بشتى مراتبها – المدرسة الخ... تجد نفسك مجبرا للتعامل مع مشاكلك و مطالبك المشروعة و الأقل شرعية بالاتكال على الشخص لا على القانون , على إرادة الفرد الظرفية لا على الإرادة الجماعية المقننة ؟

و هل لاحظت أن حياتنا الاجتماعية أصبحت تعتمد على مقايضة دائمة لا ترتكز على القواعد المكتوبة التي تدرس في كليات الحقوق ولا ء/كرسي – مصلحة/ منفعة– رياء / رضى – تصفيق / وظيفة لابن الجهة دروس خاصة / نجاح – عيادة خاصة / علاج منطقي –كوميسيون/ تغاضي –وهلم جر ا وخفضا و رفعا.

معنى هذا أننا نعيش نوعا من الانفصام الحضاري و الاجتماعي (و من ثمة الشخصي): حقوق و واجبات نظرية في واجهة اجتماعية, تحكمها قوانين نظرية لا تطبق إلا على نوع معين من الناس ثم السوق السوداء حيث تكون المقايضات الحقيقية و في كل ميدان الشعار فيها : عندكش عندي. لذلك قال شعبنا : حليل اللي ما عندو والي . نحن لا نعيش في ظل دولة القانون وإنما في ظل دولة القانونان : المكتوب و اللامقول . والسوق السوداء كما يعلم الكل, يتحكم فيها السماسرة , لذلك عشعش فينا كالسرطان السياسي – السمسار , المحامي – السمسار و الأستاذ – السمسار . وصفف بقية المهن و لا تنسى منها واحدة باستثناء السمسرة , لأن السمسار – السمسار على الأقل لا يدع أنه يعمل لوجه الله .

لذلك أقول : نحن نعيش مجتمع سماسرة في زمن الخسة , لا غرابة أن يفرز مثل هذا المجتمع مقولات من نوع " حوت يأكل حوت و قليل الجهد يموت", "ذراعك يا علاف ". سببي أنا مرة أخرى : يتلخص في كل ما يشتق من كلمة شخص الوارد منها في القاموس و الذي لم يوجد بعد .نعم مصيبتنا الأشخاص – الشخصانية – التشخيص –التشخص –الشخاصة – و الشخصولوجيا – الشخصوية –اشتق من ش خ ص كل التعابير و اخترع منها ما شئت منا الشتائم , ولا تخشى غضب اللغويين , ففي ش خ ص السر المكمون لكل الهزائم و الفضائح.

أكبر غلطة نرتكبها يوم يطرح موضوع الإصلاحات الجذرية في هذا البلد : استبدال الحزب الزيدي بالحزب العمري , والصلف هو الصلف أيا كان لونه و تغليفه , و الشخص هو الشخص أيا كان الزمان و المكان , وحتى لا نعرف من جديد مآسي المحسوبية و الجهوية و الرشوة و الإعلام الأبله وانتخابات نوفمبر **1981** و .... و.... و.... يجب أن نبني دعائم دولتنا لا على أسنان المشط الثلاث ش خ ص , وإنما نبني هذا الوطن على دعائم أخرى تكون أصلب من الفولاذ تضمن له المناعة و الاستقرار : مؤسسات دستورية (تهضم الأشخاص و لا يهضمونها).

تقييم دائم لكل من يتحمل مسؤولية من أعلى مسؤول إلى أبسط عامل في أبسط حقل.

قانون يعلو و لا يعلى عليه ..قولا و تطبيقا .

نعم ليس أمامنا بعد أن تصل صخرة هذا المجتمع تدحرجا إلى الهاوية إلى أن نجمع الفتات لنبني دولة القانون ... دولة المؤسسات – دولة ترتكز على ملايين الأدمغة و على قدرات ملايين الناس , لا على إرادة أو أهواء هذا الشخص أو ذاك مهما كان الرداء العقائدي والسياسي الذي يتغطى به .

و لتكن هذه القاعدة ماثلة دوما بين أعيننا , إنه كلما كان الشعب عظيما كلما بدت الشخصانية تافهة .فهذه الأخيرة ليست إلا مؤشرا من جملة المؤشرات الدالة على تخلف الشعب و ضعفه و تفاهته . وهي سبب من أسباب بقاء واستفحال التخلف و الضعف و التفاهة . و من ثمة ليكن شعارنا مستقبلا : لا شخصانية بعد اليوم لأننا لم نعد شعبا متخلفا ضعيفا و تافها .

ضد الوصاية والإقصاء

رايات التمويه :

من البديهي أن لكل المصطلحات النبيلة دور مزدوج : التدليل في شبابها والتمويه عندما تهرم , لاحظ استعمال كلمة " اشتراكية " للتغطية على الدكتاتورية البيروقراطية "ليبرالية "للتغطية على الاستغلال "ديمقراطية " للتغطية على لعبة الأحزاب المافياوية .

لذلك أقول يجب الاحتراز من رايات التمويه هذه فهي مصطلحات رهائن ومن ثمة التقرير بأن دور الفكر اليوم خلق البديل لا على مستوى النظرية فحسب , وإنما على المصطلحات , لأننا بحاجة لفضح تمويه المصطلحات القديمة وخلق أخرى جديدة نكون على أهبة الاستعداد للدفاع أطول وقت ممكن ضد عملية اعتقالها .

لنبدأبالقضم في إحدى أهم رايات التمويه : دولة الجميع .

البـقـرة الحـلـوب :

تعريفي للدولة الحزبية إنها الهيأة التنفيذية , التشريعية التي تترجم داخل المجتمع لميزان القوى بين مختلف مكوناته , أي أنها تشكل دائما ترجمة انتصار الجزء على الكل والجزء هذا معرف ب/علاقات خارجية /إيديولوجية / طبقية /جهوية /عرقية / جيلية /شخصية

لا غرابة أن تدخل هذه الهيئة التي تمثل مصالح أقلية معينة في صراع مبهم غالب الوقت وعلني مكشوف إبان الأزمات , مع بقية مكونات المجتمع .

كيف يمكن لتشكيلة كهذه أن تبقى وتتطور , أقول بالاستبداد , أي بجزأيه المكونين : الوصاية والإقصاء .

نحن نـعـرف مصلـحـتكم :

خاصية الدولة الأولى هي محاولة فرض وصايتها على المجتمع ككل , أي تكريس مصالح وأولوية شخص /حزب / جيل / جهة / طبقة / إيديولوجيا / تحالف خارجي / على مصالح وأولوية / أشخاص / طبقات / جهات . وبالتالي فرض مصالح الفئة المتمتعة بجل الامتيازات المادية و المعنوية التي توفرها السلطة على الأغلبية المقموعة . وحتى تكون الوصاية تامة وفعالة تعهد الدولة إلى ثلاثة أساليب رئيسية بمهمة تكريس الهيمنة : الإعلام المظلل والقمع والصدقة .

دور الإعلام الرسمي كما هو معروف بأساليبه الكلاسيكية : الدعاية بالتكرار والمطرقة والمبالغة والاسفاف والمديح , محاولة إيهام الجماهير بأنها تتمتع بأحسن وصاية , وأنها هي التي تمكننا من تحقيق مطامحها المشروعة والعملية , وهو مبني أساسا على إرادة التضليل والتعتيم والتمويه ,لحمل هذه الجماهير المخدوعة على الإيمان بأن هناك توافق بين مصالحها ومصالح الفئة الحاكمة .

ومن حسن الحظ أن هذا الإعلان لا يلبث أن يفقد بسرعة أدنى فعالية و وذلك بفضل تظافر قوانين فيزيولوجيا الجهاز العصبي (عدم الانتباه إلى التكرار) وقوانين تطور المجتمع (ارتفاع عدد المتعلمين , وتزايد الوعي بما في هذا الإعلام من تناقضات وفوارق بينما يقوله وبينما يلاحظ أبسط إنسان .

القمع : هو موجه أصلا ضد كل الذين لم ينفع في تحييدهم الإعلام اليعيشي والمطالبون بحقهم في المشاركة في " الوليمة " .

الزكاة : من البديهي أن الفئة الحاكمة لا يمكن أن تأتي على كل الأخضر واليابس بدون خطر. لذلك لابد من ترضية ما نسكن بها الأفواه الجائعة والقلوب التي بها مرض أي أنه لابد من توزيع فتات الوليمة على كل التشكيلات الأخرى المكونة للمجتمع : اعتمادات قليلة للجهات المغضوب عليها , تأشيرات الأحزاب المقلمة أظافرها , تنازلات تفتك دوما بعد صراع مرير للطبقات المسحوقة الخ..

هل بإمكان سياسة مثل هذه أن تنجح أي أن تفرض تلاقي المصالح الخيالية والأغلبية مع المصالح الحقيقة لأصحاب الدولة الحزبية ؟ طبعا لا , بل بالعكس فإننا سنرى الهاوية تتسع يوما بعد يوم بين الفريقين , لكن لنتوقف عند وضعية هذه الأغلبية في ظل الدولة الحزبية .

الذمـيون الجـدد :

لا شك أن الشعور بالإقصاء هو اليوم الشعور الأكثر طغيانا بين فئات هائلة من شباب المثقفين من الطبقة الشغيلة, من أبناء الجهات المحرومة من التيارات السياسية إذ لا حق لهم في التعبير (عبر انتخابات نزيهة و لا في التغيير لفرض مصالحهم . فهم رعايا لا مواطنين , المطلوب منهم التصفيق والتهليل للإنجازات العظيمة التي ستجعلهم يشعرون أخيرا بفرحة الحياة في ظل أحسن وصاية هذه الإنجازات التي تقرر بمعزل عنهم , إذ و قع إقصائهم من كل مواقع القرار كالبلديات (المنصبة) و البرلمان (المنصب) و الإعـلام

(المنصب) . والخطير أن هذا الشعور يتعمق يوما بعد يوم , فإذا بالأغلبية "تتغرب " داخل وطنها , ومن ثمة و إرادة الهجرة التي أصبحت اليوم ميزة من ميزات مجتمعنا , و قد أصبح لها اليوم في بلدنا و في كل الوطن العربي ثلاثة و جوه :

لهجرة إلى بلدان أجنبية تكون فيها الغربة لكنها غربة طبيعية, إذ لا أمر أن يكون الإنسان غريبا في وطنه .

الهجرة إلى الماضي عبر تنظيم سياسي ديني ينمي في الإنسان الشعور بأنه فعال ومنتم و متأصل .

الهجرة إلى داخل الذات بالاستقالة من كل مجهود جماعي .

بـين السـلـطـة و الـتسـلط

مما يجردنا نظام الوصاية و الإقصاء؟ أقول من أعز ممتلكات : إنسانيته , لكن ماذا و راء هذا المصطلح الغامض ؟ لنعد من جديد إلى نظرية روز الكسمبورغ الشهيرة في الحزب الماركسي اللينيني الستاليني الذي شكل و لا يزال نموذجا كل الأحزاب الوصائية الاقصائية . فقد و صفت لنا عملية القرصنة التي يمارسها الحزب عندما يفتك سلطات و صلاحيات البروليتاريا و عملية القرصنة التي يمارسها القرصان الأكبر (ستالين و ذريته) عندما يفتك صلاحيات اللجنة المركزية , وبالتالي و صول الإقصاء و الوصاية إلى الذروة , فمن وصاية الحزب على المجتمع , إلى وصاية الهيئة المركزية على الحزب , إلى و صاية الشخص على الهيئة المركزية , إلى كل الاستبداد داخل الدولة و داخل المجتمع .

لنلاحظ عرضا ,

أن الدولة الحزبية لا تمارس الوصاية و الإقصاء ضد فئات تتوسع رقعتها يوما بعد يوم فحسب , ولكنها تمارس نفس السياسة داخلها. تذكروا عدد الأشخاص الذين مارسوا الإقصاء داخل الدولة الحزبية, وأقصوا بدورهم . تذكروا التصفيات الداخلية التي لا

تفتر , تذكروا إفراغ كل القلاع من محتواها ولماذا ؟ لأن الوصاية و الإقصاء فلسفة و ممارسة تنبع من الداء العضال : الشخصانية و الإرادة الفردية . وخذوا مني قاعدة و قانونا: أن درجة التخلف و الاستبداد في مجتمع تقاس بدرجة الشخصانية و درجة التقدم و الرقي بدرجة سيادة القانون

لكن ما هو محتوى القرصنة هذه ؟ السلطة طبعا , لكن ما هي مكونات هذه السلطة ؟ و أقول إمكانية التفكير و القرار و التقييم , معنى هذا أن القرصان صادر على كل المستويات , حريات ثلاث أساسية تاركا بعض الفتات منها للمجتمع المتخلف , وللقلاع الفارغة .لاحظ و أنت تنزل من قمة الهرم إلى قاعدته , التضاؤل المتصاعد : السرعة لشرعية التفكير و القرار و التقييم . منطقيا يجب أن لا تجد عندما تصل إلى قاعدة الهرم إلا جماعات من أشباه الرجال و لا رجال , فالإنسان بدون تفكير , و حق المشاركة في القرار و التقييم أي بدون حرية , عبد مسير لا مخير , أي شبه إنسان , لكن الواقع سيفاجئنا بردّات فعل مختلفة غير التي يتوقعها النظام الاقصائي (مضمونا) و الهرم (شكلا).

ومن الضروري هنا الانتباه إلى خاصيتين على قدر كبير من الأهمية سيفسران لنا ترتبات هذا النظام .

1–الطبيعة السرطانية :من السذاجة أن نتصور أن النظام قادر على تسيير كل الهرم الاجتماعي ميكانيكيا من علياءه , لأن هذا مستحيل , و ذلك نظرا لاتساع قاعدته و تعقيد أجزاءه المكونة . الحل إذن هو قولبة كل هذه الأجزاء هرميا , وملئ الهرم الاجتماعي بها. معنى هذا أن النظام سيفرض التنظيم الوصائي الاقصائي الهرمي في الجامعة , في العدالة , في المؤسسات الاقتصادية الخ... وهذا سيكون سهلا نسبيا لا لأن الناس على دين ملوكهم فحسب , وإنما لأن النظام الوصائي الاقصائي الهرمي إفرازة من افرازات ذئبويتنا الغرائزية و حضارتنا بنزعتها الاستبدادية المتجذرة فينا منذ نعومة أظافرنا في إطار العائلة الأبوية وحتى في علاقتنا مع

"أبينا الذي في السماوات " تمكن مثل هذا النظام من الترعرع كالسرطان الخبيث الذي وجد في جسم هزيل مهيأ بتربة صالحة . لا غرابة أن نجد في بلدنا اليوم الهرمية أي ملامح النموذج حتى داخل أحزاب المعارضة أو النقابات نفسها .

2–فشل السلطة : من المحاسن المفترضة لمثل هذا النظام فرض الانضباط وتوحيد الجهود واللحمة الوطنية , الخ , الخ ... لكن انظر حواليك ولن ترى إلا الفوضى وقلة الانضباط وانخرام اللحمة الوطنية وتوزع الجهود وسيدة الأنانية والجهوية الخ.

كيف يؤدي النظام الوصائي الاقصائي الهرمي بتأليه للسلطة إلى مثل هذا الانخرام الاجتماعي المريع , أي إلى أضعاف السلطة نفسها وتهديم دعائمها ؟

هنا لابد من أن نفهم أن السلطة وسيلة وليست غاية , وإنها وظيفة " فيزيولوجية " لابد منها لتسيير كل التشكيلات الحية , ففي الميدان الاجتماعي مثلا لابد من إرادة تنسيق وتخطيط , لكي تتظافر الجهود في الجري وراء أهداف محددة , لكن لابد من تقييم للنتائج ولابد من تداول إجباري لأن السلطة وظيفة قارة أزلية بينما أصحابها دائما موظفون مؤقتون , تقع ترقيتهم إن أجادوا . ومعاقبتهم إن أخطأوا . فهم رغم كل المظاهر جزء من وقود المفاعلة الكيمياوية الاجتماعية , وإن كانوا قادتها ظاهريا . وتبقى السلطة نفسها (وجودها , شرعيتها طبيعتها الخ) مرتبطة بما يتجاوزها وما يبررها , أي الأهداف التي تمكن من تحقيقها (على الصعيد الذي يهمنا , العدالة , والأمن والديمقراطية الخ...)

والآن ماذا يحدث داخل النظام الوصائي الاقصائي الهرمي ؟ مسخ السلطة من وظيفة فيزيولوجية ضرورية لكن لها قوانينها إلى تسلط أي إلى سيادة تصور منحرف يجعل من الوسيلة غاية , ولا يخضع لأي من القوانين التي تعطي للسلطة فعاليتها , هل يمكن للتسلط أن تؤدي دور السلطة؟ طبعا لا .

لأنهما من الناحية الوظيفية على طرفي نقيض : فالتسلط حالة مرضية لا فيزيولوجية وبالتالي فهو مصاب بخلل يضرب المجتمع في أعماقه فيعطل دواليبه ويهدر طاقته , ويعمم الإحباط والعجز لصالح منهجية ونرجسية المنتفعين بالنظام الوصائي الاقصائي , فحالة العجز والإحباط التي يؤدي إليها التسلط (كنتيجة حتمية إجبارية , إذ لا نصيب من الصحة لخرافة المستبد العادل) هي نتيجة جهله , أو على وجه التدقيق تجاهله بالطبيعة البشرية (وطبيعة المجتمع المعاصر) وأهم ملامحها :

أن الإنسان وإن كان بحاجة إلى قوانين تردع غرائزه الحيوانية , وتكبت ذئبويته , فإنه بحاجة أيضا إلى ساحة من الحرية تسمح له بممارسة أرقى خصائصه ومواهبه كالخلق والإبداع والمشاركة في أخذ القرار وتنفيذه وتقييمه . فالإنسان بجانب شحنته الغرائزية الحيوانية الخطيرة ,كائن يملك داخل دماغه مليارات من الخلايا العصبية , وله قدرات رهيبة جلها غير مستغل . وهذا ما يتناساه منظمو المهرجانات الصبيانية عندما يجلبون من أعماق الأرياف آلاف الناس لتصفق لنجوم الوصاية والإقصاء ولا أدري كم من مرة خامرت هؤلاء فكرة أن من بين القطيع أناسا تفوق ذكاء وقدرات الأعيان الذين جلبوا للهتاف بحياتهم , لكن من طبيعة النظام الوصائي الاقصائي أن يفرض هذا الاحتمال المخيف , وإلا لما كان هناك موجب أصلا للوصاية على هذه الجماهير "القاصرة التي لا تعرف مصلحتها "

كل الطاقات الخلاقة في الإنسان مشلولة إذن , لكن هذه الطاقات عميقة متجذرة تجذر الغرائز الأولى ,وبالتالي فإنه يمكن قمعها ووضع الغطاء فوقها , لكنه غطاء يراد به التغطية على فوهة بركان تزمجر العواصف داخله

2- أن التسلط حالة مرضية لا فيزيولوجية للسلطة خاصة في المجتمعات المعاصرة . فالتسلط في الواقع ليس إلا الشكل البدائي للسلطة , ومن الممكن أنه كان الحالة الفيزيولوجية الطبيعية بالنسبة للمجتمعات البدائية أو الزراعية المتخلفة , حيث يمكن اختصار الإنسان صاحب الدماغ القادر على التفكير والمشاركة والتقييم إلى قوة عضلية مجردة , لكن هذا الاختصار أصبح اليوم مستحيلا بل وخطيرا أيضا , فالمؤسسات أكانت اقتصادية , أم اجتماعية , أم سياسية , هي اليوم تشكيلات بالغة التعقيد يتطلب تسييرها الكثير والكثير من المادة الخام الرئيسية لهذه الحضارة : المعلومات ,كما يتطلب توجيهها نحو الأهداف المرسومة لها التقييم الدائم الذي يمكن من تصحيح الأخطاء و تفادي الضياع في الإنفاق المسدودة , و التنفيذ نفسه عملية بالغة التعقيد نظرا لتشعب العمليات و امتدادها و ترتيباتها و تشابكها الخ... معنى هذا إن تسيير المؤسسات المعاصرة لا يكون إلا باستغلال هذه الطاقات الموجودة داخل كل إنسان , و أن تجاوزها و تطويقها بالإرادة الفردية التي تخطئ و لا من يصحح, و تتيه في الأنفاق و لا من يجسر على تقويم الاعوجاج , و التي لا تطمح لتحقيق أهداف المؤسسة بقدر ما تطمح إلى بقائها و صية على المؤسسة , يؤدي إلى كارثتين : إهدار الكرامة و إهدار الطاقات و حتى تعي بعمق الكارثتين أنظر حولك في أي مؤسسة أنت واحد من " رعاياها " الجامعة , المصنع , الإدارة , الحزب إلخ ... و سترى عمق الاحباط المتمكن من الناس لأنهم بلا رأي , إلى حق المشاركة , بلا قدرة على التقييم , بلا كرامة , وأنظر إلى ما ينجر عن هذا من سوء تصرف و قلة إنتاج و رداءة إنتاجية , و الآن

تصور الطاقات الهائلة المكبوتة (آلتي تستغل استغلالا هائلا في بلد كاليابان) لو كان لكل الأدمغة الموجودة في هذه التشكيلات شرعية المشاركة في تسيير الدواليب و شرعية الابتكار و الإنجاز وقدرة التخلص من المنصبين العاجزين , و فضح عجزهم و سرقاتهم واستغلالهم لمناصبهم .

و الآن كيف يواجه المجتمع برمته نظام الوصاية و الإقصاء ؟ بإستراتيجيات مختلفة , حسب القطاع الاجتماعي ضحية التسلط و حسب حدة الوصاية و الاقصاء المسلطين عليه . ويمكن وصف ثلاث استراتجيات رئيسية :

التمرد :تتخذ القطاعات الأكثر تعرضا للإقصاء و خاصة الإقصاء الاقتصادي و الأكثر تعرضا للوصاية السياسية , هذا الطريق عندما تجد نفسها أمام أبواب مسدودة طال طرقها , وأصبح من الواضح أنها لا تنفتح إلا عنوة . و قد كان هذا الحل هو الذي اعتمدته جماهير البطالين و الفقراء و المحرومين في جانفي الأول و الثاني و الثالث , و الموضوع بالنسبة لي ليس هل سيكون لنا جانفي رابع و ربما أخير إذ لم تتغير ظروف و أساليب الوصاية و الإقصاء بصفة جذرية , وإنما متى و هل سيؤدي التمرد إذ ترقى فأصبح ثورة إلى نظام وصائي إقصائي آخر أعنف مما نعرف ؟ فيحق فينا قول المثل " جاء يربح صاده بو ربيح " لأن الداء مرة أخرى في هيكلية النظام هذه ذاتها أيا كانت البضاعة الإيديولوجية و أيا كان الأشخاص .

الاستقالة الجماعية

هذه الظاهرة واضحة حتى للأعين التى غشاها الرمد , فهي السر المكنون لحياتنا الاجتماعية : القذارة في الشارع , و التسيب في العمل , التواكل و المحسوبية في الإدارة , التحايل الدائم على القانون , و التنطع لكل سلطة و محاولة تطويقها بشتى الأساليب الملتوية , و يأتي رجل السياسة أو رجل الوعظ و الإرشاد لشجب هذا " الانحراف " و الحال انه ردة فعل طبيعية و افرازة حتمية إجبارية لكل تسلط و لكل نظام وصائي إقصائي . فالمواطن محروم من حق التفكير و حق المشاركة في تقييم القرار , مطالب بالتعامل مع بلدية منصبة و بزيادة إنتاج , صناعة تدر زبدتها على الأجنبي و على المستكرشين و بدفع ضرائب يعلم أن الأغبياء وحدهم هم الذين يدفعونها بجهد و بالتفاني في عمل يعلم أنه ليس سر نجاح الناجحين الخ ..

و من ثمة مواقفه الهدامة التخريبية الواعية أو اللاشعورية . فهو أصلا غير معني , بأهداف و أساليب نظام الوصاية و الإقصاء لأنه يدرك أنه مجرد آلة بالنسبة لهذا النظام , أو بيدق شطرنج يحركه لاعبون مهرة , فتأتي بالبداهة الاستقالة من لعبة اجتماعية مغشوشة و عن هذه الاستقالة تتولد كل هذه المظاهر التي ينضح بها كل مجتمع تسلطي لكن بدون سلطة .

و من حسن الحظ أن ظواهر التفكير و المشاركة و التقييم لا تختفي , وإنما تنحصر و تنسحب من القلاع الفارغة التي شيدها نظام الوصاية و الإقصاء لكي تأتي أكلها في الميدان الذي يقرر الإنسان المقهور الاحتماء به : المصلحة الشخصية , فلولا استثمار الإنسان لمواهبه في هذا الميدان لانهارت الحياة الاجتماعية بأسرها . لكنه حسن حظ نسبي بل مؤسف للغاية , لأن نظام الوصاية و الإقصاء بتجميده قدرات التفكير و المشاركة و التقييم في الميادين الجماعية , يشل كل القطاع العام الاقتصادي منه و الاجتماعي و السياسي أي كل ما له علاقة بالحياة الجماعية . و بما أن التطور الاجتماعي لا يكون بتطور المصالح الشخصية المتناقضة و المتضاربة فقط فإننا سنشهد نمو هذا المجتمع الأعرج الذي تحركه المصلحة الشخصية و يجهض فيه نظام لافعّال كل طموح جماعي

التأطير الذاتي.

هو الطريق الذي ينتهجه أكثر القطاعات وعيا داخل المجتمع , بمعزل عن النظام الوصائي الاقصائي و ضده بطبيعة الحال , فالنظام قادر على الإقصاء لكنه عاجز على الإخصاء , لأن إرادة المشاركة المقموعة , لا تختفي و لا تموت وإنما تنسحب من اليدان التي استحوذ عليها النظام لتنمو في ميادين موازية .

مثلا يفرض النظام قلعة فارغة كاتحاد النساء فإذا ببعض النسوة يؤسسن ناد أو مجلة تشكل نواة الحركة النسائية الحقيقية . أو يفرض النظام هذه اللغة الضحلة للإعلام المتخلف , فتبرز عاجلا أو آجلا جرائد كالرأي أو يجاهد لفرض الحزب الواحد فإذا بأحزاب و حزبيات تنمو كردة فعل إجبارية يحاول تطويقها , إلى أن يفهم أن العملية مستحيلة الخ ..

و الخاصية الأولى لهذه التشكيلات أنها ليست ردة فعل ضد نظام الوصاية و الإقصاء فحسب و إنما التعبير الصادق و العميق عن القوى الاجتماعية الفعالة بتعددها و تضاربها الإيديولوجي و تناقض مصالحها بينها و بين النظام .

و يبقى الهدف لسنين طويلة فرض استقلالها , و هو ما تنجح فيه دوما كما يظهر ذلك التاريخ لأن الجزء لا يحكم الكل إلا بصفة مؤقتة طال الزمان أو قصر .

و من ثمة نفهم عمق و تأصل ديناميكية ظاهرة الاستقلالية التي يعايشها اليوم على المستوى السياسي و خاصة الاجتماعي أي نضال الصحافة والقضاء و النقابات كمؤسسات اجتماعية (تتصارع داخلها مختلف التيارات السياسية) للفرز بحق تقرير المصير . وبما أن الدولة الوصائية الاقصائية عاجزة عن مسايرة الحركة و عن التعرض لها إلا بالقمع فإننا سنرى الاستقلالية الجماعية تفرغانها يوميا بعد يوم من المصادقة و القوة و الوهيبة .

و تلك هي المفارقة العجيبة للتسلط إذ يؤدي تدريجيا إلى وهن السلطة و نفاذ زادها , وهو الذي اعتقد و يعتقد دوما أنه أصفى وجوهها و أحسن ممثل لها .

البديل الضروري :

من ملامحه السياسية الرئيسية للعشرية المقبلة :

فصل الدولة عن أي حزب وصائي إقصائي أيا كان لونه و خطابه , لأن الحزب لا يعبر إلا عن مصالح فئة / جهة/ طبقة/ إيديولوجيا / أشخاص / جيل و الدولة هي ر أسمال الجميع .

وضع الممتلكات الجماعية كالعدالة و الإعلام (بالتلفزة و الاذاعة) و سائر المؤسسات الاقتصادية تحت سيطرة القانون لا تحت هوى الإرادة الشخصية , وذلك بالاعتراف باستقلاليتها و تنظيمها لتكون في خدمة الصالح العام لا في خدمة الصالح الخاص .

تجنيد الأدمغة و الطاقات التي شلها و أقصاها نظام الوصاية و الإقصاء , بتشجيعها على التأطير الذاتي , و يكون هذا برفع كل القيود عن حق التجمع داخل الأطر القانونية الممكنة (الأحزاب – الجمعيات –التعاونيات الخ...), فيكون الإعلام بتكوين الإطار لممارسة النشاط كاف

تشجيع المشاركة الجماعية في كل المستويات حتى لا تصبح المؤسسات المستقلة قلاع و صايا و إقصاء بتنظيم هرمي خفي . و هذا يعني أن يكون التداول و التقييم و التسيير الديمقراطي قاعدة القواعد التي تبنى عليها المؤسسات .

حتى تتسنى هذه المشاركة الجماعية في التفكير و القرار و التقييم معطية لتونس قدرة هائلة على التطور , فلا بد من تنظيمها أفقيا كما أوردت , أي داخل المؤسسات الاجتماعية و المهنية , و عموديا أي داخل المؤسسات السياسية . فيكون للمواطن حق

التقييم لعمل رئيس الدولة الدولة و الحكومة و الوزراء بالانتخابات الدورية , و حق المشاركة و التقييم بنفس الانتخابات النزيهة للعمل البلدي . و لا بد من إحداث تشكيلات وسط بين البلدية و الدولة أي المجالس الجهوية المتمتعة بكثير من الصلاحيات الاجتماعية و الاقتصادية على صعيد الجهة , و يبقى اللامركزية الإدارية شرطا من شروط ديمقراطية الحياة المدنية .

المحرك الخفي لكل و صاية و إقصاء الإيمان الأعمى بأن الجزء يمكن أن يحتوي الكل , و من تقنيات هذا الغير الاحتماء برايات التمويه و جعلها مصطلحات إرهابية فكممن شعب قهر باسم على الذات و على تحرير الشعب و كم من بيروقراطية استبدادية عاشت فسادا باسم الاشتراكية , و كم من أمير مؤمنين مارس أبشع أنواع الظلم باسم الإسلام , لذلك يكون الاحتراز كل الاحتراز من بائعي بضائع الأيديولوجيا واجبا فكريا و سياسيا , لأن من يجهل التاريخ مجبر على تكراره كما يقول المثل , و حتى لا نكرر التاريخ و التجارب الفاشلة , يجب على المجتمع المدني أن لا يقبل بأي صورة من الصور بسيطرة أي حزب سياسي عقائدي و إنما أن ينظم بين ثلاثة أو أربعة أحزاب التعايش و التنافس السلمي , و أن يكون تقييمه للبضاعة الأيديولوجية المعروضة لشفائه من كل الأمراض مبنيا على شعار " أحكم على ما أرى لا على ما أسمع " , و لا بد للاضطلاع بهذا الدور من المؤسسات ثلاث تلعب (بجانب التقييم الدوري بالانتخابات الذي يمارسه الشعب ككل) دورا رئيسيا في حماية المجتمع المدني من الشاحطات و الانزلاق الاستبدادي , وهي العدالة المستقلة .

يكون محور التقييم مستقبلا لعمل الأحزاب و الأشخاص مدى احترام ميثاق حقوق الإنسان الذي يجب أن يكون الدستور الأخلاقي للمجتمع المدني فأي اشتراكية , أو عدالة أو ديمقراطية , تدعي تحقيق أهدافها بالظلم و التعذيب و أنهاك كرامة الإنسان , أيا كان تحكم على نفسها بنفسها بأنها باطلة , كاذبة , مزورة .

ومن الضروري تجنيد التعليم و الإعلام و المفكرين , لإشاعة هذا الدستور الثاني و التعريف به . و لا شك أن أي مجتمع ينجح في اعتماد ميثاق حقوق الإنسان جزء لا يتجزأ من ثقافته , وفي تنظيم التفكير و المشاركة و التقييم الدائم داخل المؤسسات اجتماعية و سياسية ديموقراطية لقادر على الخروج من التخلف , و الشعار الآخر للمستقبل يجب أن يكون: لا وصاية .. لا إقصاء بعد اليوم .

كـــل السلـــطـــة للمؤسسات

تعيش الأغلبية الساحقة للشعوب في حالة نزاع مع أنظمتها السياسية : انقلابات و ثورات و مظاهرات في البلدان المتقدمة جدا و الديمقراطية , منها على الخصوص و يعبر التداول على المسؤوليات داخلها على التململ الدائم و الضيق الدوري للمجتمع بهذا الحزب أو ذاك . و توجد في الغرب حاليا كثيرا من الدراسات التي تثبت رداءة الصورة التي يحملها الناس عن الهيئة السياسية و عن السياسة نفسها باعتبارها لعبة لها أصولها (المكيافيلية) التي ترضي قلما القلب و الضمير .

لماذا التمرد هنا , و التداول هناك ؟ هل هذا النزاع القائم بين المجتمع و المؤسسة السياسية عرض طارئ أم علاقة دائمة , وأقول علاقة دائمة لأسباب معقدة يمكن ربط البعض منها بطبيعة المجتمع و البعض الآخر بطبيعة المؤسسات السياسية بالتناقض الجدلي بين الطبيعتين .

غدا سنحلق بالمجان

لا جدال أن هذا الشعار الفرنسي **demain on rasera gratis** يترجم بدقة لأمل و خيبته الذي ما انفك المجتمع يعرفه في تعامله الدائم مع المؤسسة السياسية, فبروز هذه الأخيرة بهذا الشكل أو ذاك كان و لا يزال مرتبطا بوعد تحقيق العدالة , الحرية , و الغد الأفضل , و الرخاء الخ... الخ.... و لا تضاهي أزلية هذه الظاهرة إ لا أزلية الفشل النسبي أو الكلي للمشروع التحرري الذي و لدته المؤسسة السياسية حيث نعرف أن الجبل كثيرا ما تمخض فولد خازوقا (البيروقراطية – الاستبداد – التحجر –الوقاحة – إعادة هيكلة المجتمع بسرعة إلى مستعبدين الخ...) و قلما نريد أو نحاول فهم السباب العميقة لهذا الفشل الذريع , إذ نبقى نجري و راء نفس السراب : الأيديولوجيا الحقة و التنظيم المثالي الذي سنجده عند زيد بعد أن أضعناه عند عمر , لكن ماذا لو قلنا أن فشل المؤسسة السياسي النسبي أو الكلي هو نتيجة حتمية لانعدام الأيديولوجيا الحقة , أو أنه لا و جود لتنظيم مثالي , لأن من الطبيعة التنظيم أن يكون لا مثاليا .

لنبرهن , و لنتتبع بعض الترتيبات لهذه الأفكار "الهدامة " و هي كذلك لأنه لا بد من الهدام لكي نبني فوق الانقاض.

الايديولوجيا المنقذة من الضلال

هي بالنسبة لمروجيها صالحة في كل زمان و مكان , و لكن المقولة أيديولوجية أي هي دليل على كل شيء , لكن لا شيء دليل عليها , و السوق العقائدية تزخر في عصرنا هذا بهذه البضائع , المراهم السحرية , التي ستمكن من حل كل المشاكل. إلا أن الواقع و التجربة يثبتان دوما فشل العقيدة في التغيير و قصورها عن التفسير , لماذا ؟

لأن التصور دائما نسبي تاريخي مرتبط بظروف موضوعية , إن تغيرت الظروف لا بد من تغيير طرق التعامل , و هو ما تعجز عنه , لأن سر قوتها و ضعفها في ادعائها الكامل و الأزلية .

لأن الأيديولوجيا هي دائما تنظير لانتصار : انتصار تصور على آخر , انتصار طبقة على أخرى , انتصار حزب على آخر . و الانتصار لا يعني و جود الآخر و إنما يجمد عملية الصراع إلى حد ما بانتظار تجدده.

الآخر جزء مكون من اللعبة لا طرفا قابلا للانقراض .

لأن الواقع أعقد بكثير مما تتهم الأيديولوجيا.

لأن لكل الاختبارات سلبياتها و إيجابياتها و لأن من طبيعة الواقع المعقد أن يقاوم التبسيط (البساطة) الأيديولوجية , معنى هذا أن تطبيقا لإيديولوجيا سيفرز حتما و بصفة أوتوماتيكية سلبيات لا مناص منها .

الحـــزب الواحـــد

هو القوة الضاربة التي يوجهها الدماغ الإيديولوجي و وهو التجسيم للمنطق الوصائي

–الاقصائي للعقيدة : وصائي لأنه يرفض آ خرية الآخر , أكان رأيا أو موقفا أو توجها الخ...

لكن ضعف الحزب لا يكمن في هذا فحسب و إنما في كونه صيرورة تاريخية , فهو كائن حي يمر بالمراحل الخلدو نية الثلاث :

النشوء والارتقاء : وبما أن المرحلة الأولى هي مخاض عسير لا يقدر عليه إلا الأشداء , فمن الطبيعي أن يسود الأبطال في هذه المرحلة أي حملة الحلم العقائدي (حتى و لو انقلب هذا الحلم يوما كابوسا).

الاستقرار و السلطة وهي مرحلة مواجهة تعقيد الوقائع (و استحالة حشر اللامحدود في المحدود و النضال , لفرض أولوية الجزء على الكل . و بما أن هذا النضال لا مناص منه , فإن من الطبيعة هذه الفترة أن تفرز السياسوي و البيروقراطي و الماسك بالهراوة

التحجر والاندثار : يقع في هذه الفترة انجراف حتمي في حياة الحزب, إذ يظهر استعصاء الحلم الوصائي الاقصائي على التحقيق و مقاومة الواقع (أي رأي) , فتتغير الأهداف , فبعد أن كان المشروع هو التحرر و لو على حساب هذا أو ذاك , يصبح الدوام والبقاء لأن الحزب كائن حي لا يؤود و لا ينتحر . والسلطة من قديم الزمان مخدر خطير , لا يقاوم إغراءه من الداخل, و إنما يضع المجتمع لآثامه حدودا بالتداول السلمي أو بالثورة ما الذي يحدث في غياب العامل الصحي أي التداول ؟ تكلس الحزب و تحجره و ظهور و تزايد ظاهرة الانفصام فيه, ففي الوقت الذي يدعي فيه الشباب الأزلي تراه يزداد هرما يوما بعد يوم .

مجمل القول إن من طبيعة الحزب أن يمارس إيديولوجيا اقصائية وصائية على المجتمع , و أن يصبح مرتع الوصولية و الانتهازية عند وصوله إلى سدة الحكم و أن يتحجر بفعل مقاومة المجتمع و انعدام عوامل التصحيح الفيزيولوجية , لذلك فمصيره الدخول معه في نزاع ينتهي دائما بزواله . فالأحزاب تحيا إذن بالمعارضة (فترة النشوء) و التداول في النظم الديمقراطية , و تموت بصلابة الواقع وعجزها عن التجدد , إذ هي تقع تحت طائلة القول المأثور " من شب على شيء , شاب عليه , و من شاب على شيء مات عليه ".

المجتمع المعقد

لننظر الآن إلى بعض خاصيات المجتمع المعاصر و سنكشف مدى صعوبة تطابق المنطق الايديولوجي الحزبي معها . أول ظاهرة نشده لها هي التعقيد و التمايز المتصاعدين للمجتمع المعاصر , فما يسمى بالمجموعة الوطنية هي خليط من رجال / نساء / طبقات /أجيال / جهات / تنظيمات مهنية / أحزاب معترف بها و غير معترف / عقائد محلية / مستوردة / أفراد .

كل هذه القطاعات في تلاحق / تلاقي / تنافر / صراع / تكامل/ توازن دائم– نأخذ مثلا مشكلة الهوية – نجد في المجتمع توجها إسلاميا / غربيا/ ماركسيا / عروبيا / تونسيا / جهويا / قبليا/ غير مهتم البتة .

عندما يواجه العقائدي بهذا التعقيد الهائل , فإنه تلقائيا بفعل فكره الوصائي الاقصائي يحاول إنكار سائر التوجهات الأخرى بانتظار محاولة محوها بالقمع , لكن العملية فاشلة لأن التمايز و التباين خاصية مكونة من خاصيات المجتمع بل قل هي أهم خصائصه المستقبلية , فكل التوجهات لها دعاتها و منذروها و جنودها , و لماذا ؟ لأنها ليست و ليدة الصدفة أو الخطأ و إنما هي نتيجة تراكمات موضوعية تاريخية اجتماعية اقتصادية . أليس من العبث أن نحاول استئصال جذور الإسلام في بلد له 14 قرنا من الإسلام ؟ لكن أليس من العبث أيضا أن نتصور أن التصنيع , التعليم و الاستعمار المباشر و الثقافي و التجاور مع الأمم الغربية يمكن أن يكون عرضا زائلا لا يغير بصفة جذرية بيئة المجتمع مؤديا إلى إعادة ترتيبه ؟ إن الحل الوحيد للتخلص من الإسلام هو الغاء الذاكرة و الحل الوحيد للتخلص من مظهري المعاصرة الماركسية و الليبرالية الغربية , و هو إلغاء التجربة وهذا محال كذلك هل يمكن للعروبيين أن ينكروا وجود الظروف الموضوعية للمقولة الاسلامية أو الماركسية ؟ و هل يمكن للماركسيين و الإسلاميين أن ينكروا عمق التجذر التونسي في مفهوم العروبة و الصبغة الثورية التحررية لحلم الوحدة العربية ؟ من

طبيعة التراكمات إذن أن تفرز إيديولوجيات , و من طبيعة المجتمع أن يقبل بها ككل و إلا وجب عليه أن يقطع أوصاله و أن ينهش لحمه بأسنانه . و هذا ما يرفضه تلقائيا و من ثمة تنافر أهدافه مع أهداف المؤسسة السياسية الوصائية – الاقصائية ثاني ظاهرة هامة للمجتمع المعاصر , وهي نتاج للأولى اتجاهه نحو ... الاستقلالية . أليس من الغريب أن لا تثير فينا كلمات الاشتراكية والوحدة و العدالة و الديموقراطية ذلك الحماس الفياض الذي كن يعترينا في الستينات , وأن تصبح الشعارات التي تتجمع حولها القوى الحية في البلاد هي استقلال النقابات , استقلال الصحافة , استقلال القضاء , استقلال الجامعة , و ظهور حركات سياسية رايتها .... الاستقلالية .

و للظاهرة تفسير بديهي في المجتمعات الزراعية المتخلفة أو الصناعية البدائية و يستطيع الحاكم بأمر الله أن يتصرف في شؤون رعية تنتشر فيها الأمية و تنهش فيها الأمراض , بدون حسيب أو قريب أو في إطار مجموعة ضيقة مغلقة , و هو يستطيع ذلك لأن دواليب المجتمع بسيطة للغاية , و لأن و سائل الإنتاج لا تحتاج إلا للقوة العاملة بالساعد و للقوة التي توجه هذه القوة , لكن المجتمع المعاصر و المستقبلي جد مختلف, فهو متزايد التعقيد , دواليبه عديدة و مرتبطة ببعضها البعض , و تسييره عملية جماعية أو لا تكون , ناهيك عن ارتفاع الوعي و التعليم , و عن ارتفاع عدد المطالبين بحقهم في القرار أكان بلديا أو جهويا أو سياسيا . معنى هذا أن من طبيعة المجتمع المعاصر أن يكون تعدديا , أن تمتص فيه الدواليب و القوى الفاعلة صلاحيات الدولة الاستبدادية القديمة , وأن الصراع بين الدولة و المجتمع المدني حتمية التكنولوجيا للمجتمع المدني , وأن مسألة تحصل هذا الأخير على الاستقلال الذاتي و المؤسسات المهنية أي حصولها على صلاحيات متزايدة أمر حتمي , فتصبح الدولة مؤسسة لها أهميتها , و لكنها مؤسسة لا علاقة لها بالبعبع الاستبدادي الذي عرفناه و يحلم البعض بإعادته عبر هذا الغطاء العقائدي أو ذاك.

الاستقلالية –السياسية

إن كان هذا هو التحليل النظري الذي ترتكز عليه ظاهرة لاستقلالية السياسية , فما هي أهم المواقف التي يمكن توضيحها الآن و التي يمكن أن تشكل القاسم المشترك بين المنتمي إلى هذا التيار ؟ هنا تسقط مقولة التنظيم الحربي للعمل السياسي , لان المستقبل خلافا لما يتصوره البعض , مندمج على الأقل في حزبين الأكبر الذي يزخر بالمستقلين أي الناس الطيبين الذين يحاولون في المصنع أو المكتب و الجامعة و النقابة فرض حق المواطن و حق المؤسسة أي حق الجماعة في الرأي و القرار بـ : المؤسسة نفسها التي يمارس داخلها كل عمل اجتماعي – سياسي الصبغة , أكانت هذه الصبغة واضحة (الصحافة) أو مبهمة (منظمة حقوق الإنسان) .

إيديولوجيا:

يفهم المستقل ظاهرة التراكم و التمايز , و يقبل بها كخاصية ملازمة للمجتمع و بالتالي لا يرى حرجا في التعامل مع كل الأطراف الفكرية السياسية , لأن إنكار الموجود يلغي الموجود و الحكم عليه معياريا لا يغير من و جوده شيئا. فالمستقل نظرا لطبيعة تفكيره غير متعصب ديموقراطي و متسامح بالفكر و الغريزة .

سياسيا:

قبول المستقل لحرية الرأي و المعتقد و الانتماء لا يعني أنه محايد طوباوي . فهو يطمح لاقامة مجتمع ديموقراطي متسامح تتمتع فيه المؤسسات الاجتماعية بالاستقلالية (التي تعني الفعالية في المجتمع المتزايد التعقيد كما رددت ذلك مرارا). و بالتالي فهو ضد الحزب الوصائي الاقصائي أكان في الحكم أو في المعارضة , و هو ضد الاستبداد بالرأي و القرار, و هو ضد حرمان الناس من حق القرار و المشاركة, و من حقوقهم الاقتصادية الأولى ,كالمشاركة في الاقتسام العادل لخيرات الوطن .

كيف يمكن ترجمة هذا الموقف علميا في إطار التناحر العنيف على السلطة التي يعرفها المجتمع ؟ يكون الرد في قسمين و على مستويين :

1 – الهدف الرئيسي للمستقل ليس الوصول إلى السلطة لممارسة سياسة اقصائية و صائية , و إنما تقوية المؤسسات الاجتماعية من الداخل , لأن السلطة الحقيقية في المجتمعات المستقبلية , هي سلطة المؤسسات الاقتصادية الثقافية– النقابية الخ... الخ... و بالتالي فإن العمل داخل المؤسسات ليصلب عودها عمل سياسي عميق الجذور بعيد المدى غزير العطاء . لأن الاستبداد لا يتهشم إلا على مثل هذه الصلابة , و لأن التخلف لا ينحسر إلا يوم تكون لأكبر عدد من الأدمغة في أكبر عدد من المؤسسات قدرة الخلق و المشاركة و التقييم .

لا جدال أن هناك قرارات سياسية بالمعنى التقليدي للمصطلح و أن هذه القرارات يمكن أن تجمد (إلى مدى) حركية المجتمع أو أن تعجل بها , لذلك يجب على المستقل (دون أن يدخل في اللعبة الوصائية الاقصائية) أن يدعم من جهة تعدد الأحزاب كشرط ضروري لشل الاستبداد و تشجيع بل النضال داخل الأحزاب السياسية التي تقبل رغم وجودها في إطار إيديولوجي معين تدعيم استقلالية المؤسسات الاجتماعية , وهي عادة كل الأحزاب الديموقراطية , وأن يقف كشخص أو كجزء من المؤسسة ضد الأحزاب الاقصائية الوصائية .

و بما أن دعم المستقلين بدون خلفيات أو آراء مسبقة , وبدون مطامع إذ هو لا يهتم بالدولة بقدر ما يهتم بالمجتمع . و بما أنه دعم آتي من الداخل هذا المجتمع وهو صدى لتمنياته و آماله , فإنه يستطيع أن يلعب في المستقبل دورا معنويا و ماديا هاما , فالمستقبل إذن هو هذا النمط الجديد من المناضل الاجتماعي , أي بالأول إنسان متسامح عضته خيبة الأمل في الأحزاب الوصائية الاقصائية بنابها المرات المتعددة , يؤمن بالعمل السياسي لكن على المستوى القاعدي داخل مؤسسات المجتمع لا داخل الأحزاب التي أظهرت أينما كان حدودها و عيوبها , قابل للتعامل مع بعضها , لكنه لا يضع ثقته إلا في المؤسسات القادرة و حدها على إدماج أكبر عدد ممكن من الطاقات , شعاره دوما لا سلطة على المجتمع . كل السلطة للمؤسسات .

مـن دروس التجـــارب

نحن لا نفهم عادة أن التجارب السياسية التي تمر بها الشعوب هي تجارب بالمعنى العلمي للكلمة , و أن علينا أن نتعظ بها. مثلا من المفروض علينا أن اعتنقنا الليبرالية أن نتساءل عن سبب فشل النظام البرلماني في مصر الذي مهد بعيوبه لبروز الناصرية . وإن كنا عسكريين أن نفسر انهيار المنظمة العسكرية في أمريكا اللاتينية , إن كنا اشتراكيين أن نفسر (لا أن نبرر) ما يجري في بولونيا, أما إذ كنا إسلاميين فلنا أيضا أن نعتبر من فشل الحلول الإسلامية في الماضي و في إيران . أما إن اعتقدنا

أن الصواب يكمن في اللائكية , فمن المفروض أن نستخرج العظة من المأزق التاريخي الذي مهد في ايران و في كل البلدان الإسلامية لظهور التيار السلفي .

معنى هذا أن علينا أن نستبدل النظرة الايديولوجية المغلقة , بتحليل علمي للتجارب الإيديولوجية و ذلك بتطبيق المنهجية التقييمية التي تحلل الإنجازات , و المفاعلات السلبية , و المقاولات التي يولدها كل اختيار علما بأن لكل اختيار بصفة أوتوماتيكية : فضائل عيوب – مقاومة – معنى أيضا أن النظام المثالي للحكم لم يخلق بعد , و أن النظام الأقل تكلفة هو للتصور و التجريب

***

إن المبادئ السياسية و الإيديولوجية التي بنيت عليها دعائم المجتمع العربي و التونسي بعد الاستقلال : دور القائد – دور الحزب – وصاية الدولة الحزبية على المؤسسات الخ ... قد تجاوزها الزمن نظرا للتغييرات الجذرية في التركيبة الديموغرافية و الاجتماعية الفكرية للمجتمع الجديد

***

لقد مكنت هذه المبادئ و الاختيارات كالعادة من تحقيق العديد من المنجزات (بناء الدولة – تعصير المجتمع – تعميم التعليم – مجلة الأحوال الشخصية) , وكالعادة أبرزت سلبياتها : الاستقالة الجماعية أمام الاستفراد بالرأي و الفرار , إفراغ المؤسسات من محتواها تزايد الهوة الطبقية و الجهوية , وقد ولدت كالعادة السلبيات شتى أصناف المقاومة كالانتفاضات الدورية , وهيكلة القوى الحية خارج بل ضد إطار الدولة الحزبية

***

تتولد السلبيات فالمقاومة عن الاستبداد و الاستبداد له وجهان الوصاية و الإقصاء , أما الوصاية فتفترض في رجل أو حزب قدرة وشرعية قيادة المجموعة بدون تقييم و لاحساب , أما الإقصاء فهو نتيجة الوصاية لأن من طبيعة الجماعات البشرية ذات المصالح المتضاربة أن ترفض الوصاية , فتقمع بالإقصاء وقد أدت سياسة الإقصاء ببلدنا إلى قطيعة متفاوتة الخطورة مع قطاعات متزايدة من الشعب كالطبقة الشغيلة و الشباب و المثقفين

***

يلعب عاملا الوصاية و الإقصاء دورا هداما لا في علاقة الدولة الحزبية مع المجتمع فحسب , وإنما في داخل الدولة الحزبية نفسها حيث تتابعت أزمات التصفية السياسية و وقد أد دوما هذان العملان على المستويين إلى أضعاف الدولة الحزبية .

***

لا مراء أن الدولة الحزبية نظرا لتزوير الانتخابات التشريعية و البلدية , فاقدة لكل شرعية و تظافر انعدام الشرعية مع الوهن الذي يعتريها من جراء الوصاية و الإقصاء الداخلي والخارجي , يعني الضعف الكبير و الضعف الكبير خطرا على الدولة الحزبية والمجتمع إذ تكون آنذاك سياسة التصلب والهروب إلى الأمام ناهيك عن أطماع الأجانب فينا وتزايد نفوذهم , وكلها أمور تثبت التجربة في العالم , دورها الفتاك بالمجتمعات .

***

ردة فعل المجتمع تجاه الدولة الحزبية غير مرتبطة أساسا بالاختيارات وأغلبها صالحة نظريا , إنما مرتبطة بأسلوب الدولة الحزبية في التعامل مع الناس حيث تدعي أنها تعبر وتدافع عن مصالح الكل , والحال أن هذا مستحيل بالضرورة .

***

الخاصية الأولى للمجتمعات المعاصرة التمايز والتعقيد المتصاعد و التعددية وذلك نتيجة عامل التراكم العمودي أو التاريخي (تركم شريحة معاصرة – شريحة قديمة – شريحة بين بين) وعامل التمايز الأفقي : الأجيال – الجنسان – الطبقات – الجهات الخ ... وقد أصبح من المستحيل على أي حزب أن يحوي مثل هذه الشرائح في آن واحد , وأن يدافع عن مصالحها المتضاربة في نفس الوقت , ومن ثمة فالوحدة الوطنية لا تكون بالإلغاء السحري للتناقضات أو بمحاولة فرض وصاية لشريحة ما مقنعة باسم مفهوم ضبابي كالصالح العام وإنما باعتبار هذا التراكم و التمايز وبتنظيم الحوار والتعايش بين مختلف أعضاء المجتمع المدني .

لا يوجد حاليا أدنى بديل مقنع للدولة الحزبية – حقا هناك أحزاب و حزبيات و وللبعض منها برامج براقة إلا أن كل هذه الأحزاب مهيكلة على مبدأ الوصاية والإقصاء ونحن نعلم أن مكمن الداء في هذين الاختيارين لا في تفاصيل برامج متقاربة ومتشابهة إلى حد بعيد .

****

رغم الاختلافات الظاهرية فإنه يمكن القول أن الأحزاب المتطرفة التي تمارس إرادة الوصاية و الإقصاء , لا تختلف جوهريا في شيء و إنما هي في الواقع و جهي نفس قطعة النقد و من ثمة فإن الخط الفاصل الحقيقي في دنيا السياسة يجب أن يجمعها و يمر بينها و بين كل الأطراف السياسية الديمقراطية أي القابلة لتجاوز كل مظاهر الوصاية و الإقصاء .

****

إن أكثر السيناريوهات احتمالا في المستقبل القريب هو وقوع تونس أو أي بلد عربي آخر تحت سيطرة نظام وصائي – اقصائي جديد , لكن هذا ليس حتميا فلنا القدرة للتأثير على مجرى الأحداث إن اتضحت المخاطر و توحدت الجهود.

لا يكون البديل الحقيقي باستبدال نظام وصائي اقصائي بنظام مخالف ظاهريا و تشبيهه هيكليا , وإنما بحذف الهيكلة الوصائية الاقصائية نفسها .

هذا يعني بروز نظام سياسي يعترف بالتراكم و التمايز و من ثمة بتواجد التنظيمات التي تترجم له, و يعتبر أن التعايش مفروض بموضوعية و شرعية الاختلافات الاجتماعية و يبعث عقدا اجتماعيا و سياسيا قوامه الوفاق أي صيغة تضمن لكل عائلة سياسية تحقيق جزء من مطامحها المشروعة علما بأن تحقيق كل برنامجها يؤدي أوتوماتيكيا إلى الداخل في صراع مع المتطلبات المشروعة للعائلات الأخرى .

****

توجد حاليا في تونس كنتيجة حتمية لتراكم و تباين العوامل الحضارية التاريخية و الاجتماعية و الاقتصادية أربع عائلات سياسية , الليبرالية , الاشتراكية , و القومية , و الإسلامية . في إطار السيناريو الوصائي الاقصائي تحاول كل عائلة فرض برنامجها دون

الانتهاء إلى اختيار كما أسلفنا انجازات و سلبيات و مقاومة , متغاضية عن سلبياتها مضخمة إنجازاتها و سلبيات المشاريع الأخرى , لذلك نراها تدخل في نزاع مع العائلات الأخرى ينتهي بحالة من الفوضى قد تتبعها في ظروف مختلفة تتابع كل عائلة على رأس الدولة مع تكرار نفس السيناريو مما يؤدي بالمجتمع إلى مآزق و مهالك نرى بعض النماذج منها هنا و هناك عبر كل التجارب المميتة في أقطار وطننا العربي و في شتى أرجاء العالم المتخلف .

****

حتى نفي تونس من شر هذه المزالق و المهالك يجب أن نغتنم الوقت الباقي لنا , لوضع الأسس الفكرية و الأيديولوجية ثم السياسية لنظام بديل لا وصائي و لا إقصائي و إنما مبني على وفاق قوامه البديل المشترك و يمر إن لم يكن باتفاق الأطراف السياسية و هو الأمر المستحيل , فعل الأقل بتفاهم و تحالف القوى الفاعلة على مشروع سياسي واحد .

****

هذا ممكن لأننا إذا حاولنا (وهو أصعب الأمور) تجاوز الزعامات الشخصية و الحزبية فإننا نجد أن هناك قدرا كبيرا من الإجماع بين مختلف العرب مثلا حول ثلاث مشاكل يواجهها المجتمع : مسألة المؤسسات , مسألة النمو , مسألة الهوية .

****

يوجد إجماع كبير في خصوص المؤسسات حول ضرورة إرساء النظام الجمهوري على دعامتي سلطة القانون و سلطة المؤسسات الحية , و حتى لا تكون من جديد هذه المؤسسات قلاعا فارغة فإنه يجب فصل الدولة عن أي حزب , و إقرار استقلاليتها ,كذلك أصبح من البديهي أن على رئيس الجمهورية مهما كان الحزب الذي يعززه أن يكون رئيسا للشيوعيين و الإسلاميين و الدستوريين الخ... لا غريما لثلاث عائلات و قائدا مظفرا لعائلة واحدة , لكن فصل الدولة عن الحزب و استقلالية كل المؤسسات و خاصة البرلمان و البلديات , لا معنى له إن لم تكن قاعدة القواعد التقييم , عبر انتخابات لا يمكن أن يضمنها إلا قضاء مهاب و مستقل وكذلك صحافة حرة ومسؤولة لا يسلط عليها قانون جائر كالقانون الحالي .

من الخطأ أن نعتقد في عصر التكنولوجيا الحديثة أننا متخلفون لنقص في المواد الأولية , والحال أن المادة الأولى في هذا العصر هي المادة الرمادية للدماغ المفكر , ومن ثمة فإننا سنبقى متخلفين طالما أهدرنا هذه الطاقة التي لا تنضب ف**50 %** من أطفالنا أي من أدمغتنا يرمى بهم في الشوارع بعد الابتدائي ولا يصل البكالوريا إلا **1%** من الأدمغة , لكن التبذير المجموع لطاقتنا الدماغية لا يشمل كل هذه فحسب وإنما عدد الأدمغة التي عطلها الإقصاء في المصانع والجامعة الخ ....الخ. ...ومن ثمة فإن المطالبة بالإنتاج والإنتاجية في هذه الحالة كالمطالبة بالمطر حيث لا غيوم , ناهيك عن أن فساد المناخ الاجتماعي ناتج عن إستشراء المحسوبية والتفاوت الطبقي والجهوي المشين يزيد من الانهيار المعنوي والاستقلالية الجماعية التي لا يمكن أن توفر الظروف الملائمة لعملية خلق الثروة .

ومعنى هذا أن مشكل النمو ليس اقتصاديا وإنما سياسيا وإن تقدم العرب وتونس يمر بتجنيد الأدمغة , بالإكثار منها (ليكن الهدف سنة **2000** , **99%** من أطفالنا للبكالوريا) , ولمنحها كل الصلوحيات داخل المؤسسات للمشاركة الفعالة في التسيير والتقييم . لنتصور إنتاجية أي مؤسسة تنظم داخلها حلقات التفكير والتجديد وتعطيها صلاحيات لتنفيذ أحلامها ومشاريعها .

***

صبـــرا و شاتيـــــلا 1 و 2

المشهد

بيروت 82 . المدينة تحترق و المجازر الأولى جارية في المخيمين الشهيدين . عرب الصليب يذبحون عرب الهلال تحت مراقبة الصهاينة . إذاعتنا البلهاء تطالب بالانسحاب من مطار خلدة بعد أن طالبت بالانسحاب من بيروت . من جنوب لبنان و سنوات من الأراضي المحتلة من كل فلسطين ...

أنظمتنا العربية العشرون عاجزة لا عن منع الكارثة و احتلال إحدى العواصم العربية فحسب , و إنما حتى على الإجماع لتبادل الخطب التنديدية .

العلم الإسرائيلي يرفرف في سماء عاصمة العروبة سابقا. الدول العربية في تناحر لم تشهد له الساحة العربية مثيلا : الطائفية و الشعوبية و القبلية في أوج سيطرتها و جرائمها . و الأخطر من هذا كله : سلبية الشعوب و سكونها.

كل هذا بعد قرابة قرن من ولادة الفكر القومي العروبي الذي توصل في عديد من الأقطار إلى سدة الحكم . ثم كانت المجزرة الثانية صيف 85, و كان الجلادون هذه المرة عرب اقحاحا . من ثمة السؤال : هل كرست مذابح صبرا و شاتيلا بصفة نهائية فشل هذا الفكر و مشاريعه ؟ هل هي أفحم حجة يقدمها التاريخ المعاصر يصفه بها أحلام الوحدويين من كل حدب و صوب , مثبتا إننا شعوب طائفية قبلية , إقليمية متنازعة متناحرة ؟ بالطبع لا ولن تتوحد يوما . بعبارة أخرى , أعلينا أن نعرف بأنه لا وجود لأمة عربية ومن ثمة ببطلان كل فكر و كل مشروع عروبي و حدوي ؟

أوهام الخمسينيات

لنعد بالذاكرة إلى الوراء إلى الخمسينيات . السنوات المباركة سنوات الأمل و أمل التحرر , أمل الوحدة أمل العظمة و لنتوقف عند نظرية الوحدة و سيناريو تحقيقها كما كنا نتصوره آنذاك .

الفكرة الرئيسية

يقول هذا الفكر : خلافا لما كان يدعيه سعد زغلول في بداية القرن فإن حاصل

صفر + صفر + صفر ليس صفرا , أضف الصفر الذي تشكله دولة بمفردها إلى صفر ثاني فثالث فعشرون يكون الحاصل دولة الوحدة : القوة العالمية الثالثة . كيف يمكن الوصول إلى الجمع هذا ؟

هنا يجب إضافة ضحالة التحليل السياسي إلى السذاجة التي كان تشكل السؤال المطروح : الدولة هي حصيلة الصدفة و إرادة الاستعمار , وهي أساسا مرفوضة من الشعوب الوحدوية بالطبع , لذلك فإنها ستنهار بسرعة إذا استطعنا خلق ديناميكية و حدوية , تبدأ من مركز ما أيا كان , لتمتد و كأنها نار أضرمتها في سهل جاف لتشمل أرجاء الوطن . لنسمي هذه النظرية نظرية المفاعلة الكيماوية , و لنتوقف عندها طويلا لأنها ستمكننا من فهم كل المحاولات الوحدوية الناصرية منها و البعثية .

دعامات هذه النظرية إيمان طوباوي بالبديهيات الآتية :

لا يمكن للشعوب العربية أن تحقق الحد الأدنى من الرخاء و الاستقلال إلا في إطار دولة مركزية موحدة تعيد للعرب عظمة الأجداد , و تمكنهم من فرض إرادتهم و محق أعدائهم .

ستحقق هذه الدولة على غرار الدولة المركزية الإيطالية أو الروسية بالحرب ضد إسرائيل التي ستكون العنصر الأساسي في المفاعلة الكيماوية , إذ هي العدو الرئيسي الذي يمكن من تجميع قوى الأمة ضدها . بطبيعة الحال هزيمة العدو مسألة وقت لا أكثر .

اندثار و ذوبان الدول " المصطنعة" أمر طبيعي حتمي , تمليه الظروف الموضوعية و طبيعة المعركة ضد العدو الأوحد .

يعهد لحزب طلائعي و رجل خارق للعادة بمهمة قيادة هذه الحركة الحتمية .

و الحصـيلة

لنستعرض الآن النتائج التي حققتها النظرية و الممارسة الوحدوية بعد قرابة ربع قرن من العمل السياسي:

– تهشمت أول محاولة و حدوية بعد ثلاث سنوات فقط من ولادة الجمهورية العربية المتحدة , و لم تشب النار في الهشيم .

استولى العدو على القدس و الضفة الغربية و ضم الجولان و احتل لبنان , و البقية تأتي , و ضاع مع الأرض الشرف الأنبل .

مات العرب أو قل قتلة الفشل , و ماتت معه أماني شبابنا ,و خرجت قلعة العروبة من المعركة , و رفرف العلم الإسرائيلي في سماء القاهرة في حين نزلت من سماءه أعلام بقية العرب .

أصبح الحزب الوحدوي الأول حزبين : صارت دولتيه أشد الدول العربية عداء . و ذهبت إحداهما إلى حد مناصرة دولة غير عربية في حرب طاحنة ضروس تستهدف الأرض و الدم العربي , نكالة في النظام المقابل , أي أنهما عرفتا تقوقعا طائفيا و إقليميا ينقص عمليا ما تدعيانه نظريا من تسامي الطائفية و الأقلمة . و بهذا نكون قد و صلنا إلى قمة الشذوذ أو هاوية الفشل المطلق .

أخفقت كل المحاولات الوحدوية بدون استثناء , و أصبح العربي يهز كتفيه باحتقار عندما يسمع بمثل هذه المحاولات , في حين نلاحظ تصاعد قوة الدول الأنظمة (الملكية منها خاصة) التي كانت النظرية تتوقع سقوطها في الستينات .

و صلت الحزازات العربية إلى درجة منقطعة النظير على صعيد الأنظمة : الحرب الباردة و حتى الساخنة لا تخمد هنا إلا لتندلع هناك . و من ثمة غياب أي محاولة جادة لا إيجاد أدنى صيغة دائمة لتعاون اقتصادي أو ثقافي .

على الصعيد الشعوب : لنعرف و لو أن هذا كفر في رأي البعض , أن الهوة بين الشعوب العربية تتسع يوما بعد يوم . فها هو جزء كبير من أهم روافد الأمة و القومية العربية في نهاية القرن الماضي : الرافد المسيحي يبتعد شيئا فشيئا عن الرافد الآخر الإسلامي , و ها هي الحزازات اللبنانية – الفلسطينية و الجزائرية –المغربية تزداد عمقا يوما بعد يوم , بالإضافة إلى تلك الهوة الخطيرة الأخرى التي تفصل كل يوم أكثر عرب الثروة عن عرب الخصاصة و الحرمان .

و تتضافر كل هذه العوامل لتصل بنا إلى هذا الحاضر المخزي , إلى صبرا و شاتيلا , و العرب ينظرون و لا يحركون ساكنا , و قد شلت قواهم الطائفية و الإقليمية و البغضاء و الخوف من بعضهم البعض .

لـماذا؟

من طبيعة التفكير العقائدي أيا كان شكله أن يتنطع لحكم الواقع و التجربة , و من ثمة تراه يرفض مراجعة مواقفه و مفاهيمه على ضوء التجارب القاسية التي تلقنها إياه الحياة , مثلا ستراه يرفض فشله بإلقاء تبعته على هذا العامل أو ذاك متجاوزا بطريقة سحرية طفلا نية الأسباب الموضوعية التي آلت به إلى مصير لا يحسد عليه .

لنترك إذن العقائديين في جدهم العقيم و لنطرح الموضوع بصفة علمية أي لنكن على أهبة الاستعداد للتضحية بأكثر أفكارنا قدسية إذا ثبت أنها لا تخضع لحكم الواقع , لنتساءل لماذا حدث كل هذا ؟ لماذا فشلت النظرية و الممارسة الوحدوية على مدى ربع قرن ؟ و ردي على هذا السؤال المصيري كالتالي :

لقد فشلت النظرية و الممارسة الوحدوية هذا الفشل الذريع لأنها لم تفهم و لم تقدر حق قدرها الضر وف الموضوعية و الحاجيات الموضوعية للأمة , بل و أضيف أنها كانت عاملا من أهم عوامل التجزئة و التفرقة و العجز , أي أنها لم تحقق غاياتها فحسب بل ساعدت بصفة هامة على الوصول إلى , و من ثمة فإن مسؤولياتها التاريخية باهظة.

يقول الفيلسوف الأنقليزي الكبير فرانسيس بايكون :" لا يمكنك إملاء إرادتك على الطبيعة طالما لم تخضع لقوانينها " , نحن بالطبع " شعوب لا تؤمن بمثل هذا القول الذي بنت على أساسه دول الغرب عظمتها , نحن نؤمن بأننا نستطيع إملاء إرادتنا على القوانين الاجتماعية السياسية , لا لشيء إلا لأننا نريد ذلك و من ثمة فشلنا , هم يصنعون الصواريخ التي تتحكم في الفضاء لأنه يخضعون لقوانين الفيزياء , و نحن نصنع قبعات السواح لأننا نؤمن بأننا خير أمة أخرجت للناس .

لنتوقف إذن عند بعض القوانين التي أرادت عبثا النظرية الوحدوية خرقها فكان فشلها المخزي .

قلت إن النظرية تسن على أن هناك أمة عربية جزأتها الدول المصنعة , و أن من طبيعة هذه الدول الانهيار و الاندثار أمام المد الوحدوي الذي سيدمجها في قالب الدولة الواحدة التي تشكل مطمح كل عربي و أمله الأوحد في الحرية و الكرامة و الرخاء .

بطبيعة الحال لو كانت هذه هي الحقيقة , لما عرفت النظرية الوحدوية الفشل التام الذي تعرفه اليوم , ومن ثمة يسعني أن أستنتج : فرضيات النظرية غير صحيحة بالمرة .

الأمة العربية كيان مبهم . و مشروع لا واقع وحقيقة و موضوعية هذا الكيان في إرادة هيكلته ككل و في توجه أجزاءه نحو مزيد من الالتحام, فالأمة إذن صيرورة لا غير .

الدولة الواحدة لا تشكل لا مطمح الإنسان العربي ولا هدفه الأسمى .

الدول الموجودة ليست ظاهرة لا طبيعية يمكن توقع سقوطها بين الحين و الآخر , و إنما فترة طبيعية من تطور الأمة و هي فترة لن تنتهي إلا بانتهاء الظروف الموضوعية التي و لدتها .

لنوضح ,

قلت إن الأمة العربية كيان مبهم

الأمة العربية بصدد التواجد . هي في طور الخلق , هي لوحة فنية أو مقطوعة موسيقية , نحمل في أذهاننا مشروعها لكنها لم تكتمل بعد , هذا إن اكتملت يوما .

و الموجود ؟ القبلية العربية , و هذا منذ بداية تاريخ هذه الحضارة . لنفتح أعيننا على واقعنا اليومي . نحن في إطار دولنا الضيقة على غير انسجام . نحن طوائف و قبائل و جهات متناحرة , في بلدكبلدنا يتوفر على كل مقومات الانسجام لم نصل إلى القدر الكافي من الوحدة الذي يجعل المسؤول يتسامى عن جهويته ليرتفع بشعوره إلى المستوى الوطني , فما بالك بالمستوى القومي . و الظاهرة هي القاعدة العامة في أرجاء كامل الوطن الكبير , و من ثمة التساؤل :كيف يمكن لشعوب لم تنصهر بعد في بوتقة شعوبيتها أن تصل إلى طور أرقى من الشعور الجماعي : الشعور القومي ؟

كيف يمكن لمثل هذا الشعور أن ينموا و أن يصبح يوما القاعدة و ليست الشاذة ؟ بالتعاون و التقارب , و الاشتراك في المصالح المادية هذه هي السنة الطبيعية , و هذا هو المجرى الطبيعي للأحداث : الطامة الكبرى تدخل النظرية الوحدوية التي عطلت سنوات طويلة هذا التقارب التاريخي الحتمي الذي تمليه طبيعة التطور الذي يحمل العربي من مستوى الجهة و القبيلة إلى مستوى الوطن فمستوى القومية و أخيرا و ليس آخر المستوى الأعلى : الانتماء الأرضي الإنساني الذي يهضم و يتجاوز العقائدية المتحجرة في قالب التعصب الديني و العنصرية الخرقاء و الشوفينية الحقيرة المتواجدة إجباريا بنسب مختلفة داخل مفهوم الأمة .

كيف عطلت النظرية الوحدوية هذا التقارب الحتمي و الذي سيستمر رغم أنفهم ولو بصور أخرى وأساليب مغايرة ؟ برفضها لقانون بايكون , بمحاولة إملاء إرادتها على الطبيعة دون الخضوع للقوانين الموضوعية , بمحاولة وأدي الدول العربية قبل أن تكمل دورها التاريخي وتزول من تلقاء أنفسها .

قبل التعمق في هذه النقطة وحتى يفهم القارئ قصدي لتسائل عن طبيعة الدولة الموحدة التي كانت النظرية تتوقعها وتخطط لنشأتها .

من البديهي أن دولة كهذه لا يمكن أن تكون إلا دولة مركزية مغالية في مركزيتها , وذلك لمحاربة نزعة التجزئة والتفرقة المتأصلة في أعماق العربي . ومن البديهي كذلك أن هذه المركزية المطبوعة بعامل ردة الفعل لا يمكن أن ترتكز إلا على عامل واحد العنف : عنف الإعلام , عنف التعبئة الدائمة ضد الأعداء الحقيقيين و الوهميين , عنف التنظيم الإجباري في إطار حزب مبني على عقيدة صلبة وبيد رجل حديدي .

من البديهي كذلك أن الدولة كهذه لا يمكن أن تكون إلا دولة مهددة محاصرة من طرف الغرب , و من ثمة فهي مجبرة على أن تكون دولة عسكرية مغالية في عسكريتاريتها, و ذلك إبان ربع القرن الأول من و لادتها على الأقل . دولة الوحدة إذن كما تخطط لها النظرية هي إجباريا دولة عسكرية مبنية على الحزب الأوحد و الرجل الأوحد و البيروقراطية المركزية (كلنا نعرف فعالية مثل هذه

البيروقراطية) و الصوت الإعلامي الواحد الخ... أي أنها ستبني وفق تقنيات التنظيم المتخلف الذي نعاني في كل أقطاره من أثاره و أثامه التي نحاول جاهدين التخلص منها و تجاوزها لأنها من مظاهر تخلفنا و إحدى أسباب بقاءه .

هل سيجد العرب ضالته المنشودة في إطار مثل هذه الدولة – ؟ قطعا لا , لأن عيوب أنظمتنا ستتضاعف آلاف المرات . لأمد طويل , سنفقد حريتنا و حق تقرير مصيرنا فنحن لا نستطيع تغيير مثل هذا الكائن المخيف من الداخل أو بالأحرى إن هذا قد

يتطلب قرنا كاملا من الزمن , مع العلم أن الحركة المضادة التي سيولدها مثل هذا الكيان ستكون حرب التي سيشنها كل شعب عربي من أجل اللامركزية و الديموقراطية , هل سنربح على صعيد الكرامة و الرخاء ما سنفقده على صعيد الحرية ؟

قطعا لا لأن كل الأنظمة المركزية البيروقراطية المستندة على عقلية الرجل الأوحد و الحزب الأوحد و العقيدة الصلبة , فشلت فشلا ذريعا في الاتحاد السوفيتي , في كل مكان لماذا ؟ من جديد لأن مثل هذه الأنظمة تخرق قانون بايكون" لا يمكن إملاء إرادتك على الطبيعة طالما لم تخضع لقوانينها ".و تتساءل لكن أين هو القانون الذي يجب أن نخضع لكي نحقق أهدافنا و لكي نملي إرادتنا على الطبيعة أكانت في عالم المادة أو في عالم المجتمع ؟ و أقول : لا يمكن لأي مجموعة إنسانية أن تحقق أهدافها الشرعية طالما لم تبني تركيبها على القواعد الآتية : – الديمقراطية السياسية

اللامركزية الإدارية

التعاون و التكامل الاقتصادي الحر فالسياسي مع أقرب المجموعات إليها ثقافيا و جغرافيا

و من ثمة نفهم :

أن دولة الوحدة كما كانت تخطط لها النظرية لم تشكل في يوم ما المطمح الذي ضنت أن الشعوب العربية ستموت من أجله , لأن الشعوب العربية ليست بالغباء الذي تتصوره هي

إن قيام مثل هذه الدولة يخرق قانون التطور لأنه ردة و تقهقر و ليس تقدم و من ثمة نفهم الفشل الذريع الذي منيت به النظرية إن الدول العربية غير مؤهلة للاختفاء لا لأنها كائنات حية تدافع عن و جودها فحسب , بل لأن و جودها ضروري حتمي و ليس مجرد صدفة تاريخية.

هل يعني هذا أن الدول الحالية مؤهلة أكثر من الدولة – الغول لتحقيق مطامح العربي ؟ لا طبعا .

هي حقا مرحلة أرقى في تطور الإنسان العربي من مرحلة التفكك و القبلية التي كان يعيش فيها قبل و لادة دولته هذه , لكنها مجرد مرحلة و ليست الهدف الأسمى .

لنلاحظ كذلك خاصية هامة لهذه الدول : هي كما قلت كائنات حية و لدت في ظروف معينة و لها خاصياتها الموضوعية . وهي ككل الكائنات الحية تخضع للقانون الخلدوني : الولادة , البلوغ , الهرم و الموت .

غلطة النظرية الوحدوية أنها لم تفهم هذا القانون , إذ تصوت أن كائنات حية لا تخضع إلا لقانون التاريخ , ستقبل ببساطة إما بالانتحار و إما بالاستسلام للقتل , و غلطة النظرية الوحدوية أو قل سذاجتها و ضحالة تفكيرها تكمن أيضا في إيمانها أن كثيرا من هذه الدول ستقبل عن فرح فقدان شخصيتها و الذوبان في قالب أسمى حقا و لكنه قالب يعني الحكم عليها بالإعدام .

و جاءت الممارسة لتسفه أحلام النظرية الساذجة فقد كرست الدول و جودها و دافعت عنه و وضعت نصب أعينها أنه لا خطر يهددها مثل الخطر الوحدوي كما يتصوره الناصريون و البعثيون , و من ثمة أصبحت فكرة الوحدة تعني بالنسبة إليها الموت و الاندثار , و ككل كائن حي و في عنفوان شبابه قررت الدفاع عن نفسها و هكذا أصبح الموضوع الرئيسي المصيري بالنسبة إليها الاستقلال و التشبث به , وركزت سياستها على إفراغ كل محاولة وحدوية من محتواها و من معناها , لذلك رأين أن كل دولة وحدوية تصبح أكثر الدول انعزالا إذ هي بالنسبة لبقية الدول سكين الجزار , و رأينا الحزازات و الصراعات تتزايد يوما بعد يوم

و أصبحنا نذهب إلى النرويج بدون تأشيرة و يشتمنا شرطي الجمارك في كل مطار عربي , في حين يمر النرويجي مرفوع الرأس و بلا تأشيرة لذلك أقول : غلطة النظرية الوحدوية كبيرة و مسؤوليتها باهظة في كل ما حدث من تفريق و حزازات و تباعد كل أمل في تنسيق ما على أي صعيد كان .

يبقى أن هذه الدول التي تشكل مرحلة إجبارية من مراحل تطور الشعور الجماعي عند الإنسان العربي تتطور بطبيعتها و تعاني من تناقضات خطيرة تجعلها مؤهلة في يوم ما للتغير الجذري و حتى الاختفاء .

لكن غلطة النظرية الوحدوية تكمن في عدم تقديرها الكافي للعامل الزمني الذي تتطلبه هذه التغييرات .

لنركز قبل توضيح هذه النقطة على تعلق أغلب العرب و ضحالة إدعاء النظرية الوحدوية القديمة القائل بعكس هذا, و ذلك رغم كل العيوب و المساوئ التي يعرفونها عن دولهم و أنظمتهم .

كيف يمكن لهذه الدول أن تتغير و أن تتطور و في أي اتجاه؟ لنؤكد مرة أخرى على الطبيعة التقدمية للدول . ذلك لأنها كما قلت مرحلة تجاوز من خلالها العربي (أو بالأحرى يحاول تجاوز الانتماء) القبلي و الجهوي كلنا ندرك أن حتى هذه المعركة لم تربح . فنحن نشاهد في كل مكان عمق القبلية أيا كان شكلها (جهوية مثلا عندنا في تونس) , و نعرف أن القبلية لم تندثر و إنما تقنعت بل و تمكنت في كثير من الحالات إلى الاستعلاء على جهاز الدولة لتسخيره لمصالح القبلية أو الطائفية , و الأمثلة متوفرة يعرفها القاصي و الداني و من ثمة لا داعي للتوقف عندها لكن أيام القبلية و إن تمكنت من التطفل على جهاز الدولة معدودة . ذلك لأن الحس الوطني يتصاعد يوما بعد يوم خاصة عند الشباب , و فوارق القبلية و الجهوية مهددة في المدن الكبرى و التجمعات الضخمة بالتلاشي و الاضمحلال ومن ثمة فإن دور الدولة و هيبتها لفترة من الزمن ضرورية لهضم هذه القبلية التي عجز الإسلام نفسه على القضاء عليها .

يبقى أن النظرية القديمة محقة عندما تلاحظ أن هذه الدول عاجزة بمفردها عن توفير الأمن و الرخاء لكل العرب و إنها لا تستطيع أن تمكن الأمة من مواجهة التحديات المصيرية : التحدي العسكري , التحدي العلمي و التكنلوجي , التحدي الاقتصادي وهي تحديات لا تقدر على مواجهتها إلا الأمم العظمى المتحدة, من ثمة نحن لا نجد صعوبة في الاتفاق معها على هذه النقطة مع العلم أننا رأينا أن تحقيق الدولة – الغول كما تخطط لها ليس هو أيضا الحل المثالي .

كيف نستطيع الخروج من هذا التناقض ؟ بالعودة مرة أخرى إلى التفكير العلمي , بالاحتكام إلى المنطق , بالبحث عن القوانين الموضوعية التي سيمكننا الخضوع المطلق لها منا التحكم فيها .

لنستعرض من جديد الحاجيات الماسة للإنسان العربي و للشعوب العربية , باكتشافنا لها سنرى أي شكل يجب أن تتخذه محاولاتنا النظرية و العلمية للإيفاء بهذه الحاجيات .

قلت إن هذه الحاجيات المبدئية على ثلاثة أصناف : الديموقراطية السياسية , اللامركزية الإدارية , التعاون الاقتصادي الحر مع المجموعات القريبة , لماذا تشكل هذه المحاور الثلاث ما أسمته بالحاجيات المبدئية ؟ لأنها الشروط الأساسية التي تسمح للمجموعة البشرية للتطور لأنها خاصيات المجتمعات الفعالة .

أمن باب الصدفة أن أكثر المجتمعات الإنسانية تقدما هي التي تحيا تحت راية هذه الأساليب من التنظيم , و إن أكثر الدول و الشعوب تخلفا هي التي تمارس الديكتاتورية (على مختلف أشكالها) المركزية البيروقراطية و التقوقع الاقتصادي؟

لنركز على غلطة مصيرية أخرى ارتكبتها النظرية الوحدوية القديمة عندما خلطت بين الدولة و النظام – فهي مثلا قلما تنازع في طبيعة النظام بل و لا تعطيه الأهمية التي تدعي , مثلا نحن نعرف كما أوردت أن هدفها هو تعميم و تصعيد النظام الشخص الواحد و الحزب الواحد و الإيديولوجيا الواحدة . الفارق الأوحد هو أنه لن يكون للعرب عشرون نظاما من هذا النمط و إنما نظام واحد يجمع كل عيوبها و مساوئها , أي أنها لا تناقش في طبيعة هذا التنظيم المتخلف لشؤون المجموعة بل في كيفية توزيع السلطة و كأننا لا نعاني من قدر كاف من المركزية – و هي بالطبع لا تتساءل عن طبيعة مثل هذا التنظيم , وإنها لم تفهم أن مظهر تخلفن و سبب بقاءه و تطوره ليس الدول الإقليمية و إنما نظام الرجل الواحد و الحزب الواحد و الأيديولوجيا الواحدة , و ما ينجرّ عن هذا من إعلام مأجور و عدالة مقيدة و سجون مكتظة الخ....

و مجمل القول أنها ترى سببا انحطاطنا و ضعفنا في شكل تنظيمي هو بدون منازع تطور في تاريخنا , لأنه شكل نحارب به قبليتنا المتمرسة في أعماقنا بينما نتعامى عن أسباب تخلفنا الحقيقية بل تريد تصعيد تقنياتها و أساليبها إلى درجة مخيفة و من ثمة نفهم فشل كل محاولاتها و نفهم لماذا ستفشل كل المحاولات الآتية .

و المستقبل

هل الفكر و العمل الوحدوي مستقبلا بعد صبرا و شاتيلا ؟ أقول نعم على شرط أن يخرج هذا الفكر من ضحالة التي كانت إحدى أسباب العجز العربي , و من شروط تجدده :

إعادة تقييم الفكر القديم على ضوء حرائق صبرا و شاتيلا و مشهد عجز العرب (أنظمة و شعوبا) و أمام هذا التقهقر المستديم

تفادي إلقاء تبعة هذا الفشل على هذا العامل أو ذاك و محاولة إعادة النظر في أبسط البديهيات التي ركزنا عليها في الماضي اعتقاداتنا .

هذه هي الشروط المنهجية , و الآن ماذا عن المحتوى ؟ أو بعبارة أخرى ما هو التصور الجديد الممكن للفكر و العمل الوحدوي و ما هي أهم ملامحه ؟

الدولة مرحلة من مراحل تطور الشعور الجماعي متقدما عن المرحلة القبلية , و الطريق الإجباري إلى مرحلة الشعور القومي , و لها خاصياتها و زمنها المحدد الذي لا يمكن تجاوزه بالبساطة التي خلناها , مثلما لا يمكن للطفل القفز من مرحلة التوازن إلى الجري السريع بدون المرور بمرحلة المشي المترنح .

الدولة بطبيعتها مؤهلة إلى التغير و لو ببطء ومشكلة العربي ليست الدولة بل النظام

كل نظام يرتكز على الرجل الواحد و الحزب الواحد و الإيديولوجيا الواحدة أكان النظام إقليميا أو قوميا هو نظام متخلف يشكل عبئا ثقيلا على الشعوب و الأمة و خاصة عندما تتجاوز مرحلة معينة من تطورها و هي مرحلة قطعتها كل الشعوب العربية التي أصبحت حاجياتها في تناقض تام مع تقنيات الحكم الذي تجازه الزمن , و من ثمة فإن الفكر القومي الذي يطمح

إلى تحرير الإنسان العربي يجب أن يبدأ برفض تقنيات و أساليب الحكم المتخلف . إذن يجب أن تكون الديموقراطية كل الديموقراطية هدفه الأول . فلولا غياب هذا العامل الحيوي , لما وصلت مجتمعاتنا إلى هذه الطرق المسدودة , و لما عرفت هذا الفشل الذريع الذي تعاني منه , نحن لا نقدر حقا قدرها ظاهرة الديموقراطية و لا نفهم الارتباط الوثيق بين وصول الأمريكيين إلى القمر وطرد رئيس أعظم دولة في العالم , من جراء اتهامات صحافيين مغمورين . نحن لا نفهم أن حادثة واترجيت و مصير نيكسون تظهر مدى فعالية هذا النظام الذي يخضع فيه الأشخاص كل الأشخاص بدون استثناء إلى القانون الذي تعطي فيه الأولوية للمؤسسات على الأفراد . فالفعالية التي مكنت من طرد رئيس الدولة الذي خرق القانون هي التي مكنت من الوصول إلى القمر . هذه الأنظمة تستهلك الأشخاص و البقاء للقانون و المؤسسات و من ثمة القدر العالي من الكفاءة الناتج عن حرية التنظيم في التتبع و التخلص من كل القاصرين .

مشكلة المجتمع المتخلف أنه لا يملك أدوات الإصلاح و المراقبة و الفعالية من صحافة حرة و عدالة حرة و انتخابات حرة الخ... التي تمكن من التخلص من غير الأكفاء أو مراجعة الاختيارات قبل أن يصل المجتمع إلى الطريق المسدود .

أغلب الكوارث التي لحقتنا منها صبرا و شتيلا نتجت عن قمع الطاقات العربية في ظل نظام الرجل الواحد و الحزب الواحد و الأيديولوجيا الواحدة و استحالة تصحيح المسار قبل أن يدفع بنا إلى الهاوية .

حتى يصل الإنسان العربي إذن إلى أهدافه يجب أن نضع نصب أعيننا الهدف الأول : كل الديموقراطية للناس (مع العلم بأن النظام المتخلف يحاول إفراغ الكلمة من محتواها , لكن حيله أصبحت لا تنطلي على شعوب متطورة) فبالديموقراطية ستستطيع الشعوب نقاش أولويتها و فرض إرادتها و تصحيح مسارها و التخلص من الغوغائيين و الانتهازيين و الدوغماتين و غير الأكفاء الذين يقفون حجرة عثرة في طريق تقدمها الحتمي .

أما الهدف الثاني الذي يجب أن تضعه النظرية الوحدوية الجديدة نصب أعينها فهو اللامركزية الإدارية: إعطاء العرب حق التصرف و حق المراقبة على صعيد البلدية , على صعيد الجهة , بانتخاب مجالس بلدية و مجالس جهوية ترضي نزعتها القبلية و تقلم أظافرها في نفس الوقت , تعكس إرادته هو لا إرادة النظام المتخلف , هذا هو الهدف الثاني الذي سيمكن العرب من تجاوز مرحلة الرعية إلى مرحلة المواطنية الحقة . لقد طال اعتبار العربي إنسانا قاصرا لأن النظام المتخلف ليست حصيلته التخلف فحسب , بل هو سبب بل هو سبب من أسباب انتشاره ودوامه .أضافت اللامركزية الإدارية أن الديمقراطية تحصل على مجتمع حركي تكون فيها المبادرة للطاقات الحية الخلاقة , مع إمكانية محاربة اللاكفاءة و تصحيح المسار بمرونة وسهولة ,يبقى العامل الأخير : الفيدرالية , لقد اصبح واضحا لكل شعوب الأرض قاطبة أن التحديات أصبحت عالمية وانه لايمكن مواجهتها الاّ جماعيا . ونحن العرب ننتمي , شئنا أم أبينا , إلى مجموعة حضارية ذات مصالح سياسية و ثقافية واقتصادية واحدة ومن ثمة حتمية التقارب .

المشكلة كما قلت أن النظرية الوحدوية القديمة أرادت تجاوز المراحل و القفز من فوق العقبات , ولم تفهم أن عملية التقارب هذه تتطلب وقتا وتبدأ من القاعدة لامن القمة لنتصور مثلا أن هدف الوحدويين كان في الستينات وضع لبنات الوحدة الواحدة بعد الأخرى و ليس التآمر على حياة الدول ووجودها , لنتصور أنها جعلت من احترام استقلال الدول أي اللامركزية القومية شعارها و

إنها اكتفت بالمطالبة و عملت على تحقيق السوق العربية المشتركة و المؤسسات العربية المشتركة و الطريق السريع بغداد – مراكش , و التشاور السياسي المستمر , و الصناعة العسكرية المشتركة الخ... أكنا نرى عرب الصليب يذبحون عرب الهلال أو عرب الهلال يضرمون النار في كنائس عرب الصليب الخ... ؟ صحيح أن هذا الكلام لا يؤخر و لا يقدم لأننا لا نستطيع إعادة كتابة التاريخ , لكننا نستطيع التخطيط للمستقبل و مستقبل الوحدة العربية هو الكفاح في إطار دولنا من أجل الديموقراطية و اللامركزية الوطنية أي من أجل حرية المواطن و حرية مؤسساته ثم الكفاح لتحقيق الفديرالية العربية , باحترام الدول أو اللامركزية القومية و ببناء الهرم الذي سيرفرف عليه علم العروبة لبنة فلبنة من القاعدة إلى القمة , ببطء لكن بثبات , أي تطوير دولنا (وهو التطور الذي يمليه التاريخ) بنقل صلاحياتها الإدارية إلى الجهات و بعض من صلاحياتها الاقتصادية و على الأمد البعيد السياسية إلى الدولة الفدرالية , و مع العلم أنه يجب أن تبقى لها صلاحياتها الخاصة التي تجعل منها همزة الوصل بين المستوى الجهوي و المستوى القومي .

مجمل القول : شعارنا كان في الستينات : وحدة حرية اشتراكية , و ثبت بالكاشف أنه كان و سيبقى شعارا كلما حاولنا تطبيقه , كلما ابتعدنا عنه , و من ثمة ليكن شعارنا نحن الوحدويين العرب من الآن فصاعدا الديموقراطية الاشتراكية اللامركزية , الفدرالية من أجل الإنسان العربي و من أجل مستقبل هذه الأمة العظمى . هذا المارد الذي هو بصدد التكوين

****

أي فكر للصحوة القومية.

أفدح الأخطاء القناعات التي تجاوزها الزمن

فرانك هربرت

هل نحن أمة و هل نحن بحاجة إلى الوحدة ؟ و ما هي الأسباب العميقة و الخفية لتنفيذ الواقع و تسفيه للأحلام العظمى التي ترجمت لها و حاولت تحقيقها كل الحركات الوحدوية في الخمسينيات ؟ أسئلة لم يعد من الممكن اللف حولها أو الإجابة عنها ببساطة

هل نحن أمة؟

كثيرا ما يكون الرد على السؤال المبدئي عاطفيا تشنجيا يصفف الأسباب التاريخية – الجغرافية – الحضارية و حتى العرقية التي تفرض " حقيقة " و " موضوعية " مفهوم الأمة العربية , إلا إنما ما يغفله الفكر الوحدوي الساذج هو أن للقائل لمفهوم الأمة التونسية أو الأمة الإسلامية , حق قراءة نفس الظواهر التاريخية –الجغرافية الخ... بصفة مغايرة لأن المقاييس المعيارية و الاختيارات هي التي تصنفها و فق هذه التشكيلة أو تلك . بعبارة أخرى ليس لنا أدنى مقياس موضوعي للحكم على دخول العرب إلى تونس فهو غزو إن كانت القراءة إقليمية انعزالية , وهو فتح إن كانت القراءة وحدوية عروبية . كذلك لا يمكننا أن نعيب على الإسلام قوله بالأمة الإسلامية لأنه ليس لنا ما نثبت به فعالية أو الانتماء القومي على الانتماء العقائدي , بل من المرجح أن الانتماء أرقى و أعمق نظريا من الانتماء إلى أمة محددة , يضاف إلى هذا أن الفكر الوحدوي القديم يتصرف بصفة سحرية عندما ينفي وجود الموجود كالشعور الانعزالي والإسلامي , أو يحاول إنكار أهميته و تجاوزه بالعنف

هل معنى هذا أن الأمة غير موجودة , أو أن على الفكر القومي أن يقبل وجوده كتيار فكري سياسي لا يقل و لا يزيد شرعية عن مقولات المنافسين ؟ طبعا لا , على شرط أن تتضح له معالم المعادلة المعقدة ومن أهمها النقط التالية

وجود عدة مستويات للانتماء عند الإنسان العربي : القبلي و الإقليمي و القومي والديني كنتيجة حتمية لعوامل موضوعية قاهرة .

تنافس هذه المستويات داخل هذا الإنسان , ومن ثمة تواجد التنافس بين التنظير المختلف الانتماءات على الساحة الفكرية – السياسية .

استحالة تحقيق الوحدة الإسلامية , لأنها قفزة من فوق التاريخ . فقد جربت و جمعت الخلاف العرب و الفرس و الترك , فمزقوها وما زالوا إلى يومنا هذا في حرب ضروس إضافة إلى أنها تفتقر إلى أبسط الشروط الموضوعية لتحقيقها (وسنتعرض لأهمها في ما يلي

عدم ملاءمة الدول الإقليمية لمعطيات العصر التي تدفع بكل الشعوب ذات المصالح المشتركة إلى التوحد , لذلك تصبح الوحدة العربية مرحلة متقدمة وفي نفس الوقت ممكنة التحقيق من تطور الشعور الانتمائي عند الإنسان العربي , ومن ثمة يصبح الفكر الوحدوي الحق في المطالبة بالدور القيادي و الرائد .

ضرورة "بيع " هذا الفكر الوحدوي "للشاري" العربي المعرض لإغراء البضاعة الهزيلة (الأمة التونسية) و المغشوشة (الأمة الإسلامية) و بالتالي المساهمة في بلورة "الأمة العربية " الفكر الذي يساهم في خلقها و إيجادها يوما بعد يوم , وذلك تماشيا مع المعطيات الجغرافية الحضارية , مع التصدي الفكري و الحضاري للفكر الانعزالي و الطوباوي الذين يريدان كل من منظوره عرقلة هذه البلورة .

هل نحن بحاجة إلى الوحدة ؟

لنترك على حدة قائمة الأسباب المعروفة التي يصففها الوحدوي القاعدي في جداله مع الانعزالي أو مع الإسلام لأنها كما أسلفنا مجرد قراءة معيارية لظواهر يمكن تفسيرها بصفة مختلفة , فالموضوع في إطار التنافس على بلورة شعور الانتماء عند الإنسان العربي لا يكمن في تصفيف حجج نحن مقتنعون بها , حتى قبل أن ننظرها (إذ هي في الواقع منطلقاتنا التي نستقي منها خياراتنا) , بل من جديد في بيع هذه القناعات و في العمل على توفير ظروف عملها .

لنفرض مثلا أننا قمنا باستفتاء ديمقراطي حول الأهمية العددية للانتماءات الثلاثة , نكتشف أن الانتماء العروبي هو الغالب في هذا القطر لكنه ضعيف أمام الانتماء الانعزالي و الإسلامي في قطر آخر .

بطبيعة الحال سيعطينا مثل هذا الاستفتاء صورة عن حالة البلورة و ستتضح الصورة أكثر لو استطعنا تجديد الاستفتاء مرارا عديدة لملاحظة تطورها أو تراجعها .في غياب هذه المعطيات الأساسية علينا أن نفترض أن حاجة الجماهير للوحدة ليست بالأهمية التي يتصورها الوحدوي , و إلا لفرضتها منذ زمان كما فرضت على الأنظمة التراجع في أسعار المواد الغذائية أو الصلح مع إسرائيل .

و يستنتج من هذا أن على– الفكر الممارسة الوحدوي أن لا يقتنع بالبكاء و النحيب على توفر الظروف الموضوعية و الحاجة للوحدة وإصرار الأنظمة" العميلة " على عدم الانصياع لها ,كما هو الأمر حاليا , و إنما على خلق تلبية الحاجيات الموجودة و خلق حاجيات جديدة لتتقوى شبكة الارتباط بين أفراد و جماعات الأمة التي هي بصدد التكوين .

و من حسن الحظ أن مثل هذه الحركية لا تنتظر تأشيرة المفكر الوحدوي كما لا تتوقف عند حظر الحاكم الإقليمي , فالارتباط الثقافي المتزايد (و لو على صعيد المسلسلات العاطفية السخيفة) و تنقل و لو بالمضايقات الكريهة التي يتعرضون لها , زيادة على العلاقات القديمة بين القبائل و العائلات التي فصلتها الحدود المصطنعة , جملة من العوامل التي تشكل موجة عاتية يستطيع الوحدوي ركوبها و توجيهها , و هذا يتطلب منه كما قلنا , تغذية الحاجة إلى الوحدة بربط فكرة تحسين حالة الجماهير العربية بتحقيقها , و بالعمل على خلق خيط آخر من النسيج المعقد الذي بدأ يربط الأفراد و الجماعات برباط سيستعصي يوما عن الحل .

لكن مرة أخرى لماذا فشل المشروع الوحدوي في الخمسينات رغم وجود "الموجة " و تضخمها , و رغم ضحالة المشروع الفكر –سياسي الإقليمي و طوباوية نظيره الإسلامي ؟

لـمـاذا فشـلـت الـوحـدات

لا جدال أن المشروع السياسي القديم لتحقيق الوحدة أكان ذلك واضحا أم مبهما , تأثر كثيرا بنموذج الوحدة الإيطالية و خاصة الألمانية , في القرن التاسع عشر , و إن أهم سبب الخفاق كان و لا يزال يكمن في محاولة معالجة معطيات تاريخية و ثقافية خاصة بطرق أثبتت نجاعتها لكن في ظروف تاريخية و ثقافية مغايرة تماما .

كيف يمكن أن نحلل النموذج البروسي–البزماركي للوحدة ؟

1 – يعهد للدولة الأقوى داخل المجموعة القومية بقيادة عملية التوحيد , و ذلك بهضم الدول الإقليمية الضعيفة الواحدة تلو الأخرى بالسلم تارة , و بالعنف تارة أخرى , و ذلك باسم شوفينية –عنصرية

2 – يكون مردود المفاعلة أرفع في ظروف الحرب , و من ثمة أهمية "تعهد" عدو خارجي يلعب دور الأنزيم في المفاعلات الكيمياوية , إذ يمكن تجميع الطاقة القومية ضده ظاهريا مع العلم أن المقصود الفعلي بالحرب هو الدولة الاقليمية .

تقع عملية التوحيد إبتداء من المركز (الدولة الأقوى) لتتوسع دائريا و بسرعة متفاوتة إلى الأقاليم , و ذلك تحت إشراف رجل ملهم (بزمارك) , و بقيادة طبقة معينة تفرض مصالحها المتعارضة مع التنظيمات الإقليمية القديمة .

لا جدال أن مشروع الوحدوي القديم حاول التعامل مع مشكلة الوحدة العربية تطبيق هذا النموذج النظري , فقد عهد إلى مصر بدور الدولة القوى و المركز الذي تنطلق منه المفاعلة ,كما شكل جمال عبد الناصر في وقت ما من تاريخنا بزمارك العرب , كذلك لعبت اسرائيل (و لا تزال) دور العدو المشترك الضروري لإلغاء الدول الإقليمية في إطار حرب تكون هدفها الظاهري .

قد عرفت كل محاولات تطبيق هذا النموذج الفشل الذي نعايش يوميا مؤاسيه و أثاره, فنحن لم نتوصل إلى إمضاء محضر الوحدة داخل قاعة الكنيسات البلورية , كما استطاع بزمارك إمضاء شهادة ميلاد ألمانيا الموحدة في قاعة المرايا بقصر فيرساي بعد هزيمة فرنسا في حرب 1871 . و مات بزماركنا أو بالأحرى قتلت الهزيمة , و خرجت مصر من دور الدولة المركز و لم تستطع أي دولة أخرى الاضطلاع بهذا الدور القيادي , و تزايد التشتت و عمت التفرقة و ابتعدنا عن الوحدة بصفة مهولة .

و لمعالجة إخفاق النموذج البروسي , البزماركي , قامت عدة محاولات فوقية فاشلة لإدماج دولتين أو أكثر متجاهلة أن الدولة الإقليمية لا تنتحر إنما توئد بالقوة أو تتغير تدريجيا من الداخل بفعل قوى ضاغطة .

و يبقى السؤال : ما هي الأسباب الخفية لفشل النموذج لبروسي البزماركي عبر الملحمة الناصرية ؟

و ذلك رغم تواجد الكثير من المواد اللازمة للمفاعة الوحدوية : العدو المشترك , الشعور القومي , و جود البطل المؤهل للعب دور القائد .

و رد عن هذا السؤال يتلخص في غياب شرطين رئيسيين لنجاح النموذج البروسي – البزماركي للوحدة :

غياب السوق : يلاحظ " ألفين توفلر " في كتابة " الموجة الثالثة " أنه من الغريب أن الألمان و الإيطاليين اكتشفوا بينهم روابط عرقية و ثقافية و روحية تأهلهم لكي يكونوا أمما متحدة في نفس الوقت الذي كانت فيه البرجوازية الألمانية و الإيطالية بأمس الحاجة إلى سوق أوسع من سوق إقليمية في تصريف بضاعتها , علما بأن الأمم المنافسة كالفرنسية و البريطانية كانت تتوفر على سوقها الداخلية الموحدة و على الأسواق الخارجية التي ضمنها له الاستعمار , معنى هذا أن ضرورة إيجاد السوق الموحد تصريف بضاعة البرجوازية الكبرى شكلت الخلفية و الأرضية الصلبة التي جعلت من بزمارك مجرد منفذ لمصالح اقتصادية كبرى بدت أمامها مصالح الأقلية المتمسكة بالنظام الإقليمي هشة ضعيفة غير قابلة للبقاء , معنى هذا أن الوحدة السياسية عن طريق النموذج البروسي , البزماركي لا تكون إلا كتتويج لوجود سوق قومية ضرورية لتصريف إنتاج قومي , لا غرابة أن يفشل النموذج و الأرضية الضرورية , مفقودة بل معكوسة , بما أن الوحدوي القاعدي يحلم بإيجاد السوق بعد إيجاد الوحدة السياسية .

غياب النصر :دور العدو في المفاعلة البزماركية أن يهزم . لكن عدونا لم " يأخذ بخاطرنا " و هزمنا هو المرة تلوى الأخرى و من ثمة أختلطت الأوراق و أدت هزائمنا كما كان ذلك متوقعا إلى تغذية الصراعات و تزايد التفرقة . أكان النصر مثلا في **1956** أو **1967** قادر على إلغاء شرط رجل السوق , فرض الوحدة من قبل الجماهير نفسها رغم غياب المصلحة المشتركة لبرجوازيات إقليمية منتجة لكن ضائقة ذرعا بالحدود ؟ هذا السؤال لا يمكن الرد عليه لأننا لا نجرب على الماضي , لكننا نستطيع أن نعقب بالتركيز على استحالة مثل هذا النصر لأننا لا ننسى أن إسرائيل مجتمع حضارة صناعية بصدد الانتقال إلى مجتمع ما بعد الصناعة .في حين أننا مجتمع حضارة زراعية بصدد الانتقال (ببالغ الصعوبة) إلى مجتمعات الحضارة الصناعية , و أن حظوظنا في الانتصار لم تكن مختلفة جذريا عن حظوظ قبائل إفريقية بدائية في احتلال مدننا بالأقواس و العصي .

غياب السوق و غياب النصر سببان مرتبطان إذا , يعودان أساسا إلى وضعيتنا التكنو إيديولوجية كأمة بصدد التكوين وفي نفس الوقت متخلفة , لم تدخل الإنتاج الصناعي من أوسع أبوابه (في الإبان) و بالتالي لم تستطع التصدي لأقوى خصم و أشرس عدو لأنه على عكسها جزء فعال و مرتبط أوثق الارتباط بمصادر هذا الإنتاج الصناعي و من أهمها الدولة التكنولوجيا الأولى : أمريكا .

من ملامح المشروع الجديد

إذا قررنا مبدئيا أن حلم المفاعلة الانفجارية التي تبدأ من مركز لتلتهم الدول الإقليمية في ظروف استثنائية غير ممكن التحقيق , خاصة بعد فشل الناصرية , و إذا اتفقنا كذلك على أن المعاهدات المبرمة بين هذه الدول و تلك و التي تنقض قبل أن يجف حبرها , تتنكر لأبسط بديهيات الإقليمية و تحاول تجاوزها بصفة فوقية و سحرية , فإن الخيار أمام الوحدوي يكون النكوص أو مراجعة الإستراتيجية الوحدوية بصفة جذرية . وحتى لا تمنى هذه المراجعة بنفس الفشل فتتأخر المسيرة من جديد , فإننا مطالبون هذه المرة بتشخيص القوانين الموضوعية التي تجاهلناها في المشروع القديم لاستعمالها عملا بقول الفيلسوف بايكون " إنك لا تملي إرادتك على الطبيعة طالما لم تخضع لقوانينها " معنى هذا أننا مطالبون بتشخيص القوى و التيارات التي تدفع مسار تاريخنا باتجاه الوحدة (و كذلك تشخيص القوى و التيارات المعاكسة) استعمال الأولى و التصدي للثانية و خاصة باختيار الجبهات التي نستطيع ربح كل معاركها في إطار تنافسنا مع الإقليمية المتخلفة و العقائدية الطوباوية حتى يتحقق المشروع العظيم الذي نعلم أنه طريقنا الوحيد لفرض وجودنا كقوة فاعلة في المستقبل و أرى أن على الوحدوي المستقبلي المراهنة (وربح) معركتين حاسمتين معركة الديموقراطية , و معركة التكنولوجيا .

1 - الديموقراطية , طريق الوحدة :

إنّ قيام الوحدة الألمانية , ارتكز أساسا على وجود طبقة برجوازية كانت بأمس الحاجة إلى سوق قومية , و أن تعارض مصالحها مع مصالح الدولة الإقليمية كان من أهم أسباب تفجير هذه الأخيرة .

السؤال إذن : بأن لنا برجوازية عاقرة – عاهرة تستهلك و لا تنتج ,بأنه لا وجود لسوق قومية لا كواقع و لا كمشروع , فمن هي الطبقة المؤهلة لتفجير الحدود الإقليمية المتعارضة مع مصالحها ؟ و الرد بالطبع هو : جماهير الناس الكادحة و الفقيرة . فمن البديهي أن الإقليمية تشكل اليوم إحدى أسباب معاناتها اليومية فلا شيء يعيق مثلا تطور الجنوب التونسي قدر وجود الحدود مع ليبيا , و لا الشيء يعيق تطور صناعة الجزائر قدر غلق السوق المغربية في وجهها و لا شيء يعرقل مسيرة التحرير الفلسطينية قدر و جود مصادر متنازعة متناحرة للقرار . و تبقى الجماهير العربية في ظل الدولة الإقليمية أتفرج على تبذير طاقاتها و غلق سوق

التشغيل في و جهها ووجودها لا يقل أهمية عن وجود سوق الإنتاج , و تفاقم ظاهرة البطالة نظرا لصغر أسواق التصريف الإقليمية الخ ... الخ ...و الناس كما هو معروف سائدون بالاسم , محكومون بالفعل , يرزحون تحت مختلف الأشكال الاستبدادية للدولة الإقليمية التي تجاهد للحفاظ على مصالحها أي على سلطتها داخل الرقعة الضيقة من أرض الوطن الأكبر ,لأنها تعلم أنه لا سلطة لها خارج هذه الرقعة , و هي تدخل بهذا في تناقض مع مصالح الجماهير الكادحة التي لا يمكن تصور إعتاقها من الفقر إلا بوجود سوق – تشغيل كبرى , و الإعتاق من الاستعمار الجديد و الصهيونية إلا بوجود " سوق سياسية " واحدة .

معنى هذا أن سيادة الناس الفعلية في أكبر عدد ممكن من الأقاليم ,هو الطريق إلى الوحدة – و السيادة مرتبطة أساسا بتحقيق الديمقراطية الحقيقية لا الاسمية التي " نتمتع " بها كلها , إلا أن علينا أن ننتبه هنا إلى ما ينجر عن هذا الاختيار من مضاعفات في شكل الدولة الوحدوية المستقبلية . فقد كان التصور لهذه الدولة هو الآخر بروسيا – بزماركيا أي دولة مركزية – استبدادية على نمط الدولة الإقليمية لكن بحجم أكبر , لا غرابة إذن أن نجد الوحدويين على رأ س كل التنظيمات الاستبدادية التي كلفت هذه الأمة هزائم لا تحصى و لا تعد , و التي أدت إلى تكريس التفرقة في الوقت الذي تستظل فيه بشعار الوحدة : و جود السوق ووجود النصر) أن تفرغ من محتواها من الداخل و هذا في اعتقادي رهان المستقبل الرابح .

لنفرض أن الجماهير العربية عبر تنظيماتها الذاتية النقابية , الجهوية , المهنية , الخ ...استطاعت فرض أولوياتها على الجهاز السياسي الإقليمي ؟لا جدال في أن مثل هذا الانتصار سيعيد توزيع صلاحيات هذا الجهاز إلى التحت و إلى الفوق , فالجماهير الناضجة ستقرر ممارسة حقوقها في التقييم الدائم و في المبادرة و في التنظيم الذاتي و هذا يعني نقل كثير من سلطات الدولة الإقليمية الاستبدادية إلى التجمعات المهنية , و النقابات , و الجامعات , و البلديات و المجالس الجهوية الخ, لكن الجماهير الواعية بمصالحها ستنقل صلاحيات الدولة الإقليمية إلى الفوق , أي إلى تشكيلات قومية مهنية , نقابة ثقافية تزيد من ارتباط الأقاليم و تتوج في الأخير ببرلمان عربي , و حتى في يوم من الأيام بحكومة كنفدرالية عربية تتضمن المصالح المشتركة لكن في ظل تمتع الجماهير العربية بالاستقلالية ذاتية واسعة النطاق , و هكذا يتم التخلص من الدولة الإقليمية التي يمكن أن تبقى كشكل وسط بين التنظيم القومي و التنظيم الذاتي للجماهير , لكن كشكل قلمت أظافره و لم يعد حاجزا يتصدى لطموحات و مصالح الناس .

لماذا يمكن القول أن الديمقراطية هي الطريق الوحيد و الرهان الرابح ؟ لأن الاستبداد و لو كان وحدويا شكل ماضوي للتنظيم السياسي , فهو لا يتعارض فقط مع مصالح الجماهير و إنما يتعارض أيضا مع حركة التاريخ , فالمجتمعات المعاصرة لا ترضى بدون الفعالية بديلا و هي لم تعد تقنع بالانتصارات الخيالية خاصة و أن التنافس و الصراع بين الأمم على أشده, و الفعالية اليوم تقتضي إشراك أكبر عدد ممكن من الأدمغة في أخذ القرار و في تنفيذه و في تقييمه و من ثمة " مأساة " الاستبداد , فهو يطمح لحل المشاكل بنجاعة , لكن النجاعة اليوم تتطلب المشاركة . و بما أنه لا يرضى بالمشاركة لأنه استبداد فإنه مؤهل لتعهد و تغذية اللافعالية , و هذه تزيد الطين بلة , فيتصلب الاستبداد لمواجهة الانجراف , فتزداد الأمور تعقيدا , و يدخل المجتمع في حلقة مفرغة لا يخرج منها إلا بكسر القيد الاستبدادي , و ما تتالي هزائم النظم الاستبدادية في أمريكا اللاتينية إلا مثال على عمل و قوة التيارات الاجتماعية للحضارة التكنولوجية الجديدة التي أصبحت تتعارض مع كل أشكال التنظيم الاستبدادي , و بما أن

الديمقراطية مشروع المستقبل , في كل المجتمعات فإن دور الوحدوي ركوب هذه الموجة العاتية و قيادتها لكي تنقل صلاحيات الدولة الإقليمية إلى الفوق و توعية الجماهير بما في هذا النقل الفوقي من تأثر على تحررها في الوقت الذي تعمل فيه " تلقائيا " على " امتصاص " الصلاحيات التحتية .

معركة التكنولوجيا

لا جدال أن الهزائم التي منينا بها تجاه اسرائيل قد أخرت المسيرة الوحدوية , إلا أن علينا أن لا ننسى الدور الإيجابي الذي تلعبه إسرائيل , إذ تصفي كل مرة القطاعات الهشة و اللافعالة المسؤولة عن الهزائم , و بالتالي فكل انتصارات إسرائيل هزائم لأنها ترفض بصفة أو بأخرى مستوى المواجهة المقبلة , و هكذا إلى أن تصل إلى مرتبة القيادة الشرائح الجديدة القادرة على رفع التحدي و ربحه . و قد تستغرق عملية الانضاج هذه عشريات أخرى إلا أن النتيجة مضمونة رغم الثمن الباهظ الذي قد نضطر لدفعه , لا لأن إسرائيل جزء من الحضارة التكنولوجية فحسب و إنما للطبيعة البارانوية (مرض معقد الاضطهاد) للصهيونية , فقد أعدت لنا قنابل نووية ميدانية تطلق من المدافع (بتعاون مع جنوب إفريقيا) , و لا بد أن لها قائمة بالمدن العربية المؤهلة للضرب النووي بداية ببعض المدن الصغرى (للارهاب) ووصولا إلى بعض عواصمنا في حالة ارتفاع المقدرة العسكرية و الخطر الساحق الناتج عن تحالف البار انويا و التكنولوجيا المتقدمة غير قابل للمساومة . لذلك يجب أن يصبح هاجسنا الأوحد ربح المعركة الحضارية الرئيسية معركة التكنولوجيا المتقدمة الجديدة و المرور مباشرة من وضعيتنا كأمة زراعية متخلفة إلى أمة تنتج و تهضم تكنولوجيا القرن الواحد و العشرين .

معنى هذا أن الوحدوي الجديد مستقبلي مطالب باللف حول الحائط الذي مازال الوحدوي القديم يحاول عبثا كسره أو القفز فوقه .

فالوحدوي الجديد مستقبلي النظرة و ليس ماضويا , و هو لا يعتبر وجود الأمة أمرا بديهيا ,و إنما في تنافس مع الإقليمي و العقائدي لبلورة الإحساس الانتمائي الغالب و الفعال , و هو لا يطمح لتعميم الشكل الاستبدادي للدولة الإقليمية , بل يريد نهاية هذا الشكل بتمكين الجماهير من أكبر قدر ممكن من السلطات لكي تفرض مصالحها داخل و خارج الحدود , و هو لا يعتبر أن المعركة السياسية من أجل فرض التشكيلات الفوقية أولوية , و إنما يركز على ضرورة ربح المعركة الحضارية برفع مستوى إدماج و إنتاج التكنولوجيا المستقبلية لتقليم أظافر إسرائيل سلما و حربا . و هو في كل هذا علمي في التصرف يحاول اكتشاف الموجات و التيارات الحاملة ليمتطيها و يوجهها , و هو يختلف بهذا كل الاختلاف عن العاطفي القديم الذي يجهل و يتجاهل دور العوامل الموضوعية المتعددة التي لا يمكن تجاوزها سحريا أو بالعنف و حدن.

و يبقى القناعة مشتركة بين كل الأصناف الوحدويين : نكون بالوحدة أو لا نكون , و لا ريب أن أمة توضع أمام خيار كهذا و إن طال في السراديب لواجدة طريقها , و بما أنها تريد الحياة , فلا بد أن يستجيب القدر ... على شرط أن نعينه شيئا ما .

لا جدال أن الفكر القومي أصيب في السبعينات و خاصة في الثمانينات بانتكاسة مخيفة لا في تونس فحسب و إنما في كل الأقطار العربية , و لا جدال كذلك أن بعض القوميين المتخلفين يتحملون قسطا من المسؤولية . و قد نتج عن هذا : أن تكرست الإقليمية الضيقة , فأصبح اختراق الحدود (وخاصة حدود الحواجز النفسية) بين الشعوب العربية أمرا متزايد الصعوبة . و الإنسان العربي هو دائما الضحية المختارة التي تدفع ثمن أخطاء السياسة و الإيديولوجيا , و زادت حروب ملوك الطوائف الأنظمة من انكماش شعور الانتماء إلى أمة واحدة . و لم تجد مثالية الشباب ما تتشبث به غير حلم تحقيق ... الأمة الإسلامية , و كأن تقصي الأصعب ينجح حيث فشل تقصي الصعب .

و لم أساير أي من التيارين و بقيت متشبثا بالفكرة القومية و بالمشروع القومي رغم الانتكاسات , لأسباب عاطفية و سياسية و فكرية معقدة . إلا أنني اكتشف بالممارسة لا عمق الهوة الفكرية التي تفصل بيني و بين الإقليميين و الاسلاميين ,و إنما عمق الهوة الفاصلة بيني و بين الكثير من دعاة الفكر القومي . و تبلورت الاختلافات حول ثلاثة محاور رئيسية , رأيت فيها دوما سبب الفشل الذي جعلنا نفقد الثقة بأنفسنا و مستقبلنا .

بين الشوفينية و الأممية

من الصعب أن يتصور من لم يعش منا هزيمة 1967 و هو مهاجر في مدن الغرب عمق الإهانة التي شعر بها كل إنسان عربي آنذاك , فقد خيل لنا يومها و نحن نقرأ يوميا صحف الغرب و نسمع أخبار الشماتة في تلفزته أننا أحقر أمم الأرض قاطبة . لم يكن آنذاك للغربيين من حديث آخر غير جبن العرب و تفاهة العرب و عجز العرب , الخ ...و كانت كارثة نفسانية و زلزالا دك حصون الأنفة و الكرامة , و خرجنا من هذه الكارثة و أرواحنا أشلاء دامية كتلك الأشلاء المبعثرة في سيناء و الجولان . و كان تحامل الغرب و الصهيونية علينا بغيضا كريها حقيرا في حد ذاته , و كانت العنصرية التي تجلت آنذاك بوضوح ضد أمة بأكملها مثيرا للحقد , و حقدت مع كل الذين حقدوا , و كنت على باب قوسين من الوقوع في فخ العنصرية المضادة , و لم أكن واعيا آنذاك بأنها ليست هي الأخرى إلا نوعا من العنصرية .

و رافقني الحظ , لأنني لم أصب بالمرض الفتاك , بالداء العضال و كان الفضل في ذلك .... للغربيين و على وجه الخصوص لليهود أنفسهم .

كان من الطبيعي في تلك الأيام العصيبة أن نتجند كلنا داخل الجامعة و خارجها للدفاع عن كرامتنا و عن حق الشعب الفلسطيني . و بعث يومها داخل الجامعة سترازبورغ , حيث كنت مع الكثير من العرب أطلب علما عجزت الأمة عن توفيره , جمعية سميناها جمعية السلام و العدل في فلسطين . و كانت مسرح نشاطها للقيام باعلام مضاد للإعلام الصهيوني الرهيب في المنطقة و لتجميع الدعم المادي للمقاتلين الفلسطينيين الذين التقطوا البندقية عشية استسلام الأنظمة و كان ذلك أضعف الإيمان .

و دهشت و أنا أكتشف أننا لم نكن نحن العرب وحدنا في خندق مواجهة الأخطبوط الصهيوني , فقد تجند للدفاع عن قضيتنا عدد كبير من الطلبة الغربيين , و كان من بينهم يهود , و كان شكي في إخلاص هؤلاء عميقا , بل كنت أتصور أنهم يتجسسون على جمعيتنا , و كأنها خطر ما حق على الصهيونية , و الحال أنها تكن تزن شيئا , و اضطررت في الأخير أمام الثبات الدائم و الدوام على مناصرتنا إلى الاعتراف بأنه و إن كانت أغلبية اليهود صهاينة و أغلبية الغربيين يكرهون العرب , فإن هناك قلة من الناس

تضع قيم العدالة و المساواة و نصرة المظلومين و المضطهدين فوق قيم " أنا و ابن عمي على الغريب " , " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " , " و الأقربون أولى بالمعروف " . و بدا لي أن هذه القلة هي شرف الإنسانية لأنها تضع قيما أخلاقية سامية فوق القيم العنصرية . و لم أستسلم بفضل هؤلاء الناس إلى العنصرية المضادة , و كان لهم الفضل العظيم في تكوين فكر سياسي ناضج عندي يفرق بين اليهودية و الصهيونية , بين العنصرية و العنصرية المضادة , بين القيم الشوفينية و القيم الإنسانية . و لم يزدني هذا إلا إيمانا بقوميتي , لكن بمنظار آخر . فقد استبان لي أن على الدفاع عن حق الشعب الفلسطيني في الوجود , و الدفاع عن حق الأمة في الكرامة و الوحدة و الأمن و الرخاء , أن يدخل في إطار عملية تحرير الإنسان ككل , و من ثمة و جدت من الطبيعي أن أكون قوميا عربيا , و أن أنتصر في نفس الوقت لحقوق الأقليات التي تعيش بين ظهرانينا سواء كانت أقليات عرقية كأفارقة جنوب السودان , أو قومية كأكراد سوريا و العراق , أو لغوية كالبربر في المغرب العربي أو دينية كالاقباط و الموارنة في مصر و لبنان الخ ...

و كنت ألمس كلها اقتضت الحاجة امتعاض القوميين من مثل هذا التوجه " المثالي " " المتناقض " , " اللامسؤول " و كنت أشعر أن تركيز الأدبيات القومية على أن العروبة لا عنصرية أولا تكون , مجرد شعار الاستهلاك كجل الشعارات , و أن النواة الصلبة التي كانت تختفي وراء سحابات الدخان اللفظية عنصرية مضادة قوامها إدارة الأخذ بالثأر عسكريا و حضاريا , من عنصرية الصهيونية و عنصرية الغرب . و كنت و لا أزال واعيا بأنه طريق مدمر للجميع و خاصة للعرب

و لربما كان موقفي هذا نتيجة عوامل متداخلة و بالغة التعقيد ذكرت منها دور و فضل زملائي من غربيين و يهود , عندما كانوا في صفنا باسم قيم تتسامى على قيم رد الفعل الجماعي و الغرائزي , و لكنني واع اليوم بأن أهم عامل في بلورة قومية لا شوفينية لا عنصرية هو ثقتي العميقة بمقدورات الأمة العربية فقد عبت دوما على القوميين المتشنجين مغالاتهم مثلا في تجميد الماضي , و الحال أنني كنت أتعامل به بصفة نقدية موضوعية تعتبر السمين فتأخذ به , و تكتشف الغث فترميه جانبا . و لم أكن أفهم أن هذه المغالاة هي في الواقع نتيجة ثقة مهزوزة بالنفس بالأمة ككل . و كانت ثقتي العميقة بالنفس و بالأمة هي التي تجعلني أتعامل مع المواضيع المطروحة أكانت في عالم الفكر أو في عالم الممارسة السياسية , بكثير من ... الوقاحة , و لم تكن هذه الثقة تجاوزا خياليا ساذجا , لواقع لا يبعث على التفاؤل , و لكنها كانت نتيجة وعي بالعظمة الحقيقية لهاته المجموعة القديمة , الفتية , المتجددة . أليست أمتنا العربية ووريثة أعرق الحضارات قاطبة , حضارات مصر و بابل و فينيقيا الخ ... ألم تنشر دينا من أهم أديان البشرية ؟ ألم تحتل تسعة ملايين كيلومتر مربع من الأرض ؟ ألم تربح مئات المعارك حتى و أن خسرت منها الكثير ؟ ألم تساهم بقسط كبير في الحضارة البشرية , ألم تنجب للدنيا محمد و عمر و أبو ذر و المعري و الحلاج و ابن نفيس و ابن عربي و غيرهم , ألم تكسر شوكة أغلب الغزوات التي تعرضت إليها ؟ ألم ترمي كامل المستعمرين خارج حدودها ؟ ألا تقاوم بعناء و اصرار سرطان الصهيونية و الامبريالية رافعة مستوى المواجهة معها معركة بعد معركة ؟ أليست بصدد تجنيد عشرات الملايين من الأدمغة للدخول في أهم معركة من معاركها الجديدة التكنولوجية و الحضارية ؟ ألا يختلج في صدر عشرات الملايين من أبناءها و جنودها مشاعر نفاذ الصبر و الغضب من وضعية حالية يدركون أنها دون وزنهم الحقيقي الطبيعي في هذا العالم ؟ ألا نعرف تصاعد الوعي بحقوق الإنسان العربي و مسؤولياته ؟ أليست الأمة بصدد الاستعداد عبر مئات التجارب و أغلبها سلبية لتحقيق جل أحلامها ؟

أليست هذه المعارك الطاحنة بيننا , و كل هذه الهزائم و هذه التراجعات , الثمن الباهظ الذي ندفعه للحركة ؟ أليست الأزمة جزءا من التطور ؟ و هل يمكن أن تتصور تطورا بلا أزمة ؟ و من ثمة جاء تفاؤلي و كان الطبيعي أن أكتب كتابا عن تخلف العرب و أن أختار له عنوانا استفزازيا : لماذا ستطأ الأقدام العربية أرض المريخ ... مريخ الديمقراطية و حقوق الإنسان و الإبداع الحضاري و من يدري ... مريخ الكوكب

حقوق الأمة و حقوق العربي

و كان الاختلاف الثاني بيني و بين القوميين , و لم يكن هذه المرة أيضا نظريا , فأتت لن تجد في الأدبيات القومية إلا ما يثلج الصدر و ما يقنعك بأن القومية هي أولا و بالذات عملية تحرير الإنسان العربي , و أن هذا الإنسان هو هدفنا الأول و الأخير الخ ... لكن شتان بين القول و العمل , فقد تعاملت الأنظمة القومية مع حقوق الإنسان العربي بنفس الوسائل التي تعاملت بها الأنظمة الإقليمية و الرجعية : تعذيب , اعدامات , محاكمات صورية , انتهاك حرمة القضاء , الخ ... الخ ...و لربما فاقتنا في كثير من هذه التجاوزات الخطيرة , و لا نستثني جما ل عبد الناصر نفسه رغم أنه رفع بلا جدال رأس العرب في السنوات الأخيرة من الخمسينيات و في بداية الستينات , و مثل بالنسبة للكثير بوادر الصحوة العربية و ليس من المبالغة أن نقول إن من أهم أسباب فشل الناصرية حدها للحريات أي لطاقات الخلق و الإبداع , و فرضها لوصاية ثقيلة على المجتمع من طرف بيروقراطية عسكرية أظهرت مدى عجزها في جوان 1967 .

و من المعروف أيضا أن انتهاكات أبسط حقوق الإنسان مسؤولية عن تنامي التيار الإسلامي , الذي اكتسب الكثير من الشرعية و العنفوانية , من جراء التعذيب الوحشي الذي مورس ضد الإسلاميين في السجون الناصرية . و الحال أنه كان بالإمكان تطويق الظاهرة بجعل الفكرة القومية مرادفة لا للتحرر من الاستعمار فحسب , أو لمواجهة تطويق الظاهرة الصهيونية أو لتحقيق وحدة الطاقات العربية , و إنما مرادفة لمفاهيم الديمقراطية و سلطة القانون وهيبة القضاء , و حرية الرأي و التقييم الدائم لكل الناس و المؤسسات لرفع مستوى الفعالية , هذه الفعالية التي نقصتنا دوما في مواجهتنا مع أخبث و أقسى و أذكى عدو واجهناه طوال تاريخنا .

و لم يكن من السهل إقناع الكثير من المتشبعين بعقدة إيقانوق أن الغاية لا تبرر الوسيلة , و أنه ليس من شأن الديكتاتورية و السلطوية و غياب الحريات أن تعجل بولادة الديمقراطية و المشاركة و الحريات , و أن كل أسباب القوة في المجتمعات المعاصرة , و أن علينا أن نأخذ دروسا من إسرائيل في ميدان ترتيب الجبهة الداخلية . فالمجتمع الإسرائيلي بدمقراطيته و تقييمه الدائم لكل مؤسساته , و بالتداول السريع على المسؤوليات (1) (من المعروف مثلا أن رئاسة أركان الجيش في إسرائيل لا تمارس من طرف نفس الشخص أكثر من أربع سنوات , و ذلك لضمان التجدد و استخدام كل الكفاءات في ميدان لا يتحمل الخطأ).

و إشراك كل الطاقات بدون إقصاء , و بالتعايش الصعب لمختلف مكوناته السياسية , منتصر بالضرورة و بصفة دائمة على مجتمعات تكبلها أنظمتها و تقصي و تقمع طاقاتها الحية .

و احترام حقوق الإنسان ليس ضعفا أو سذاجة , و إنما هو على عكس هذا مصدر كل قوة , فهو جزء من عقلية المشاركية , هاته العقلية التي تمكن من التوصل إلى أقصى قدر ممكن من الفعالية بإشراكها للطاقات و حسن استغلالها في مؤسسات يخضع فيها الأفراد لقوانين التداول و التقييم و بالتالي فإن مجتمع كهذا هو بالضرورة أقوى و أكثر تماسكا و تعاضدا , و النظام السياسي

الذي يفرزه أكثر متانة و شرعية , و قدرة مواجهة خصومه في الداخل و الخارج , لكن في إطار احترام القانون و احترام الحقوق الأساسية للإنسان . فالاستبداد لم يكن و لن يكون يوما مرادفا للقوة أو الفعالية , لأنه شكلهما المرضي . لا شك أن أمتنا ستصل إلى المريخ يوم يكتب على واجهة قصور الرئاسة بالأحرف الضخمة التكذيب القطعي لبيت شهير , و خاصة لما تستشري القناعة بصحة هذا التكذيب إنما العاجز من يستبد

شروط الوحدة و ركيزتها

كان رأيي أن نموذج الوحدة العربية لم يعد الوحدة الألمانية أو الإيطالية و إنما الوحدة الأوروبية المعاصرة , فما هم الأوربيين رغم اختلاف الأنظمة بين ملكية و جمهورية رئاسية أو برلمانية , يبنون وحدتهم لبنة لبنة : سوق اقتصادية , برلمان استشاري , محكمة أوربية عليا , جواز سفر أوروبي , إنجازات تكنولوجية مشتركة كالمفاعل الأوروبي النووي , أو كالطائر الفضائية هورمس الخ ...

ما الذي جعل التوحد التدريجي المنطقي ممكنا , خاصة بعد حربين أهليتين مدمرتين سميتا تجاوز الحرب العالمية الأولى و الثانية ؟

و الجواب بديهي : إنه من جهة اقتناع الأوربيين بعد تجربتين مريرتين بلا جدوى التناحر و من جهة أخرى انهيار النظم الدكتاتورية النازية و الفاشية منها على وجه الخصوص , و انتصار الديموقراطية التي وحدت بين الشعوب و الأنظمة على اختلاف أشكالها الظاهرية .

و من ثمة اعتقادي بأن الوحدة العربية لن ترى النور إلا بعد إرساء النظام الديموقراطي في مختلف الأقطار العربية أكان هذا النظام ملكيا دستوريا أو برلمانيا , أو رئاسيا مباشرا ,فمن طبيعة الأنظمة الديموقراطية أن تتفاعل مع حاجيات و طلبات شعوبها ومن طبيعة الأنظمة الديموقراطية أن لا تبحث عن السيطرة و الهيمنة و التسلط , و إنما أن تبحث عن نقط الإلقاء.

و لا شك أن انتصار الديموقراطية العربية كفيل بإرساء دعائم دولة الوحدة لبنة لبنة و على مراحل كأن تتهيكل المناطق الطبيعية الأربعة في إطار دول فيدرالية : دولة المغرب العربي , دولة مصر و السودان , دولة الهلال الخصيب , دولة شبه الجزيرة , على أن تجمع هذه المناطق الأربع في كونفدرالية , تتمتع بصلاحيات متزايدة و ذلك في إطار تمتع الفيدراليات و الأقطار و داخلها الجهات و البلديات , بصلاحياتها الخاصة على مستواها الخاص . و هكذا يستقيم البناء بأكمله على قاعدة صلبة متينة : مصلحة الإنسان و مصلحة المجموعة الوطنية و القومية .

هذه قوميتي و هذه هو تصوري للوحدة العربية , و هذا هو اجتهادي و قد ينبثق المستقبل إنه اجتهاد خاطئ , و إن الوحدة ستتحقق بالحديد و النار و في إطار حروب رهيبة مع الغرب و الصهيونية , و إن نظاما ستالينيا سيبرز ويكسر بمنتهى العنف شوكة الإقليمية و الرجعية , و إنه سيستأصل جذور القبلية العربية بالإرهاب و أن حقوق الأمة لن تكون مرادفا لحقوق الناس و الإنسان بل إن على هذه الحقوق أن يضحى بها من أجل إعلاء راية الأمة .

و أقول إن تحقيق هذا السيناريو لن يلغي بل سيكرس الإقليمية و القبلية و الاستقالة الجماعية و الشخصانية وسيطرة الأقلية السياسية و انتهاك حقوق الاقليات و الشعوب العربية و الناس و الإنسان و إن الثمن الباهظ الذي سيكلفنا هذا السيناريو سيؤدي بمؤرخ المستقبل إلى التساؤل هل كان الدواء أمر من الداء ؟

الـــــبـــــــاب الـــــــرابـــــــع

فـــــي زنـــزانـــة الـــــماضـــــويـــــة

نحن نبحث الساعة في هل الأقطار العربية ناهضة أم غير ناهضة . ونبحث في ما تتناوله لفظة "نهوض " من المعاني و ما تقرره من النتائج .

إذا كان النهوض بالتلمذة . و ما يظهرها التلميذ في بعض الأحايين من المقدرة على الاقتباس السطحي . فالأقطار العربية إذن ناهضة .

إذا كان هذا النهوض بترقيع البالي , الأقطار العربية أحرى الأقطار بالإعجاب .

إذا كان النهوض بأن يرتدي شعب ثوبا فصل لشعب آخر ,فالأقطار العربية قد بلغت المحجة .

إذا كان النهوض تبييض القاتم . و تكليس المتداعي . و ترميم المهدوم , فالأقطار العربية قد وصلت إلى أوج المجد و السؤدد.

إذا كان النهوض أن ننظر بمكبرات الجهالة , فنرى النملة فيلا و البعوضة جملا . فالأقطار العربية قد نهضت حتى ناطحت المجرة .

إذا كان النهوض بالانصراف على النبيل لصعوبته ,و الاستسلام إلى التافه لسهولته , فالأقطار العربية قد أصبحت في مأمن من تقلبات الزمان .

و لكن إذا كان النهوض بالاختراع و الاكتشاف ,فالأقطار العربية ما برحت هاجعة , هذا إذا نظرنا إلى الاختراع و الاكتشاف بعيني المشغوف بالمدينة الغربية و ما فيها من مستحدثات الآلية .

و إذا كان النهوض بالروح و الجوهر . فالشرق العربي ما برح بروحه و جوهره حيث كان منذ ألف سنة

جبران خليل جبران

"عاش الشقي على رسم يسائله"

في سبتمبر 1988 تلقيت دعوة من جامعة طرابلس لحضور مؤتمر طبي موضوعه : الطفل في الطب العربي , و قبلت الدعوة بكل سرور لسببين :

1– كنت أود عرض أبحاثي عن إصابات الدماغية عند الطفل المعاق , و تبادل الرأي مع الأشقاء العرب في هذا الموضوع الذي يشغل بالي منذ سنوات , لما له من تأثير هائل على الصحة العمومية .

كانت أول فرصة لي لعرض عمل علمي بالعربية في مجمع أطباء عرب في عاصمة عروبية . لذلك حزمت أمتعتي بكثير من التفاؤل ... و رجعت من طرابلس أزفر من الغيظ مقسما بأغلظ الإيمان أنني لن أكرر مثل هذه الغلطة ....فقد كانت صدمة لي لأن المؤتمر أفسح المجال للأبحاث التاريخية كنت من بين القلة التي قدمت عملا ميدانيا , و لقائل أن يقول : أما كان الأمر طبيعيا , بما أن موضوع المؤتمر هو الطفل في الطب العربي ...نعم و على العين و الرأس المصيبة أن أي من العروض لم يكن يتسم بالحد الأدنى من الجدية العملية , كان الزميل (الشرقي) يتسلق المصدح و راء الزميل (الشرقي) يقول نفس الكلام معط غير بسيط (اسم الطبيب و اسم المريض) و كانت هيكلية الخطاب كالتالي : 1– الطبيب العربي العظيم فلان قال و أكتشف و أثبت و برهن .

2– كان هذا الاكتشاف أعجوبة العصر و الزمان .

3– أتى الغرب ليغرف من هذا الاكتشاف , و لولا عظيمنا هذا لما تقدم طب الأطفال خطوة واحدة .

4– أضف إلى هذا إنسانيتنا الهائلة و رحمتنا التي لا تعرف حدودا بالطفل كما يثبت ذلك قول بن عمر و أبو الشمقمق . هو ما يميزنا عن تصرفات الغرب الهمجية في اتجاه الطفل في نفس العصر .

و كان كل محاضر همام يعود إلى قواعده سالما وإلى داره فرحا مسرورا بهذا النصر الساحق الذي أحرزه على الغرب الذي لولانا لما كان إلا ... شرقا.

و توج كل هذا في آخر يوم بمحاضرة علمية ألقيت في شكل ...قصيدة حفظت بيتا منها لأدلل به على تفاهة هذه العقول و لفظته ذاكرتي رغم كل المحاولات,و أذكر أني كنت عشيتها أرتعش من الغضب في حين كان زميل تونسي جالسا بجانبي يخفي رأسه في المقعد ليضحك دون أن يتفطن له أحد .

كنت غاضبا لسببين :

1– رغم أني لست متخصصا في تاريخ الطب , أعلم أنه لا يجوز الحديث علميا فيه إن لم يكن المرء متضلعا في اللغات القديمة كالإغريقية و اللاتينية إضافة إلى الألسنية و التاريخ العام . و الطب طبعا , فتاريخ الطب اختصاص لوحدة يدرسه في جامعات

الغرب أساتذة متخصصون لا هم لم إلا دراسة هذا التاريخ . أما مؤرخونا العرب فقدكان جهلهم لكل هذا فاضحا . يقرئون نصوصا بتسرع و يقرئونها دائما بنية إثبات التفوق العربي , و يأتون للمؤتمرات بخطب لا بأدلة .

2– أدى بي اعتزازي بعروبتي و إيماني بعظمة أمتي دوما إلى ممارسة القراءة النقدية فالقراءة التمجيدية ليست إلا دليل الضعف و عقدة النقص و محاولة تجاوزها الطفلاني .انظر إلى الغربيين إنهم لا يفعلون منذ عصور النهضة سوى نقد تراثهم و تجاوز التجاوز في حركة بناء و هدم لا تفتر , و عن هذه الحركية تولدت نهضتهم .وهل من سبب لخمولنا الفكري سوى هذا التصرف الذليل المستكين تجاه التراث و محاولة تجنيده دوما لاقناع أنفسنا بأننا أصحاب فضل والحال أننا لا نزال إلى يومنا هذا شحاذين في سوق الحضارة ؟

عدت إلى تونس إذن كثير التشاؤم ومقتنعا بأن معركة التحرر من التراثية (و لو أنها مربوحة مسبقا) ستكون شاقة وطويلة , وقد لا أفرح في حياتي برؤية انتصارها النهائي .

والمضحك أن بعض الطلبة الذين يعرفون دعوتي الدائمة إلى التعريب كانوا يأتون بمشاريع أطروحات لأشرف عليها لنيتهم اعتماد العربية . لكنني كنت ارفضها دوما لان أصحابها كانوا يختارون دوما موضوعا تاريخيا لا شيء إلا للعودة إلى المعزوفة الأزلية : إثبات أولوية العرب في اكتشاف مرض الزهري وعلاج الربو الخ ...كنت اعتذر دوما بجهلي بالتاريخ , محاولا إقناعهم بالتعرض للمشاكل العاجلة حتى تكون العربية لغة الأبحاث الميدانية العلمية الرائدة. وكانوا ينصرفون و يبحثون عن أستاذ آخر . و لا داعي لان ألاحظ أن هذه الاطروحات قدمت ونوقشت وتم فيها إثبات أولوية العرب في علاج الربو واكتشاف كل شئ ... وعاش من لم يعرف قدره .

مع هذا فقد وجدت نفسي بصدد الإشراف على أطروحة بالعربية وعن تاريخ الطب العربي بعد سنوات من الرفض الكلي لمثل هذه " الأبحاث " والواقع أن الطالب الذي طرق باب مكتبي بمشروع الأطروحة (مرض الصرع عند ابن سينا) عرف كيف يستغل بذكاء إحدى "نقاط ضعفي " , فقد كان يعلم باهتمام مرض الصرع الذي كتبت فيه العديد من الأبحاث لذلك كان مقتنعا أنني لن ارفض المشروع بل وسأمشي فيه دون تردد وكان له ذلك .

إلا أنني وضعت شروطا مجحفة إلا لدراسة واتفقنا بعد جدل و نقاش على أهم نقطها . وكان حافزي للقبول الفضول العلمي وخاصة إمكانية البت علميا في سؤال مدقق واضح , لا مكان فيه للتعميم والتمويه .

بما أن الإيديولوجيا التراثية تدعي أن إبن سينا عظيم زمانه وهو صاحب فضل لا محدود على تطور الطب بصفة عامة والطب الغربي بصفة خاصة فلنتثبت من صحة هذا القول بدراسة مساهمتها في تطور معارفنا في مرض تصادف أنني مختص به وملم بدقائقه وتطوره عبر التاريخ.

وقد رسمت للطالب منهجية صارمة تتلخص في :

– دراسة تاريخ المرض منذ القديم .

. قراءة مقالة الصرع في " القانون " بكل تمعن وتحليلها تحليلا علميا دقيقا .

. مقارنة ما ورد فيها مع كل ما كتبه قالينوس للتأكد من أنها تحمل الجديد .

. دراسة تطور المرض بعد إبن سينا, ومحاولة إيجاد صلة بين ماكتبه , وها قد وقع اكتشافه من بعد لا ثبات "فضل " إبن سينا على تطور المعارف .

ولقائل أن يقول إنه لا يجوز الحكم على إبن سينا بالحكم على جزء من أعماله , و إنه يجب الحكم على كل ماكتب . صحيح لكن هل قام التراثيون بمثل هذا العمل قبل إصدار حكمهم ؟ طبعا لا , لذلك فإنني أقدم لهم المنهجية , و أهيب بهم إلى مثل هذه القراءة في كل فصول " القانون " , و لا شك أنهم سيكتشفون أن إبن سينا و إن لم يكن جدالا فإنه لم يكن أيضا إلا طبيبا أخطأ في أغلب ما أورد , فلا هو أجاد وصف مرض الصرع , و لا هو فهم أنواعه و لا هو فهم أسبابه , و لا هو أتى له بدواء مقنع , و هذه استنتاجات الأطروحة و ذلك بعد تمحيص دام أشهر لمقالة واحدة في " القانون " .

1. مفهوم مرض الصرع عند الأطباء العرب خاطئ و لم يكن تمهيدا لما قيل فيما بعد , و من خلال الدراسة يمكن القول بأن إبن سينا كان يعتبر الصرع يرادف النوبة الكبرى و نحن نعرف مدى تعدد الأصناف السريرية لهذه النوبة .

2. التصريف الذي قام به جالينوس لم يقع تغيره حتى منتصف القرن التاسع عشر فالطب العربي لم يضف شيئا يجعلنا نقر به إذا كان منعرجا في تصنيف المرض .

3. نظرية الأخلاط الأربعة جعلت إبن سينا و غيره يتصور وجود أربعة أصناف من الصرع و الحال أنه يستحيل من أعراض بسيطة كالزبد مثلا تشخيص هذه الأنواع .

و نلاحظ من جهة أخرى أن إبن سينا قد أصاب في بعض النقط و التي أثبتت اليوم بالتجارب و الدراسات وهي :

أ. الصرع السهل العارض للأطفال الذي يزول بالبلوغ .

ب . نظرية التهيؤ للصرع و قد نسبها قاسطو ليتسو سنة **1772** و الحال أن هذه النظرية قد وضعها إبن سينا منذ القرن العاشر قد أصاب أيضا بن سينا في وصفه للأسباب المحركة للصرع و لا زال بعضها يتماشو الصرع الجديد

و في ميدان المعالجات نجد إبن سينا قد وفق في الوقاية من حدوث النوبة و لكن الوصفات التي وضعها لا تجعلنا نقرر أن لولاها لما أكتشفت جميع الأدوية المضادة للصرع . فهي مغالية أحيانا في الخيال و لا علاقة لها مطلقا بمفاهيمها .

لا شك أننا سنجد صعوبات متعددة للتقرير بأن ابن سينا أو غيره من الأطباء العرب قد أضاف الكثير إلى مقولات القدماء في هذا المرض .

لنستعرض قبل إبداء رأي حاسم في الموضوع أهم مراحل تصور الطب القديم للمرض مع العلم أنه لا يمكن فصلة عن تصوره لدور الدماغ بصفة عامة .

و نحن ندين لأبقراط **400** ق .م بأم فكرة في تاريخ تطور المفهوم فالدماغ بالنسبة له هو المسؤول عن مرض الصرع الذي لا علاقة له بالأمور الغير محسوسة , و هو نتيجة تغيرات في الدماغ , نلاحظ أن أبقراط كان يتصور الدماغ موطن المادة الرطبة و اللزجة و أنه يتصور أن دوره يتلخص في تخليص الرأس من الرطوبة .

و قد شكل أر سطو (**322 . 384**) تقهقرا و تراجعا بالنسبة لأبقراط إذ قرر أن القلب لا الدماغ مركز الفكر .

ثم جاء من بعده جالينوس (129 ،199) و قد لعب هذا الطبيب كما هو معروف دورا هائلا في تطور تفكيرنا و قد كان يشرح الدماغ و يحث طلبته على الاعتماد على الحس (وهو ما نسيه أتباعه في القرون الموالية) و قد تعرف جالينوس على الأعصاب القحفية ووصف سبعة منها و اعتبر أن المخ و هو موضوع الشعور و المخيخ و هو مصدر الحركة و نحن مدينون له أيضا بنظرية الصرع التي نقلها ابن سينا بحذافيرها , و لا حرج في هذا . بما أن هناك نظرية مخطئة كليا . نحن نعلم الآن أن الصرع لا ينتج عن سدة في المجاري المائية للبطينات و إنما هو نتيجة إختلالات كهربائية في الخلايا العصبية نفسها التي تحيط بهذه البطينات و نعلم أيضا أن الأخلاط الأربعة لا نصيب لها من الصحة و بالتالي فإن كل الوصف المعتمد عليها لا غ . نحن نعلم أن الصرع لا ينتج إلا عن إصابة الدماغ و من ثمة فإن ابن سينا خلط بين أنواع المرض التي يمكن أن تصيب عضو حركيا و بين مرض هذا العضو و ذلك لعدم معرفته بالمرض .

نحن نعلم اليوم مدى خرافية الوصفات الطبية التي تقدم بها ابن سينا كدواء الأشقيل و شرب زبد البحر مرتيين كل يوم و مخ ساق الجمل وغير ذلك من التدابير .

نحن نجهل إلى يومنا هذا الأسباب الكيمياوية الخفية وراء الاستفراغ الكهربائي المفاجئ لمجموعة الخلايا العصبية و المتسبب في الصراع ألا أنه من المستبعد أن تكون رطوبة الدماغ أو الأخلاط اللزجة هي الأسباب التي تبحث عنها وتأتي الآن إلى الجزء الثاني من السؤال هل نستطيع اعتمادا على معرفة تطور المرض الإقرار بأن ابن سينا ساهم على الأقل في فتح ثغرة تدفق منها العلم الجديد .

لنتوقف قليلا عند أهم نقط تطور الأفكار في مرض الصرع :

. رفض فيزال(1514 ،1564) نظرية البطينات كما كان للفكر و الإحساس و المخيلة اعتمادا على التشريح لدماغ الإنسان

. وصف دورتوس (1527 ،1586) الصلة بين الصرع و الكسر الجمجمي ووصف غيره العلاقة بين الصرع و مرض الزهري و الحمة .

قد كان ستجيوس في القرن 16 أول من أعتبر الصرع مجرة ظاهرة لمرض آخر كالحصبى و التسمم الخ ...و أكد على أن الصرع ينتهي بانتهاء المرض المسبب .و ندين لأرسطو من نفس الحقبة التاريخية بفهم الصلة التي جهلها إبن سينا بين الأعراض التشنجية في عضو ما و الصرع كإصابة دماغية ثم تقدمت تفاسير المرض بمحاولة بلانكارت (1702، 1850) كان يتصور النوبة كنتيجة انفجار داخل المخ لكن مفهومه لإنفجار الأرواح الحيوانية بقي غامضا .

و أتى مالبيقي بتصور جديد حيث قال بأن المخ مكون من غدد تفرز حركة عصبية تتبع الأعصاب و تصل إلى العضلات و ينتج الصرع من خلل في عمل هذه الغدد.

و قد قاوم هالبي (1708، 1777) فكرة ارتجاج المخ إبان النوبة .

ثم وقع الحسم في الموضوع باكتشاف قابلية المخ أن يكون مصدر كهرباء و ذلك من قبل فريتش و هتزيج في نهاية القرن 19 . و بعدهما وقع التعريف المعاصر لمفهوم الصرع من طرف جاكسون و اكتشف دواء الجردينال سنة 1960و هو أول دواء فعال لهذا

الداء تلك هي بعض ملامح الطريق الطويل نحو إيجاد تصور صحيح و علاج ناجع ضد هذا المرض و هو طريق لم ينتهي بعد لأن المرض مازال يخفي عنا الكثير من أسراره .

إن القراءة المدققة لمقالة إبن سينا و ما جاء في الدراسة لا يوحي بشيء يجعلنا نقرر أنه لولا هذه المقالة لما تقدمت معرفة هذا المرض بل بالعكس إننا نكتشف أن رفض باراسلز و فيزال لنظرة جالينوس و إبن سينا هو الذي أعاد للطب حركيته و لنتصور الكارثة التي كانت تحل بنا لو بقي العلم يتعيش على نظريات إبن سينا و جالينوس و من ثمة نصل إلى استنتاج ألا و هو أن إبن سينا كان عقبة أكثر مما كان مفتاحا في هذا المرض على الأقل و أنه لم يفعل إلا تجميع معلومات العصر السابق له و إن العقول الذليلة وجدت في هذا الجمع ما تقتات به من أغلاط إلى أن تبرز العقول المتجددة و تتجاوز القانون و ما به من أخطاء لبناء دعائم علم جديد .

مجمل القول

لكل عصر أبطاله يستقي من مثالهم قدوة و منهج و أبطال كثيرون : عمر . الحلاج . ابن عربي . ابن المقفع .المعري . قاليلي . وطبيب مغمور اسمه براسلس وقف فوق منصة جامعة بال (سويسرا) في أواخر القرن **14** و كان أول درس له في الطب . و تحلق الطلبة حوله بانتظار كلام المعلم و ما راعهم إلا و الرجل يضع رزمة من الكتب أمامه و يضرم فيها النار بصمت .. بعد احتراقها الكامل أشار إليها : " هذه كتب قالينوس و ابن سينا أحرقتها أمامكم لتعلموا أنه علم مات و من هنا نبدأ " .

أما آن الآوان لنبدأ نحن أيضا ؟

من جديد أنا لست ضد التراث و إنما ضد عقدة التراث و التراثية , نقرأ التاريخ فنقول أمجاد و أقول أمجاد و غزو و امبرالية و عبودية و إقطاع و ظلم نقرأ الأدب فنقول جادت قريحة بشرية بمثل هذا و أقول فيه الغث و السمين نقرأ الطب فنقول أكتشفوا كل شيء أقول كان ابن نفيس مصيبا في بعض ما قال و أخطأ الرازي كثير و لم يضف ابن سينا للعلم شيئا لمعرفة مرض الصرع الخ بديهيات ؟ نعم لكنها بديهيات كان التذكير بها و لا يزال مغامرة في عالمنا العربي .

نعم أنا ضد التراثية ضد القراءة السطحية التبريرية ذات البعد الواحد . و أنا مع قراءة علمية

. نقدية . محددة . مدققة تفرز الغث من السمين و لا وجود لميدان لا يمس و أنا لست من القائلين بالتخلي عن التراث أو تركه لأنه ذاكرتنا الجماعية , بإجابياتها و سلبياتها لكني مع توظيفه إن تطلب الأمر تجاوزه . و لا قدسية إلا للحقيقة و أو بالأحرى لهذا البحث المتواصل اللامنتهي عنها .

و قد ترسخت عندي القناعة ألا و هي أن الفكر العربي مهدد اليوم بكارثة لم يعرف لها مثيل طوال تاريخها العظيم (نعم بدون تمجيد كاذب). فهو أمام خيارين أحلاهما مر : تجذر في اللغة (و اللغة مصدر كل شيء) لكن في إطار توجه عنصري . شوفيني (الفكر القومي المتخلف) أو توجه سلفي . ناشف (الفكر الديني المتخلف) و الفشل مضمون في كلتا الحالتين أو المعاصرة و المستقبلية لكن في إطار الإنبتات و التغرب بتقمص لغات أخرى (الفرنسية اليوم . الأنجلزية غدا) و في هذا تمزق النسيج الحضاري برمته و الحل الأول ردة و الثاني انتحار و يبقى رفع التحدي الأكبر أن تصبح العربية (أي الفكر العربي لأن اللغة هي الفكر و الفكر هو اللغة) لغة القراءة النقدية الصارمة التجاوزية الموضوعية للتراث و سلاح المعاصرة و المستقبلية كي يحصل

التواصل الحضاري . و لكي نبني كما فعل الغرب على ما نهدم في حركة لا تنتهي من البناء و التشييد و المجد للأحفاد لا للأجداد .

****

" إن الأمر الضمني و الصارم لكل عقيدة هو " لا تتساءل " , لكننا نتساءل و نخرق دوما و بصفة طبيعية هذا الأمر ."

فرانك هاربرت

و حتى يبقى للسؤال بعده يعرف السؤال بنفسه : مأمن إلى أبعد حدود الإيمان بالله ورافضا إلى أبعد حدود الرفض لكل من يدعي أنه قوامه وظله على الأرض .ديدنه قول أبن عربي " عقل الناس في الإله عقائد و أنا أعتقدت جميع ما اعتقدوه " مؤمن بالعلم لكنه رافض لكل من يقول : هنا ينتهي العلم لأنه لا نهاية للعلم . مؤمن بالعقل لكنه واع بحدوده و امكانياته , مؤمن بالفكر لكنه يعرف أن الفكر حركة و ليس نتائج .

مثقف حقا لكنه ليس مثقف صالونات , لا يطرح موضوعا أو ينبغي حلا لمشكلة إلا لأنها تمسه في الصميم : صميم الحياة اليومية في تعامله كطبيب مع مآسي الناس : الجهل , الفقر , المرض , التخلف . و كمواطن : التعصب , استبداد الفكري و السياسي و الاستغلال بشتى أنواعه و أتهمه البعض بالكثير و بالاستفزاز خاصة لأنه تجاسر فسأل لماذا نحن متخلفون ؟ لماذا فشلت إيديولوجية الوحدة العربية , تصوره البعض جالسا إلى مكتبه كل عشية مع قائمة من الاستفزازات ليثير بها من حوله فقاقيع الصابون , غير واعين بأن الكسل و الخمول الفكري الذي طبع تفكيرنا منذ قرون هو الاستفزاز الأكبر ...لذكائنا لإبداعنا , لمخيلتنا , لمسؤوليتنا التاريخية أمام الآخرين , أمام أنفسنا ,أمام أحفادنا .

و ليسموا هذه الأسئلة الأخرى استفزازات ليواجهوها بالفكر إن أمكن و بالشتائم إن استعصى عليم الفكر و هذا لا يهمني و حتى أكون واضحا كل الوضوح أقول أن كاتب هذه السطور بقدر ما يجل و يحترم كل العقائد و كل العقائديين و خاصة الذين دخلوا السجون باسم الماركسية و القابعين فيها اليوم باسم الاسلام و الداخلين إليها غدا باسم تفكير آخر و بقدر ما يجعل من الديمقراطية و العفو العام و حرية الفكر و الاختيار السياسي أهدافا لا مساومة فيها , بقدر ما يرفض الارهابي الفكري و التعصب و منطق " الحقيقة أنا لوائها " و من ثمة اخوتي العقائديين بكل احترام لكن بكل صرامة و نزاهة فكرية أسئلتي , و لتبقى الكلمة الأخيرة للعقل و الحرية .

1- التعدد و القانون الخلدوني

منذ بدأ الإنسان يفكر وهو يحاول جاهدا إيجاد تصور للعالم و تنظيما له , يكفل للإنسان حاجياته الروحية و الدينية و كانت التصورات مختلفة أشد الاختلاف .

فما هو تصوركم لأسباب هذا التباين , و هل تعتقدين أن الفكر وجد ضالّته النهائية في العقيدة التي تنادون بها و هل تراهنون على أن إنسانية القرن الخمسين ستبقى متشبثة بما تقولون أم هل تتصورون أن العقائد نفسها مطالبة بالتطور و أنها قد تقع هي الأخرى تحت طائلة القانون الخلدوني : النشوء , التطور , الهرم فالاندثار .

2- ظاهرة التفاضل

يقول عباس محمود العقاد : " إن شمول العقيدة (الإسلامية) في ظواهرها الفردية و ظواهرها الاجتماعية هي المزية الخاصة التي توحي إلى الإنسان أنه كل شامل فيستريح من خصام العقائد التي تشطر السريرة إلى شطرين ثم تعبأ بالجمع بين الشطرين على وفاق و هذه العقيدة الشاملة هي التي أفردت الإسلام لم تعهد في دين آخر من الأديان الكتابية فإن تاريخ التحول إلى هته الأديان لم

يسجل لنا قط تحولا إجماعيا إليها من دين كتابي آخر بمحض الرضى و الاقتناع و لم يحدث قط في أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة أنها تركت عقيدتها لتتحول إلى دين كتابي غير الإسلام , و إنما تفرد الإسلام بهاته المزية دون سائر العقائد الكتابية و رغبهم جميعا فيهم , ذلك الشمول الذي يجمع النفس و الضمير ويعم بين الإنسان على تعداد الأقوام و الأوطان و يحقق المقصد الأكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرع و عقائد الأخلاق و آداب الاجتماع ".

. و للمفكر الماركسي لوفافر رأي مخالف و شبيه في نفس الوقت في موضوع المزية التي لم تعهد في " دين " آخر غير الماركسية و التي تفردت بها دون سائر العقائد يقول : " الماركسية حركة تفكير شامل تجمع و توحد مختلف الظواهر لا و لن تتوقف في تقدمها و في تطورها بعد , و هي توالي كذلك تقدمها المطرد إلى الأمام كسائر العلوم الأخرى بدون أن تهدم أسسها و قد استطاعت توحيد مظهرين مختلفين من مظاهر التفكير البشري أي العلم و الفلسفة و هي تتميز بانغماسها في الواقع الموضوعي الذي تكتشفه و تترجم له بدلا من التباعد عنه أو استخراج جزء منعزل عنه و لقد حوت بعد أن أحدثت فيها تغييرات جذرية سائر الفلسفات المجزئة و المفككة ".

. يقول عبد الله ابن المقفع و هو متقدم على الاثنين باثني عشر قرنا : " و أردت الدين و لما وقع ذلك في نفسي أشتبه علي أمر الدين و أما كتب الطب فلم أجد فيها لشيء من الأديان ذكرا يدلني على أهداها و أصوبها و أما الملل فكثيرة , مختلفة ليس منها شيء إلا وهو على ثلاثة أصناف : قوم ورثوا دينهم عن آبائهم و آخرون أكرهوا عليه حتى أولجوا فيه و آخرون يبتغون به الدنيا و كلهم يزعم أنه على صواب و هدا و أن من خالفه على خطئ و ضلالة و الاختلاف بينهم كثير في أمر الخالق و الخلق و مبتدأ الأمر و منتهاه و ما سوى ذلك . و كل على كل زار و له عدو و عليه عاتب . فرأيت أن أراجع علماء أهل كل ملة و أناظرهم فيما يصفون لعلي أعرف بذلك الحق من الباطل فأختاره و ألزمه على ثقة و يقين غير مصدق بما لا أعرف و لأتابع ما لا يبلغه عقلي و فعلت ذلك و سألت و نظرت فلم أجد أحدا من الأوائل يزيد عن مدح دينه و ذم ما يخالفه من الأديان و استبان لي أنهم بالهوى يستجيبون و يتكلمون لا بالعدل و لم أجد عند أحد منهم صفة تكون عدلا و يعرفها ذو العقل و يرضى بها فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلا "

و سؤالي من أصدق , و ما هو موقفكم من ابن المقفع و كلامه ؟ هذا يجرني إلى السؤال الثالث

3. الحقيقة و مقاييسها

من الشروط التي يجب أن تخضع لها الفكرة أيا كانت لكي يكون لها الحظ من مقاربة الصواب .

1. إجماع العقول على اختلاف مشاربها على قبولها : مثلا لا يختلف العقل الياباني و الفرنسي و العربي و الغربي و النيوزلندي على قانون الجاذبية أو على رفض القتل ظلما و عدوانا .

2. فرض نفسها بدون حاجة إلى العنف , هل يمكن تصور محاكم تفتيش لإجبار العقل على قبول نظرية نسبية أو معادلات " بوهر " و ماكسوال " ؟

3. قبول تطورها أي اعتبار الفكرة لنفسها كمرحلة لا كنهاية و السؤال هل هذه مقاييس صائبة و إن كانت فهل حقائقكم خاضعة لها , و إن لم تخضع فما هي مقاييسكم للحقيقة , مع العلم أنه لا يجوز منطقيا إرساء قناعات على الإرهاب أو على القول : تلك هي الحقيقة و لا جدال فيها فلو كان الأمر كذلك لما كان الاختلاف ووجوده قرار بضعف هذه الحجة و مثيلاتها

4. في علاقات العقائد بعضها ببعض

عندما نقول عن العقيدة السياسية أو الدينية أنها العقيدة المثلى التي تحث عن الخير و العدل و أنها الدين الأوحد ,أو الفلسفة العلمية الأولى الخ ...هل يجب أن نفهم أن كل ما جاد به الفكر البشري عدا ما تقولون به هو باطل و أوهام و أكاذيب فإن كان هذا الرأي فهل نتعامل مع بقية البشر (لا ننسى أنهم الأغلبية) باعتبارهم كفار ملاحدة , مستعبدون , ظالون ينتظرون الهداية , و هل نفهم أن سائر العقائد الأخرى (حتى و إن كانت تستعمل نفس المنطق) هي عقائد تحث على الشر و الرذيلة الخ ...و إن لم يكن هذا رأيكم فهل يعني أنكم تقبلون بتعدد العقائد أي بتعدد الحقائق و كيف يكون ذلك و الحقيقة واحدة ؟

5- العنف العقائدي

نجد عبر التاريخ من محاكم التفتيش الكاثوليكية إلى القولاج السوفياتي إلى محتشدات النازية مرورا بكل الاضطهادات التي تعرض لها الناس و خاصة المفكرون منهم , إن إحدى النتائج التي تتولد عن الإيمان ,بأنه لا حقيقة إلا الحقيقة العقائدية , العنف المتبادل و كم من جرائم ارتكبت باسم أنبل العقائد , فما هو تفسيركم لهذه المآسي الدموية التي لطخت تاريخ كل العقائد , ألا تعتقدون أنه من الأحسن أن نموت بعض الأفكار من أجل الناس على أن يموت الناس من أجل بعض الأفكار ؟

6- السؤال الرئيسي

لماذا فشل الإسلام (نسبيا أو كليا حسب الزمان و المكان) في نشر الإسلام ؟ و لماذا أخفقت المسيحية في تطبيق تعاليم المسيحية ؟ و كيف وصلت الماركسية إلا طورها الحالي ؟ التشريع لنظام عسكري يحل نقابات العمال و يطلق الرصاص على تظاهرتهم .

لنوضح : كيف تمخض الإسلام الذي نادى بالحرية و المساواة و العدالة و الذي وجد أصلا لينشر هذه القيم عن أنظمة متعددة عبر التاريخ , حكمت باسمه و مارست العبودية و الظلم و كان الحجة و الذريعة للعقول التي فرضت التحجر الفكري و لماذا يسهل عادة في إطار هذه الأنظمة قمع الساخطين عن أمير المؤمنين باسم التعاليم الإسلامية المثالية باعتبار التمرد على ظلمه تمردا على التعاليم التي نصب نفسه حاميا لها و ناطقا باسمها , أي كيف و لماذا يقع الاستحواذ على العقيدة سياسيا ؟ كيف و لماذا تنتقل العقيدة من طور إيجابي فعال إلى دور سلبي يقاوم الحركة ؟ كيف و لماذا تصبح المغامرة الفكرية و السياسية التي فتحت آفاقا واسعة للعلم و العمل أهم عقبة تقف في وجه تطور هاتين الحاجتين ؟ باختصار كيف و لماذا تصبح أداة التحرر أداة استعباد ؟ هل القول بأنه لا يجوز الاحتجاج بالمسلمين على الإسلام أو بالحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي أو الكمبودي على الماركسية كاف منطقيا ؟ أم هل هذه حجة يجب فهم خلفياتها التبريرية ؟

عندما أصف وصفة لمريض تزيده في بعض الأحيان مرضا أو تفشل في علاجه , أليس من الأحسن مراجعة وصفتي بدلا من اتهام المريض أنه لم يحسن تطبيق الوصفة المثالية أو بأنه غير جدير بها .

7- الازدواجية

ألا تعتقدون أنكم عندما تتكلمون على الإسلام , أو الماركسية أو المسيحية أنكم تتكلمون في الواقع عن حقيقتين مختلفتين أشد الاختلاف : النظرية (العقيدة) التطبيق (المذهب) .و أن التطبيق كان و لا يزال أغلب الأحيان تكذيبا قطعيا للنظرية و إن حتى عصوركم الذهبية لو دققنا فيها لما ظهرت ذهبية في شيء ؟ أما سبب هذا فغير ما تظنون قد تجدون في الجزء الأخير للكتاب و على وجه التحديد في النظرية التي أسوقها عن الحضارة , بعض الأفكار لتجاوز المنطق التبريري الذي لا يغني و لا يسمن من جوع .

8- في تفسير الازدواجية

*** ألا تعتقدون أن هناك أسباب موجودة داخل العقيدة نفسها تؤدي عاجلا أو آجلا إلى التحجر وإن علينا اكتشاف صلة التسلسل بين النظرية و شكلها العلمي المنحط ؟**

*** إن علينا دراسة طبيعة المفاهيم والوسائل التي يعتمدها المذهب لكبح جماح الواقع لإدخاله قسرا في إطار النظرية العقائدية الجامدة و ما يتبع هذا من ترتيبات نظرية و عملية .**

*** إن المذهب هو أداة قمع واستغلال فكري سياسي تستعمله فئة من القيمين على العقيدة لتحقيق مآربها و فرض إرادتها باسم تعاليم مثالية تخرقها أناء الليل و أطراف النهار .**

ألا يؤدي طرح المشاكل بهذه الكيفية إلى تبخر كثير من المعضلات المصطنعة المزيفة و أولها معضلة قيمة العقائد , فالعقيدة الرشيدة الموفقة لا تكون عندئذ العقيدة الفلانية , و العقيدة المظللة العقيدة العلانية لا توجد الحدود الحقيقية بين الخلق و الإبداع من جهة و التحجر و التخشب من جهة أخرى بين التحرر وبين الاستعباد داخل العقيدة نفسها لا خارجها .

9-طرق الـــــعمل

تحقيق المثل العليا للإنسان هدفنا جميعا و إعداد الإنسانية و الحياة يستعملون للتغطية على مآربهم كل الأساليب و على رأسها التقمص برداء العقيدة و للحفاظ على مكاسبهم تراهم يفتعلون للتفرقة الحزازات الفكرية الواهية لالهاء الناس .

ماذا لو قلنا : نضع موضع جنس الملائكة على حدة , نكف عن اتهام بعضنا البعض , نقول هذه اجتهاداتي , هذا ما أعتقده صحيحا لكن لك الحق في محالفتي الرأي , المهم أن نتكاتف جميعا ضد كل المتقمصين بالرداء , ضد كل الذين يضربوننا ببعضنا البعض , ضد كل الذين يهينون الإنسان ويستغلونه , ضد عبدة المال . وعندما ننتصر نكون أول من يضع حدا للحلقة المفرغة : القمع الإرهاب فالقمع المضاد فلا تبقى دمائنا تسيل وجروحنا تنزف إلى الأبد

10. ثم عودة إلى السائل

***إن قلت مع ابن عربي :**

لقد صار قلبي قابلا كل صورة

فمرعى لغزلان وديـر لرهبـان

وبيت لأوثان وكعبة طائف

وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أين توجه

ركائبي في الحبي دينـي وإيماني

* إن قلت إنني إنسان , أن تراث الإنسانية تراثي , أنني أغرف بكل نهم من بوذا و عيسى ولا وتسو ومحمد و ماركس ولا أفرق .

* إن قلت أنني أضع التسامح فوق كل الفضائل لأنني واثق أن قانون الفكر والتطور وأن ما نقول به اليوم ستهضمه القرون كما هضمت قبله الكثير .

إن قلت : إن الفكر آت بآلاف التصورات والبرامج وأنه هو لا أحد غيره من خلال كل أشكاله هذه وأنه قد يأت بالكثير منه في المستقبل , إن قلت إن قدرتنا أن نتفاهم أو على الأقل أن نكون حمل تناقضات الفكر , حملة نجاحه واخفاقاته في زمن ما ومكان ما

فهل تصنفوني : مثالي برجوازي صغير (سينتهي في سلة مهملات التاريخ) كافر ملحد , عميل الماضونية والصهيونية الإمبريالية العالمية أم إنسان يريد أن يفكر وله الحق في ذلك ؟ انتهت الأسئلة " الاستفزازية " والكلمة إليكم.

***

الـــــماضـــــي الحـــــرام

إن تجديد الذاكرة لا يعني تذكر التاريخ بقد ما يعني اعتبار الماضي على ضوء تجربة الحاضر و اعتبار الحاضر على ضوء تجربة الماضي

إدقار موران

الحق أنني مصاب بالدوران عندما أقارن بين أناس تقول لك : لماذا تفكر و في الكتاب كل شيء أو تحدثك عن عظمة ابن سينا و ناس تنتج سنويا عشرة آلاف مقالة علمية . و المضحك أننا لا نعلم أن كل نقا شاتنا الحاضرة : دور الدين , السلطة الديمقراطية ... مواضيع وقع الحسم فيها في الغرب منذ قرن على الأقل . في نفس الأسبوع الذي صدرت فيه

" في الرأي " مقالات تناقش مقالات تعدد الزوجات و هل نعود لها أم لا نعود ؟ صدر ملحق في جريدة '' لوموند ''عن المشاكل الأخلاقية و القانونية الناتجة عن أن إنسان الغد يستطيع أن يكون ابنا لثلاث أمهات: الأم البيولوجية التي تعطي البويضة و الأم التي قد تحمله في الرحم بعد الاتفاق مع الأم البيولوجية في إطار صفقة تجارية , و الأم المرضعة المربية .

نحن مشدودون إلى ماضينا وهم يخططون و يجرون بمستقبل يعدون له العدة و نبقى نتفرج لنقول : هذا لا يهمني , هذا غير ممكن , هذا كفر , أو كما كتب أحد القراء المحترمين أن الهاتف مرئي مقبول لأنه يشكل حلا لاختلاط الجنسين و منع ... زناء الشم .

الواقع أننا أمة وطنها الماضي تدعي منافسة أمم قررت أن تسكن المستقبل .

انظر الفرق بين ما ينتجون و ينتج . نحن نعيد طباعة الكتب الصفراء و ننشر سنويا آلاف الكتب التي لا هم لها إلا اثبات عظمة الدين و أولويته و ... و ... و ... و هم ينتجون ملايين النسخ من الكتب العلمية و خاصة من كتب الخيال العلمي , و لربما كان هذا الإنتاج الأخير أهم و أول . لماذا في نهاية القرن الماضي كتب حول فارن قصصه الخالدة و تنبأ فيها بالصواريخ و الغواصة و السفر إلى القمر الخ... و ضحكت منه العقول الجادة و تحققت كل تنبؤاته و كان لهذا النهج الأدبي الجديد مستقبل رهيب في الغرب و خاصة في أكثر أجزائه تقدما أمريكا . فكتب الخيال العلمي التي تروي وقائع سيطرة إنسان المستقبل على المكان (الرحلات إلى الكواكب) و على الزمان (السفر إلى الماضي و إلى المستقبل) و على الطبيعة (الخلود , خلق إنسان جديد) و لقاء الحضارات الكونية لأخرى , تباع بملايين النسخ , و لها كتاب مثل قان فوقت و أزيموف و فليب ديك و أرتور كلارك , و قد طبقت شهرتهم الآفاق (الغربية) كذلك نجد أن كثير من كبار السينمائيين اهتموا بأدب الخيال العلمي فأفلام مثل " لقاء من نوع الثالث " ل''ستيفن سبيلبارغ'' الذي يروي لقاء البشرية مع سكان الكواكب " ملحمة الفضاء **2001 " ل''كوبريك ''قد غزت قلوب و عقول عشرات الملايين من النظارة .**

ماهو تفسير " الظاهرة التي نعرف لها مع الأسف مثيلا في حضارتنا ؟ "

1. يقول الفلاسفة إن الإنسانية لا تطرح إلا المشاكل التي تستطيع أن تجد لها حلا .لا يسعني أن أضيف أنها لا تحلم هي بما تستطيع تحقيقه , و الحلم فترة تسبق إجباريا عملية تحقيق الحلم , لا غرابة أن تحلم الإنسانية الصناعية في نهاية القرن الصاروخ و الغواصة عبر أحد حملة الفكر " جول فار ن " . معنى هذا أن كتب الخيال العلمي المعاصر تعبر عن أحلام البشرية الجديدة بشرية الحضارة الرابعة و أن أغلب ما هو موجود في هذه الكتب هي في الواقع مشاريع للمعمل في المستقبل حتى و لم يكن ذلك واضحا لكل الأعين .

هذا الأدب أي هذا الحلم الجبار , هذا التخطيط اللاشعوري لغزو المستقبل هو حلال عليهم حرام علينا .

2. إن هذا الأدب يهيأ جيلا و قع تحسيسه بضرورة التغيير , و بحتميته , و بالتالي فهو يعوده للتكيف معه حتى لا يصدم أو يفاجئ بميدان الأرضية الفكرية التي ربته عليها أجيال الماضي .

معنى هذا أن ماضويتنا لا تكمن فقط في كوننا نبحث فقط عن حلول زماننا التعيس عند ابن تيمية أو أن مؤتمر الطب الإسلامي ؟ يسند جائزة لمن يكشف وصفة تصلح لعصرنا من الكتابات الطبية القديمة , و غنما في كوننا لا نتجاسر حتى على الحلم (و تصوروا مصير أديب عربي يغامر بكتابة الخيال العلمي) و لا نعد الأجيال المقبلة لمواجهة ما أسماه ألفين طوفلر بصدمة المستقبل . و مشكلتنا كعرب لا تكمن في عجزنا اليوم على إعداد الشباب لصدمة المستقبل و إنما حمايته أو إفاقته من الصدمة الماضي من الماضوية .

و الماضوية هو مرضنا الخبيث المنهك للقوى و لكن ما هي أسبابه و ترتيباته ؟ لو كانت الماضوية فلسفة أو مدرسة فكرية واضحة المعالم و الميدان محددة المفاهيم , لأمكن التعامل معها بالنقد الفكري الموضوعي لكنها غير هذا تماما , فهي طريقة تفكير و جملة من التصورات و الأوهام منها الخفي و المقنع و أقلها العلني و المكشوف , و قد تسربت هذه العقلية إلى كل الميادين , الدين , السياسة , الأدب , التربية , التاريخ , الإعلام و فسممتها و لوثتها و من ثمة أصبح التصدي لها كالتحدي للسرطان , أو للوباء ... عملا محفوفا بالمخاطر و ذوا مردود غير مضمون .

و الماضوية لا تزعجني عندما تجعل من التاريخ العربي الإسلامي ملحمة ساذجة كالتي تقدمها الملايين النظارة العرب المسلسلات التجارية الرخيصة ليالي رمضان , فمن المعروف أن الشعوب بحاجة إلى أساطيرأكثر . مما هي بحاجة إلى الحقيقة , و إن هذه الأخيرة لا تهم في الواقع إلا جزءا قليلا جدا من البشر .

و الماضوية لا تضيرني في شيء عندما تركز على أمجاد أمتنا العسكرية و العلمية , و تبالغ في هذا التركيز إلى درجة تثير السأم و الملل و حتى عند أعتى القوميين , فلهذا التركيز في هذه الظروف الصعبة التي تمر بها أمتنا دور في مقاومة الشعور بالذنب و الاحباط , و العجز خاصة أمام الغربيين الذين داسوا و لا زالوا يدوسون كرامتنا .

و الماضوية لا تشكل خطرا عندما تتلحف بها الحركات الدينية السلفية , لأنني واثق مع ''بايكون ''بأن من لا يعرف قوانين الطبيعة لا يمكن أن يملي إرادته علينا , و أن الواقع الحي المتجدد كالنهر لا يعرف إلا اتجاها واحدا و أنه لا يمكن للتاريخ أن يرجع القهقرة مثلما لا يمكن للنهر أن يسيل من البحر إلى الجبل , و قد تقيم الماضوية سدا على مجرى النهر و لكنها لم و لن تمنعه من السيلان في الاتجاه الوحيد و تكسير كل الحواجز الموضوعة أمامه . فما الذي يجعلني إذن عدو لدودا للماضوية بشتى

أصنافها و أشكالها , و أقول : المسألة أخطر من تجاوز مسكنات أوجاع هائلة , و المسألة أخطر من مجرد ردة و هروب من الحاضر المعقد و المستقبل الغامض , حتى نقدر عمق خطر الماضوية يجب أن نتساءل من ماذا تحرمنا هذه الأخيرة .

ما الذي يحدث عندما تتخيل الماضي , عندما تزيفه , عندما تضفي عليه أهج الحلل المخلية , عندما تجعل منه نموذجا و قدوة و الماضي ...مثال يحتذى عندما مقرر أن مستقبلنا في التشبث بنماذج من نضمه و أفكاره ؟ أقول بكل بساطة أنها تسلبنا من نفسه . و الماضي هو ذاكرتنا الجماعية و تجربتنا الجماعية , إنه مرحلة من مراحل التجربة الكبرى التي تحتل كل التاريخ الماضي منها و الحاضر و المستقبل , و أضيف أنه إن كانت لمعرفة التاريخ قيمة , فإنها في استخلاص العبر و الدروس منه و هذا يتطلب أن نعرفه كواقع لا كأسطورة و من ثمة فإن الموضوع ليس أن نتسائل (و أن نرد بالإيجاب حتى قبل بداية دراسة الموضوع) عن ظروف انتصارنا على الغربيين , و إنما أن نرد على أسئلة من نوع لماذا أنتصر يزيد على الحسين ؟كيف و لماذا سحق المعتزلة ؟ ما هو الثمن الحقيقي لغزواتنا و انتصاراتنا العسكرية في بداية الفتوحات ؟ هل كانت حقا بالسهولة و البراءة التي تصفها الأساطير التلفزية ؟كيف بدأ الانحطاط ؟ ما هو دور القبلية في إخراجنا من إسبانيا ؟ ما الذي أخذناه عن الهنود والفرس والإغريق ؟كيف تعاملنا مع هذا التراث ؟ما هي طبيعة الصراعات الاجتماعية آنذاك , كيف كانت حالة العبيد ووضعية حقوق الإنسان في ظل أنظمة اجتماعية تمارس خصي المماليك وإهداء الجواري والغلمان ؟ لماذا قتل الحلاج وأبن المقفع ؟ وما هي الخلفيات السياسية لبروز المذاهب الفقهية ,الخ...

ويسعني أن أصنف إلى ما لا نهاية الأسئلة المصيرية التي تحاول الماضوية التعتيم عليها لأننا لو علمنا الحقيقة عن هذا الماضي لبدا لنا على طبيعته الحقيقية : جزء من تجربة تاريخية عظمى تصارعت خلالها نفس القوى التي مازالت إلى يوم الرحمان هذا تتصارع .

تجربة ملآنة بالوحل والدم والفظاعة وفي نفس الوقت بعظيم المنجزات ونحن بحاجة إلى أن نعرف أهم ملامح هذا الصراع واهم مراحله , لأننا لن نفهم حاضرنا إن لم نفهم ماضينا ولأننا ربما نستطيع لو عرفنا تفاصيل تجربتنا الجماعية اختصار الطريق لغد أفضل . و أقول أن خطر الماضوية على حاضرنا كبير لأننا نتصور أن نعيش ثلاث مراحل زمنية نسميها الماضي والحاضر والمستقبل و الحال أنه لا معنى لهذا التقييم فنحن لا نعيش إلا لحظات التجربة و إطارها وحدة زمنية لا تتجزأ وأسميها الماضحاضر مستقبل , أنظر إلى حاضرنا بمقولاته المختلفة العقيدة , السياسة , العادات , الصعوبات الخ...الخ... ستكتشف إن حاولت التدقيق فيها إنها تنضح بمعتقدات وتجارب وأوهام و مخاوف و أحلام ناس عاشت منذ آلاف السنين ,و صدق من قال إن الأموات هي التي تحكم الأحياء , لكن الحاضر ليس مجرد حصيلة الماضي فهو محكوم بالتصورات المبهمة للمستقبل , لهذا العالم المثالي الذي نحمله كلنا في قلوبنا و مخيلتنا , و بالتالي فإن الماضي الذي عزلناه كوحدة يتداخل مع المستقبل ليشكل الحاضر , فنحن لا نعرف الماضي و لا نتكهن بالمستقبل إلا من خلال تجربتنا للحاضر و المستقبل نفسه إذن بالضرورة نتيجة تراكمات و اختيارات منها القديم و منها الآتي و بالتالي , فإن توجيه دفة السفينة إلى مرفأ هذا المستقبل الذي قد لن يكون إلا حاضرا آخر لا يقل فضاعة عن حاضرنا . هذا يتطلب أن نعرف بالضبط طبيعة القوى الآتية من أعماق القرون و التي لا زالت تمارس ضغوطات هائلة

على الدفة لتوجيهها في هذا الاتجاه أو ذاك , و الماضوية تحرمنا من كل هذه المعلومات , و بالتالي من صحة التقدير , فتهدر الطاقات الكثيرة , و تبقى الأهواء و التيارات تتقاذفنا لأننا أضعنا ذاكرتنا , و أضعنا ثروة الثروات التجربة .

لذلك أقول :

لتكن الماضوية لحظة سلبية من لحظات التجربة الجماعية , نفهم أنها ردة فعل عصبية في إطار مرحلة مؤقتة و عصيبة من مراحل تطور أمتنا العظمى لنفهم أنها لا تؤدي إلى نتيجة , بل قل أن إجازاتها الوهمية الذاتية على مستوى إرضاء النرجسية مثلا , لا تقارن بالكارثة العظمى التي تلحقها بنا عندما تسدل ستارا بيننا و بين ماضينا ,ليكن من أهداف المشروع الفكري المستقبلي فتح ملف من أهم ملفاته : غزو الماضي و اكتشافه لأنه من يومنا هذا منطقة مجهولة منطقة محرمة .

****

البـــاب الخـــامـــس

الحـــصاد و الهشـــــيم

علينا الإشهار بالحقيقة المرة : لقد فشلت ثورة القرن العشرين , لكن تاريخ الإنسانية متواصل .

ادقار موران

لو واجهتني أحد في الستينات بهذه التنبؤات للعشريتين المقبلتين لا تهمته بالجنون أو لأنفجرت ضاحكا من سذاجته.

1. هزيمة الجيوش العربية بالضربة القاضية و على رأسها أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط(الجيش المصري على حد تعبير المصريين آنذاك) .

2. تراجع المد الوحدوي إلى درجة أن الموضوع سيكون المحافظة على وحدة لبنان و السودان و العراق , لا توحيد الأقطار العربية , و أن بلدا صغيرا كلبنان سيصبح فسيفساء من دول الحارات و المليشيات .

3. تنامي إيديولوجيا الدينية التي كنا نعتقد أن مفعولها قد انتهى و انتصارها في شكل ثورة على نظام شاه إيران الذي فشلت في اقتلاعه الحركات اليسارية .

4. اعتراف مصر نعم مصر باسرائيل و خروجها من الجامعة العربية .

5. و هن النظم " التقدمية " و تمترس الأنظمة الملكية الرجعية التي كنا نعتقد أنها بصدد لفظ آخر أنفاسها .

6. دخول الصين (نعم الصين) في حرب ضد الفيتنام (نعم فيتنام) الشمالية , بعد معارك الحدود بين عملاقي الكتابة الاشتراكية . الصين و الاتحاد السوفياتي .

7. وقوع مذابح جماعية في كمبوديا من طرف عصابات لا يمكن وصفها إلا , بالنازية , و مع ذلك قادتها ماركسيون تقدميون اشتراكيون الخ ...

8. موت ملايين الأفارقة جوعا , و مسارعة الغربيين لإنقاذهم في حين بقي العرب و الأفارقة و دول العالم الاشتراكي تتفرج .

9. تصاعد الخلافات و الحروب بين شعوب العالم الثالث , مؤدية مثلا إلى طرد مئات آلاف العمال الأفارقة من بلد إفريقي كنيجيريا , أو عشرات الآلاف من العمال العرب من بلد عربي كليبيا , في إطار حملات تمشيط و ترحيل جماعية , لم يتجرأ أكبر العنصريين الغربيين على الحلم بها .

و من الصعب على قارئ الثمانيات , إن لم يعايش أوهامنا و أحلامنا و مطامحنا , أن يتصور هول هذه " التنبؤات " و غرابتها . في منتصف الستينات كنت طالبا في جامعة ستراسبورغ الفرنسية , و كانت كأغلب جامعات العالم في تلك الحقبة , معقلا من معاقل الفكر التقدمي , تخرج منها المظاهرات طوال السنة للتنديد بالحرب في الفيتنام , أو إسرائيل , أو بالإمبريالية العالمية ... الخ ...

و كنا نحن الطلبة العرب ,على أشد الثقة آنذاك بصدد ربح جل المعارك ضد الصهيونية , ضد الاستعمار , ضد التجزئة . إننا نركب موجة عاتية من أمواج التاريخ , إننا سنخضع للرجعية , الإقليمية , و الاستغلال . و كنا نرى انتصارات المعسكر الاشتراكي , و ففي التصاعد السريع لعدد و فعالية حركة التحرير في العالم , أدلة قاطعة على أننا على باب قوسين أو أدنى من النصر , و من تحقيق أهداف و طموحات الأمة العربية في الوحدة و الحرية و الاشتراكية و من تحقيق أهداف العالم الثالث بأسره في التحرر و

التقدم . كان تقسيمنا للعالم محكوم بقناعة مطلقة أن الخير في وصف شعوب أمم العالم الثالث و الاشتراكي , و كان الغرب رمزا للشر المطلق , و كنا نجد في المحاكمة الصارمة لزملائنا من الطلبة الغربيين لنظمهم و حضارتهم ما يمتن و يرسخ هذه القناعة . ثم كانت الأحداث وجرت الرياح بما لا تشتهي السفن , و تحققت الكوارث , فكانت بالنسبة إلينا آنذاك لا تقل لا معقولية عن تنبؤات العشريتين المقبلتين , من نوع : ظهور نظام شيوعي في السعودية , انقسام تونس إلى دولتين متحاربتين , انقلاب عسكري في فرنسا , دخول المغرب في وحدة مع دول أوروبا الجنوبية , الخ ...

و مع هذا فقد حصل ما لم يكن متوقعا و بقينا نتفرج مشدوهين نتألم أشد الألم و نحن نعايش يوميا تكذيب الواقع و تسفيهه و تفنيده , و تحقيره لنظرياتنا الجميلة في الوحدة " الضرورية " و الاشتراكية " الحتمية " و التطور و التقدم و العالم الثالث الخ ... و تمترس منا من تمترس داخل قناعاتها القديمة رافضا أن يغير حرفا من كتبه المقدسة , فإذا به في حالة شيزوفرينيا فكرية و سياسية متقدمة , و خرج الأغلبية من دائرة العمل الفكري و السياسي بعقدة ضخمة من الاحباط و الفشل .

و اختار آخرون ركوب الموجة الجديدة بعقلية غواني المدن المتتبعات للموضة , فاستبدل بعض المشائخ الماركسية في الستينات (كاروجي)

تؤكد على عكس ذلك حيث ترى أن العلم هو التعامل مع المعقد المختفي و تفسير البسيط الظاهر . و كان سبب الماركسية مفتاحها لفهم كل الظواهر كما نعرف العامل الاقتصادي . كنا في الستينات ندير هذا المفتاح آلاف المرات في فقل الباب لنفهم سر هجوم الصين الشيوعية على الفيتنام , أو رفض عامل جنوب إفريقيا الأبيض الكفاح في خندق واحد مع نظيره الأسود ضد مستغليهما الرأسمالي الأبيض الخ... و كان الباب يبقى دائما موصدا , لا غرابة في ذلك لأن السببية المبسطة أيا كان تغليفها عاجزة عن فهم الواقع خاصيته الأولى التعقيد المريع . من المؤسف أن نرى نفس الغلطة المنهجية تتكرر كأن التاريخ ليس قبل كل شيء تجربة يجب دراستها حتى لا نكررها إلى ما لا نهاية . فعندما نسأل الإسلاميين عن سبب معاناة الإنسان العربي و تردي الأمة في الحضيض يجيبونك : لتركنا الإسلام , و يوم نطبقه بدون تحريف , سنضع أنفسنا على المسار الصحي ,و لم أقتنع يوما بهذا المنطق . قلت يوما لأحد المؤمنين به , تعالى نستعرض الأسباب الموضوعية للتردي الحالي . و لنضع بما أنك تصر على ذلك " ترك الإسلام أو القيم الإسلامية " على رأس القائمة , تكون الأسباب الرئيسية كالآتي : **1.** ترك التعاليم الإسلامية

2. التخلف الاقتصادي

3. التغييرات الاجتماعية و المفاجئة و انتقالنا من حضارة إلى أخرى .

4. ضراوة التحديات الخارجية خاصة من طرف الصهيونية و الإمبريالية .

و الان تعالى نفسر الأسباب الاقتصادية , لا شك أننا سنجدها تحتوي على عدد كبير من العوامل و من أهمها :

* العامل الثقافي إن العمل لا يشكل قيمة في ثقافتنا , و انظر إلى أصل كلمة مهنة المشتقة من مهانة

* العامل التكنولوجي الناتج عن تأخر تكنولوجيتنا و من ثمة ضحالة الإنتاج و الإنتاجية .

* العامل السياسي الداخلي المولد للإحباط الناتج بدوره عن الفوارق الطبقية .

* العامل السياسي العربي الناتج عن غياب سوق واسعة للتصدير و ضيق سوقنا المحلية .

العامل السياسي الخارجي : و من أهم معالمه ظهور الشركات المتعددة الجنسيات كقوى عظمى لا سيطرة لنا عليها , و ما ينتج عن ذلك من ارتفاع سعر الدولار أو سياسية الحماية التي تننهجها أوروبا تجاه منتوجاتنا .

لا شك أننا نستطيع أن نمارس نفس عملية التفكير مع رؤوس الأقلام الأخرى , و لا شك أننا نستطيع متابعة التفكيك و المضي فيها شوطا بعيدا داخل كل واحد منها .

و الحاصل ؟ مئات الأسباب الوثيقة الارتباط , المتداخلة المتبادلة التأثير و التي تؤدي في النهاية إلى تفسير الوضعية الحالية , إنها السببية المعقدة . هل من المعقول أن نأتي و نقول : يكفي أن نغير جزءا واحدا من المعادلة (تطبيق الشريعة) مثلا لكي تتغير النتيجة و كأننا نفترض , إن تغيير عامل وحدة كفيل بتغير شكل أو ديناميكية هذه الشبكة الهائلة التعقيد من العوامل المتفاعلة . لكن " لمن تقرأ في زابورك يا داود " ؟ فخاصية العقائدي الأولى أن سجين أفكاره و معتقداته , أنه تستعمله و لا يستعملها . هل كان بالإمكان أن نتنبأ في الستينات بالحرب الصينية الفيتنامية أو بفشل كل المحاولات الوحدوية العربية , لو كنا نمتلك نظرية علمية تعتمد السببية المعقدة للتفكير العلمي المعاصر ؟

ويستحيل الرد على هذا السؤال طبعا والأهم من هذا أن نتساءل هل بإمكان نظرية تاريخية تعتمد على السببية المعقدة هذه , أن ترى النور يوما . أقول نعم بل هذه هي مهمة المهام بالنسبة للمفكرين العرب في هذا الظرف الدقيق من حياة الأمة , والعالم هو عمل جماعي جبار . هو بحق مشروع القرن الثقافي . وتصوري أن مرحلة الخضوع و الاستسلام لنظريات الماضي , أو العقائد المتعلمنة ستمر إجباريا طال الزمان أو قصر, بفعل تضافر عوامل معقدة هي نفسها كفشل التجارب التاريخية التي تعتمد هذه الأيدلوجيات وتصاعد المعلومات و سرعة تبادلها ودخول عدد متزايد من الأدمغة شبكة البث , وبالتالي فإننا لسنا مقدمين على تجديد البالي والمترهل و ترميم المتكلس والمتداعي كما يقول جبران خليل جبران , وإنما نحن مقدمون على تجديد نظرتنا للعالم وستكون هذه النظرة بحكم تطورنا داخل التجربة العظمى أكثر نضجا ووعيا وأقل سذاجة . وسنفهم أن الأسباب التي حركتنا و التي تدفعنا والتي تجذبنا إلى المستقبل هائلة العدد , هائلة التعقيد , وإننا نعيش مغامرة جماعية جبارة على طوال القرون , إن هذه المغامرة ليست مضمونة العواقب ,فنحن لسنا مقدمين على انتصار "حتمي" للاشتراكية , أو على وحدة عربية "مفروضة" بطبيعة الروابط الروحية واللغوية إلخ... أو على انتصار الإسلام لأنه دين الله . فكل هذه المشاريع أصحابها والمستقبل ليس رهن إشارة هذا المشروع أو ذاك , لان حصيلة ملايين الارادات المتصارعة المتناقضة . إن كان التعقيد الهائل للأسباب والمتسببات هو الجدار المرمري الذي تتهشم عليه كل الأحلام العقائدية فهل معنى هذا أننا عاجزون عن اكتشاف بعض نقاط القوة التي تمكن من فهم الماضي و من التنبؤ بالمستقبل , وهما الأمران الضروريان للامل وللعمل ؟

واعتقادي أن هذا ممكن على شرط أن لا ننسى دوما أننا عندما نقرر هذا الرأي أو ذاك فمن الاضمن اعتباره فرضية يجب التخلي عنها كلما حقرتها , الأحداث , و أن نكون دوما على أهبة الاستعداد لاستبدالها بفرضية أخرى تتلاءم أكثر فاكثر مع معطيات التجربة العضمى , وأن لا نحاول كما هو الشأن لإديولوجيات تنطع لها أو محاولة احتوائها في قالب نظري جامد , عندئذ يمكننا أن نقول :

1. إن المشروع التحرري الذي تحاول كل العقائد التنظير له وقياده وهو القوة المحركة للتاريخ وهو المشروع الذي يطمح لأن يوفر كل وحدة دماغية :

. الحرية الأولى وهي الخلاص من الجوع والمرض الفاقة .

. الحرية الثانية وتكمن في حق المشركة في أخذ القرار وتنفيذه وتقييمه أيا كان المستوى .

الحرية الثالثة : وتكون بتمكن كل وحدة دماغية من المشاركة في عملية الخلق والإبداع الفني والفكري .

ويرتطم هذا المشروع بحدود التكنولوجيا التي لا تسمح بتحقيق هذه المطامح الشرعية و بالذئبوية التي تشكل الوجه الآخر للإنسان و من ثمة يكون تطور الصراع المعقد بين الأجناس و الشعوب و الطبقات و الأفراد و الجنسين الخ ...

2. يشكل الماضحاضر مستقبل الإطار الزمني لهذا الصراع و يمكننا أن نتوقف عند أي لحظة زمنية .

لنحوصل النتائج التي وصل إليها المشروع التحرري في هذا المكان أو ذاك .

3. لا شيء يضمن لنا أن المشروع التحرري سيتحقق و ذلك نظرا للطبيعة الازدواجية للإنسان و للطبيعة الازدواجية للتكنولوجيا نفسها (و هذا بغض النظر عن حدودها) و من ثمة :

أ. إن تزايد التعقيد في العالم المعاصر سيزيد من صعوبة التنبؤ . بنتائج آلاف المفاعلات الاجتماعية , السياسية , التكنولوجية التي تغلي في قدر التاريخ , و بالتالي فإن المستقبل البعيد و القريب سيفاجئنا دوما بظهور حوادث و تشكيلات في منتهى الغرابة .

ب . إن هناك ظاهرة هامة و في منتهى الخطورة بدأت تتضح معالمها , و أسميها بتصاعد قيمة الرهان .

لنتصور أن التاريخ لاعب مسير و أنه يلاعب خصما شرسا (الظروف الموضوعية القاهرة بشقيها الذاتي أي الذئبوية و الخارجي أي التكنولوجيا بآثامها و حدودها) . لنتصور أن هدفه هو حقا كما خلناه تحقيق المشروع التحرري , و لننظر الآن إلى أهم ملامح المباراة و التجربة العظمى أي سنكتشف أن مغامرنا لا ينفك عن كسب و جني أرباح هائلة تتزايد قيمتها بمرور الزمن و كأنه بصدد تعلم قواعد اللعبة و اتقانها , لكننا سنكتشف إن دققنا النظر أنه يخسر الكثير , بل أن أهمية ما يخسره تتزايد هي الأخرى بنفس الكيفية التصاعدية , معنى هذا أنه إن كان في بداية اللعبة , يحسب ربحه و خسارته بالمليمات , فسنراه يحسبها بالدينار ثم بآلاف و ربما بملايين الدنانير بمرور الزمن . و الظاهرة واضحة لا نقاش فيها فنحن نلاحظ مثلا أن عدد المتمتعين بالحرية الأولى كان قليلا في بداية التجربة العظمى .

بينما نرى ارتفاعا هائلا في هذا العدد في البلدان المتقدمة حيث أصبح ضحايا الجوع و الفقر و الخصاصة الأقلية المطلقة .

نفس الشيء عن الإنتاج الفكري , فمن البديهي أن هناك فرقا هائلا بين إنتاج البشرية في بداية التجربة العظمى طيلة قرون طويلة و إنتاج تصاعدت مظاهره و تسارعت كميته بصفة مذهلة في العشريات الأخيرة . لكن هذا التصاعد الرهيب في الكسب يتماشى مع التصاعد الرهيب في الخسارة ,فعدد المجتمعات التي تعاني من الجوع أكثر من أي وقت مضى , و الموت لا يحصد بالعشرات أو بالمئات و إنما بالملايين . فالمعرضون للجوع في عالمنا المعاصر يحصون بمئات الملايين بل هم ثلث البشرية , و يمكننا اعتماد مؤشر آخر هو الحرب للتأكد من صحة هذه الظاهرة .

فقدكانت آلات الدمار تقضي على آلاف الأشخاص في أكثر الحروب الدموية في عصر الرماح و السيوف , ثم أصبح الرهان يتعلق بمئات الآلاف ثم بالملايين إبان الحربين العالميتين الأخيرتين , أما الان فوسائل الدمار قادرة على القضاء على مئات الملايين من البشر في لمحة البصر .

و من ثمة الفرضية التي أسوقها أن التاريخ ليس قطارا سيؤدي بنا حتما إلى المستقبل اسمه محطة الاشتراكية , و الديمقراطية ,أو الإسلام المطبق(أخيرا) و إنما نحو مستقبل محفوف بأخطار تتعاضم يوم بعد يوم , و غني في نفس الوقت بعظيم الأماني و الانجازات , التجربة العظمى قد تنجح في تغليب كفة الربح عن الخسارة و قد ...لا تنجح . و لقد أسميت هذا المستقبل المزدوج بمستقبل الهشيم و الحصاد .

****

الهشيم و القنابل الموقوتة

المدن القنابل : عن شارل فاناك (**1**)(جريدة لومند **1983**)

" ساوبولو " إحدى العواصم البرازيلية الكبرى (أكثر من ستة ملايين ساكن) بصدد الغرق . فعلا ,كم قيل من هذا الكلام , لكن كيف يمكن أن نترجم ما نقرأ و ما نسمع بغير هذا التغيير . إنه ما يتهامس به و بيأس هادئ , متعودون على مدن التصدير التي تشكل ضواحي المدينة .

لقد أدمجت ''ساوبولو'' من زمان جوع أفقر الناس في حياتها العادية , و عنف الهامشية , لكنها اليوم قد تجاوزت كل هذا ووصلت إلى السطو كخطر مقبول . لقد أصبح من الطبيعي لكل من يملك دكانا أن يسلب .

عشية أمس ذبح بائع دجاج و هو بين دجاجه , لماذا ؟ لا أحد يعرف . و نفهم من تعبير الجيران أنها ليست تراجيدية بالنسبة لهم : " إنهم يقتلون من أجل القتل , حتى لا يكونوا الوحيدين الذين يقتلون ".

في ذلك اليوم , قتلت امرأة و رضيعها إبان عملية سطو بدون سبب و قد فسرت هذه الحالة أمدا طويلا بأنها نتيجة الجوع , هذا الجوع المزمن المتمكن من ناس عاطلين عن العمل , رمت بهم المصالح على عرض الطريق لتلتهمهم مصانع أخرى لثلث أو نصف الأجر السابق , أو من أطفال يأكلون سوى مرة واحدة في اليوم , هذا إن تمكنوا من بيع بعض المرطبات , و شيء من القهوة و علب الكرتون .

لقد انتشرت الخصاصة في ميدان التغذية إلى درجة أن نوعا جديدا من النهب تطور بسرعة : نهب المدارس و هكذا حرم هذه السنة من كل طعام أطفال خمسين مدرسة و رياض أطفال .و لقد احتجت العديد من المرات المعلمات ضد انعدام الأمن في مؤسساتهن . فمنهن من هوجمن داخل القسم , لذلك ترفض بعضهن الدروس الليلية خوفا من الاغتصاب . و قد أصبح عدد الحالات يتزايد , بل وشمل حتى التلميذات . قد حدث أن نهبت المستوصفات , إذا تغيب الطبيب و تكف الصحافة عن تناقل أخبار كهذه فمرة يقتل طفل طفلا آخر بمسدس ليسرق دراجته , و مرة يقتل كهلا طفلا في قلب المدينة ركلا بالرجلين لأنه خطف قلادة عابر سبيل , و يشاهد العديد العملية دون أن يتدخل أحد ثم تأتي الشرطة تترك القاتل دون أن تأخذ حتى هويته .

إنه روتين المدينة ,كالألعاب السرية و تهريب المخدرات و الذهب الذي يقوم بعض الناس الإشهار له عبر مكاتب متخصصة في شراء الذهب المسروق .و قد أدت البطالة للانهيار المفاجئ لمستوى العيش ,إلى تزايد تدهور المدينة و هناك عائلات برمتها تتمركز تحت قناطر الطرق السريعة , تطبخ طعامها في العراء , بينما تعيش عائلات أخرى في ملاجئ من الورق المقوى على قارعة الطريق .

و في وصف احتضار المدينة كتبت هذه السطور :

"إن تواصل الجفاف في الشمال الشرقي , فسيموت ثلاثة ملايين نسمة من الجوع سنة 1985 .1986 , و سيتواصل زحف النازحين على ساوبولو و هذا ما تعلمه الكنيسة " , لكنها أخبار لا توجد إلا في الصفحات الداخلية لبعض الجرائد .و الظاهر أن لا شيء قادر إذ تجاوزنا درجة معينة من العنف و الجنون , على تحريك الضمائر .

سنة 1980 اقترح سكرتير دولة لمحاربة العنف , توزيع برتقال على المتسولين , مضيفا : " يجب أن يكون هذا البرتقال جميل المنظر و مسموما . وبعد ستة أشهر بعث القاضي لسلطات الأمن باقتراح يقضي ببناء محتشدات يجمع فيها كل الهامشيين . وتبقى مخيلة كل رجال السياسة عاجزة عن إيجاد الحل للمفارقة : كيف يمكن تغذية كل هذه الجحافل من الجائعين و الحال أنه لا يوجد لا الغذاء و لا العمل ؟

ساوباولو المدينة البرازيلية الكبرى نموذج يحصى و يقاس عليه . فمصيرها و مصير أغلب المدن الكبرى في العالم الثالث ميكسكو . القاهرة . لاجوس . الدار البيضاء . كالكوتا . بومباي الخ.... قنابل موقوتة لا تنتظر إلا وصول الضغط إلى درجة لا تطاق لتغرق في الدم , و هي مدن كبواخر سكرى تظافرت عليها الكثافة السكنية و عوامل الجوع و الفقر والمرض ليجعلها غير قابلة للتوجيه , نظرا لضخامتها و ضخامة مشاكلها .

كم من مرة قلت في نفسي و أنا أمشي في شوارع تونس , إن سكان هذه المدينة أبطال إلا أن رأيت سكان بومباي فاستبان لي أن سكان بومباي ليسوا أبطالا فحسب و إنما شهداء ... وبالتالي يكون التحدي الحضاري المقبل : إيقاف تطور المدن الكبرى بكل الوسائل , و إلا فإن جهنم التي يعدنا بها البعض ستفتح فمها لابتلاع الناس هنا على الأرض حتى قبل أن يولدوا .

الـــــنـــــاس ـ القنابل

* المتشردون : عدد الأطفال الهائمين في شوارع مدن العالم الثالث يزيد عن المائة و سبعين مليون لأولياء ماتوا أوسجنوا أو الفقر مدقع أو لفقدان ابسط أنواع الرعاية الخ ...الخ ...

* المختطفون و المباعون : أكثر من عشرين مليون طفل وقع اختطافهم في أمريكا إلى درجة أن شركة الكهرباء و الغاز أصبحت آخر المختطفين بالفاتورة حتى يقع الإعلام عنهم و قد اتخذت الحملة أبعادا قومية .

أما بيع الأطفال فهي تجارة سرية رابحة و قد وصل ثمن الرضيع إلى 1300 دولار أمريكي , بالطبع يباع أطفال العالم الثالث للتبني من قبل عائلات غنية في أوروبا و أمريكا , هذا ما اضطر كثيرا من البلدان كأندونيسيا و دول أمريكا اللاتينية إلى التدخل بحزم لوقف عمليات التبني . الاختطاف .

* المستغلون : ملايين من الأطفال خاصة في بلدان العالم الثالث يعملون في اصعب الظروف و بأبخس الاثمان . و يقدر عدد الاطفال العاملين في الهند و حدها بسبعة عشر مليون طفل .

* المهددون بالموت جوعا : تهدد المجاعة عشرات الملايين من الأطفال خاصة في إفريقيا أين يموت المولودين قبل بلوغ سنهم الأولى لذلك اختارت منطقة إغاثة الطفولة ملصقة يكون فيها جواب الطفل على السؤال الكلاسيكي : ماذا تريد عندما تكبر ؟...البقاء على قيد الحياة .

* المغتصبون : إن الاغتصاب وبغاء الأطفال من أفظع الأمور التي يقع التعرض لها في المؤثرات العالمية إلا أن هذه الحقيقة التي تنخر واقع الكثير من أطفال العالم الثالث و التي تتحمل السياحة مسؤوليتها فبلدان كتايلندا و الفليبين معروفة بتوريدها لهذه السلع

ويبلغ عدد الأطفال الذين يمارسون البغاء السري 200000 في الولايات المتحدة , كذلك فمن المعروف أن هناك تجارة مربحة للأفلام الخليعة التي يشكل الأطفال أبطالها في كثير من البلدان الغنية و خاصة في مدينة أمستردام .

*** المعذبون : تستعمل الديكتاتوريات الفاشية التعذيب ضد الأبناء ففي الهندوراس مثلا مارست قوى البوليس التعذيب على طفل عمره عشر سنوات كما حكمت في نوفمبر 1984 محكمة صومالية بالإعدام على سبعة مراهقين وقع انقاذهم في آخر لحظة تحت ضغط الرأي العام العالمي .**

*** المستعبدون : في تايلندا و في جنوب إفريقيا خاصة لازال الآلاف من الأطفال يعملون في الحقول وفي حالة عبودية تامة .**

*** المقنبلون : آلاف من الأطفال يذهبون يوميا ضحايا العنف الأعمى الذي يمارسه الكهول ففي لبنان و فلسطين و كمبوديا وأمريكا اللاتينية تدفع الطفولة ثمنا باهظا للحرب .**

هذه هي الأجيال التي يعدها العالم لغد بدون مستقبل .

المجاعات ـ القنابل

من أغرب المفارقات أن عصرا لم يشهد منذ بداية التاريخ عددا مماثلا من الجائعين كعصرنا هذا .هل تعلم مثلا أن عدد الناس الذين كانوا يبيتون على الطوى إبان العصور الحجرية (قياسا على عدد السكان الجملي) كان أقل من عدد الذين يبيتون على الطوى في قرن شهد صعود الإنسان إلى القمر , فثلث سكان الأرض يعاني اليوم من سوء التغذية المزمن , وعندما تنحبس الأمطار في إفريقيا يبدأ الموت الحصاد الجماعي وقد قدرت سنة 1979 بخمسين مليون عدد الذين ماتوا من الجوع أو مظاعفاته و سوء التغذية هو اليوم المرض الأول لأن الجسم الجائع بدون حصانة و انعدام الحصانة يعني أن يكون مرتعا للطفيليات و الجراثيم والحمات , وفي ذلك بداية النهاية بالنسبة للكثيرين

الديون ـ القنابل

تقدر قيمة ديون العالم الثالث بألف مليار من الدولارات و هو رقم مخيف , خاصة وان الأغلبية الساحقة من بلدان العالم الثالث تقترض بصفة متزايدة لا لدفع هذه الديون و إنما لدفع الفوائض التي تلتهمها بشراهة البنوك الخاصة الأمريكية منها على وجه الخصوص . معنى هذا أن جزءا لابأس به من الدخل القومي وقد يصل حدود الأربعين بالمائة أصبح ملكا لهذه البنوك التي أصبحت تمثل شيلوك العالم الثالث , وتلعب دور المرابي الدموي المتعيش على قوت الشعوب والأمم من ترتيبات الديون الباهظة المتزايد في صندوق النقد الدولي الذي وضع كثيرا من دول العالم الثالث تحت الوصاية , متدخلا في شؤونها الاقتصادية بمنتهى الوقاحة , (وبمنتهى اللافعالية) وفارضا حلولا أمر من الداء كالحد من ارتفاع الأجور و رفع الدعم عن المواد الضرورية كالخبز وتسليم الاقتصاد بالقطاع الخاص , وذلك حتى تدخر الدول على حساب قوت الأغلبية ما يكفي لدفع فوائض تجني من ورائها الشركات الاحتكارية العالمية أرباحا خيالية , وعن مثل هذه السياسة تولدت انتفاضات الشعب المتتابعة فير أمريكة اللاتينية و إفريقيا و آسيا و الخيار لكثير من الأمم والشعوب أن تلتهم الديون أو أن تلتهم الديون

القنابل .القنابل

نقلا من روبار قيلان و في وصف اليوم المشؤوم كما عاشته إمراة من عامة الناس : " هيروشيما " السادس من أغسطس (1945) التحقت بجمع من النساء كنا يعملن مثلي كمتطوعات في حفر خنادق مضادة لانتشار حرائق الغارات الجوية و تجاوزنا الواحدة

تلوى الأخرى قنطرة تسورومي دون إنذار . فجأة ظهرت فوق رؤوسنا عالية في السماء طائرة وحيدة كانت أجنحتها الفضية تلمع تحت الشمس , صاحب امرأة : آه أنظروا . مظلة جوية و استدرت لأنظر إلى ما كانت تشير إليه وفي هذه اللحظة بالضبط احتل برق خاطف كل السماء أسبق الدوي أم هل كان الدوي الذي مزق أحشائي هو الأول . لا أتذكر , وجدت نفسي على الأرض ملتسقة بها , وتهاوى العالم آنذاك حوالي على رأسي . على كتفي .

لم أرى شيئا , فقد أظلمت الدنيا في عيني , استطعت أن ازحف . كانت هناك رائحة رهيبة في الهواء , ظننت أن القنبلة التي ضربتنا احتراقية أو أنها من الفسفور الأصفر مثلما كان يتساقط منها الكثير على مدن أخرى . مسحت أنفي بـ"التنقي " أي بنوع من الخرقة اليابانية التي كنت أحملها معي و ما راعني إلا والجلد التصق بها و كذلك جلد يدي , والذراعين . فمن المرفق إلى أصابع , انسلخ الجلد عن العظم وبقي معلقا بصفة مضحكة , وخيل إلي أن جلد يدي يخلع وكأنه قفاز.

عندئذ تملكني رعب لا يوصف وأردت الهروب لكن إلى أين . لم يكن حولي إلا الأنقاض ,وكان الناس بالمئات يتخبطون في النهر , أكانوا رجالا أم نساء , كنت عاجزة عن التقرير , كانوا كلهم في نفس الحالة وجوه منتفخة وشعر أشعث , أيديهم منتفخة : كانوا يقفزون في الماء وهم يصرخون من الألم .

رأيت أما دامية الوجه والكتفين تحاول الدخول إلى منزل يلتهب أراد أحدهم منعها من ذلك فصرخت : اتركني , اتركني فابني يحترق في الداخل , كانت كشيطان هائج . تحت قنطرة كوحين رأيت عددا كبيرا من الجثث العارية , وبحافة النهر , رأيت امرأة على الظهر وبلا نهدين تعوم في دمها .

كيف حدثت هذه الفظاعة ؟ و تذكرت آنذاك أوصاف جهنم البوذية كما كانت ترويها لي جدتي عندما كنت صغيرة ".

وبما أن ترسانات الدول تحتوي على عدد من القنابل الذرية كاف لتدمير الأرض أربعين مرة , و بما أن مدنا عربية كثيرة مرشحة للدمار الذري نظرا لما يغلي في القدر العالمية والمحلية من آلاف التناقظات المعقدة القومية والدينية والعرقية والنفسية والاقتصادية ... و ... و... و... فلا بد من أن نعلم على الأقل كيف ستحصدنا هذه القنابل الجهنمية بثلاث وسائل أساسية :

1. الحرارة : تؤدي انفجارها إلى رفع الحرارة بصفة سريعة و مفاجئة , وتبلغ في نقطة سقوطها **4000** درجة أي مائة مرة حرارة يوم قائض في الصيف , وتقل الحرارة نسبيا إذ تبلغ **500** درجة "فقط " إذا ابتعدنا عن هذه النقطة بكيلومتر , ويموت كل من تواجد في هذه المنطقة في لحظة بأن ينقلبوا إلى قطع متناثرة من الفحم .

2 . الريح : يؤدي سقوط القنبلة إلى مضاعفة الضغط من **5** إلى ثماني مرات مما يؤدي إلى انفجار الرئتين و الأمعاء و المثانة داخل الجسم من جهة , و من جهة أخرى إلى خلق ريح عاتية صرصر تبلغ سرعتها **800** كلم في الساعة تدمر كل ما يعترضها من بناءات و قناطر على كيلومترات .

3. الإشعاعات : على الأمد القصير تظهر أعراض التسمم و أهمها الشعور بالإرهاق و الغثيان و التقيؤ و الحمى و الإسهال ,و قد يموت الإنسان في هذه الفترة , أما إذا أبل فإن خطر السرطان و خاصة سرطان الدم هو الذي يتهدد حياته على الأمد المتوسط و البعيد .

إنه الجزء الأظلم من حاضر غدنا , إنه الهشيم الذي ينتظر الشرارة لتشتعل النار .. و السؤال ما الذي أوصلنا و يوصلنا إلى هذا ؟

***

ما هو الشغل الشاغل لكل المجتمعات البشرية منذ بداية التاريخ إلى يومنا هذا ؟ و أقول الإنتاج "بشقيه " المادي و الفكري , مع العلم أنه في الواقع إنتاج واحد , لأن الفكر موجود في أبسط إنتاج مادي و المادة موجودة في أهم إنتاج فكري , و الاختلاف بين الاثنين في أي منتوج كمي فقط .ما الذي يجعلنا نقرر بأن الإنتاج هو هاجس البشر و ليس شيئا آخر ؟ أترى اختيارنا هذا نتيجة وجودنا في ظرف زمن معين وفي مجتمع معين يعاني من التخلف, و يتصور أن "الإنتاج والإنتاجية " حسب إحدى الشعارات السياسية المتداولة هو الحل للخروج من هذا التخلف , قطعا لا , لأن الهاجس ليس هاجسنا نحن فقط أو هاجس هذا العصر وإنما هاجس كل العصور وكل الشعوب.

لنستعرض أهم الأسباب لعذابات الإنسان كما تعرضنا لها و سنكشف أنها مرتبطة بصورة أو بأخرى بتطور وبخصائص الإنتاج الفكري . المادي .

1. ندرة أو انعدام الغذاء و الملبس و المسكن و الدواء , و كلها أمور مرتبطة بقلة الإنتاج " المادي " .

2. الظلم و الحيف الاجتماعي و الحرب في الداخل و الخارج , وهي من الترتبات الثانوية لقلة الإنتاج , إذ يقع هنا التفاعل بين الذئبوية الغرائزية و ندرة الصيد السمين , فتفوز الأقلية القوية بالنصيب الأوفر بالقوة , و لا تترك للأغلبية الضعيفة إلا الفتات و من ثمة ظهور الصراع بين الطبقات و بين الشعوب (أي الطبقات على صعيد العالم) وهو صراع ما كان له أن يظهر , لو كان الإنتاج يفوق حاجيات الأفراد و الشعوب , فنحن لا نتصارع مثلا على الهواء , أو على الشمس , لأن المادة متوفرة , و لكننا نتصارع على الأراضي الخصبة و منابع المياه , لأنها ليست متوفرة بالكمية المطلوبة , و قد أوشك مثلا جنس الهنود في أمريكا على الانقراض , لهذا السبب .

3. ظروف الإنتاج نفسها , فقد دفع الناس على مر التاريخ ضريبة هائلة لإنتاج هذا النزر القليل الذي يستولي على جل الذئاب البشرية و الذي يكفي بالكاد لسد رمق الأغلبية , و كم من مرة خطرت ببالي و أنا أمر بالسيارة حذو بقايا صهاريج و قنوات الماء المعلقة التي بناها الرومان بين زغوان و تونس , صورة آلاف العبيد المساكين الذين بنوا هذه القنوات تحت السوط متسائلا : كم من واحد مات منهم هنا في أفضع الظروف لتشيد على آلامه هذه القنوات التي تحدت ألفين سنة من الزمن ؟ و لا شك أن ظروف تشييد هذه الأخيرة لم تكن تختلف كثيرا عن ظروف تشييد هذه الأخيرة لم تكن تختلف كثيرا عن ظروف تشييد الأهرامات أو بناء السور الأعظم بالصين , أو جني القطن في مزارع فرجينيا ,أو إنتاج الحديد و الصلب في مصانع انقلترا في القرن التاسع عشر , أو بناء السدود في سيبيريا , فقد لعبت عوامل الاستغلال والقهر والألم الدائم وإنهاك القوى بنسب مختلفة في هذه الحالات . ونحن سنجد الكثير من مقوماتها إلى يومنا هذا عند عمال مناجمنا رغم حصولهم على بعض التعويضات التي لا تغير شيئا في الأصيل : طبيعة الحياة كتجربة مرة وشقاء في شقاء .

4 . قد تشكل في بعض الظروف وفرة الإنتاج (مثلما وقع في بعض المجتمعات المتقدمة) جزءا من متاعب الإنسان ولا نقول هنا عذاباته , لكننا سنكتشف لو دققنا النظر أن هذه الوفرة تخفي وراءها العوامل الحقيقية للمتاعب و من أهمها :

* ثمنها الباهظ كالتلوث الذي يحرم الإنسان من حاجيات أخرى كالمحيط النقي الجميل , وهو ما لم ينتبه إلى أهمية إبان الصراع المرير ضد الندرة الإنتاجية .

* تعميم الوفرة وهي أساسا مادية على حاجيات فكرية روحانية أي حاجة الإنسان إلى إنتاج من نوع آخر , مع العلم أن هذا الإنتاج نفسه قد يكون سببا من عذاباته , إذا كان قليلا رديئا , مهترئا مضللا .

وبهذا تتضح لنا البديهية الأولى أن قلة أو رداءة , أو عدم مطابقة الإنتاج الفكر مادي للحاجيات هي أهم الأسباب الحقيقة للداء العضال : الصراع المستميت بين الناس والطبقات والشعوب ,فالذئبوية هي إذن في آن واحد نتيجة هذه القلة ثم سبب من أسباب تعميقها ودوامها , فمن الواضح أننا عندما نطالب بإرساء مجتمع العدالة والمساواة الخ ...

في ظروف قلة الإنتاج و رداءته , فإننا كما يتعامل مع مرض بعلاج أعراضه السطحية دون النفاذ إلى أصيل المرض الذي يولد هذه الأعراض , وعن هذا كان فشل أغلب الأنظمة على مر العصور التي حاولت علاج الأعراض في غياب قدرة علاج المرض الدفين , لأن الحل في توفير إنتاج فكر مادي يفي بالحاجيات الضرورية لكل الناس في ظروف وبوسائل لاتحطمه . وذلك لضمان "انسانية " الإنسانية أي لتغليب ملائكيته على ذئبويته , معنى هذا أن الموضوع أي المشروع الخفي المبهم لكل مجتمع منظم هو تطوير الإنتاج إلى هذه المرتبة من النجاعة والوفرة الضرورية لجعل العدالة و المساواة والسلم من تحصيل الحاصل ؟

فمما لا شك فيه أن اكتشاف البخار و الآلة الميكانيكية بصفة عامة هو الذي وضع حدا للرق , لأن المجتمع لمم يعد بحاجة إليه , نظرا لتوفر طاقة أخرى غير الطاقة العضلية البشرية , و توفر فائض إنتاج يسمح بتعويض جزئي للاستغلال و تغيير طبيعة هذا الأخير , لذلك يمكن القول إن المهندس الإنجليزي (واط) نجح من حيث لا يدري حيث فشلت الأديان نفسها , لأن التكنولوجيا فعل و الأيديولوجيا ردة فعل .

معنى هذا إن مجتمعات الإنسان المسحوق , لا تفرز إيديولوجيا تعبر بها عن آمالها و آلامها فحسب , و لكنها تبرمج لنفسها بصفة لا شعورية مهمة المهام البحث عن بديل تكنولوجي يؤدي إلى تغيير طبيعة و ظروف الإنتاج ليسد حاجيات الإنسان من غذاء و مسكن و ملبس و كرامة و حرية .

لنركز عرضنا هنا على بعض الملاحظات الهامة :

1. إن الإنسانية اكتسبت سيكتسب أكثر فأكثر تجربة غنية في ميدان الخلق التكنوإيديولوجي , و إن تمكنها من تكنولوجيا متزايدة الفعالية يتصاعد بسرعة هائلة , قد نطلب منها المرور من الطاقة العضلية البشرية إلى الآلة البخارية أو الحيوانية قرونا طيلة , وقرنا واحدا للمرور من الآلة البخارية إلى المولدات النووية , و عشريتين للمرور من المولدات النووية إلى النزول على سطح القمر .

2. إن المرور من مرحلة تكنولوجبة إلى مرحلة أخرى يشكل منعطفا حضاريا هائلا , و هو المنعطف الذي يولد الثورات الناجحة . لذلك يمكننا القول مثلا إن ثورة " الزنج " أو ثورة سبارتاكيس على رأس عبيد الرومان , كانت مؤهلة بالضرورة للفشل , لأنها كانت سابقة لأوانها و غير مقبولة أساسا من مجتمع بنيت دعاماته على الطاقة العضلية البشرية , و من ثمة كانت مجرد تمرد و التمرد لا يجدي نفعا , لكن التغيير التكنولوجي الذي يجمع المجتمع يمر من حضارة إلى أخرى هو الذي يسمح بالتغيرات الثورية , فقد كان على الرق و الإقطاعية الاختفاء ن روسيا القيصرية و من الولايات الجنوب الأمريكي و من كامل أوروبا سلما أو حربا , لا شيء

إلا لأن التركيبة الاجتماعية المبنية على الرق و الإقطاع أصبحت هي نفسها عائقا لتطور الإنتاج , و بقية بقايا نموذج قديم له , و من ثمة ضرورة التغييرات السياسية الجذرية .

هل نحن نعيش اليوم مرحلة كهذه ؟

****

. آسف فقد نفذت هذه الجريدة .

قلت أعطني أي جريدة أخرى فأنا لا أبحث عن برنامج التلفزة الأسبوعي .

قال بخيت : أو تريد " لاكسيون " . قلت هل هي جريدة تونسية ؟ قال ك نعم و ستجد فيها البرنامج , أقنعني نظرة خاطفة على الصفحة الأولى و العنوان البارز أن البائع على حق و أن الجريدة محلية : استقبل الرئيس الوزير الأول برفقة وزير الخارجية و مستشاره الأول . و هو نفس الخبر الذي يتردد منذ أسابيع بل منذ سنوات . فالجريدة رمز من رموز الإعلام المتخلف . لا غرابة أن لا تنفذ مثل هذه الجريدة بأخبار كهذه من السوق يوم أحد في العاشرة ليلا . طويت برنامج التلفزة و بحثت عن سلة المهملات إلا أن الفضول شدني , لأنني لم أمسك يوما في حياتي أنموذجا منها , فتحت بقية الجريدة و تسمرت مكاني و أنا أكشف مقالا بالصفة الأخيرة (الصفحة الترفيهية) .

* قضية في استراليا : بويضات نقلت جراحيا من امرأة و أخصبت بمني زوجها في مختبر أدت إلى تطور جنينين وقع الاحتفاظ بهما في الجليد , و السؤال هو أيجب متابعة تطورهما " لولادة " طفلين ؟ . أم يجب وقف هذا التطور خاصة أن الوالدين ماتا في حادث مرور

* قضية أخرى في مرسيليا هذه المرة : ثكلى تقدم قضية ببنك المني للحصول على المني الذي تبرع به زوجها قبل موته و ذلك لتحمل منه و هو ميت .

* قضية ثالثة : بعض الشاذين الجنسيين من الذكور يتطوعون للحمل , و ذلك بزرع الجنين (الذي وقع الحصول عليه بالإخصاب داخل الأنابيب) في بطونهم .

* قضية رابعة : امرأة تعرض رحمها للكراء أي لتطور جنين أنابيب .

و انفجرت ضاحكا , أنا الذي أتتبع في المجلات العلمية منذ سنوات بكثير من الجدية (و بشيء من القلق) شتى مظاهر الثورة في ميدان البيولوجيا . نعم انفجرت ضاحكا و أنا أتصور صحافي بداية العصر الحجري (الصحافيين الرسميين) ينقشون على الصفحة الحجرية الأولى " الخبر المثير " حول عودة الصيادين من رحلة صيد بغزال سمين , و في مكان متواضع من الصفحة الأخيرة خبرا عن إشاعة حول استعمال بعض القبائل المعادية لمادة غريبة من بعيدو تحرق كل من يلمسها في حين أنها تشع الدفء حولها ليالي الشتاء الباردة . و جنحت بي المخيلة فإذا بي أقرأ خبر الصفحة الأولى لجريدة لاكسيون المحلية لنهاية العصر الحجري : علمنا أنه وقع التباحث في شؤون القبيلة , و في آخر صفحة : يشاع أن قبائل جزر الواق قد بدأت تسكن نفس الأماكن طوال السنة , فلا تتنقل جريا وراء الصيد كما يروى أن ذلك مردة تمكن هؤلاء الأغراب من الحصول على نباتات مغذية من الأرض بصفة دورية و الآلهة أعلم .

و قرأت للاكسيون القرن التاسع عشر ببريطانيا خبر الصفحة الأولى بالألوان الأحمر الغليظ : الدوقة و نشستر تستقبل عقلية سفير النمسا و تشرب معها الشاي مرفوقا بشيء من الكعك .

أما خبر الصحفة الأخيرة فلا بد عزيزي القارئ أنك تصورته : " مهندس مغمور اسمه واط يحاول استعمال البخار في تجارب مضحكة , و يقال إنه يحلم ببناء آلات تتحرك بدون حاجة إلى الحيوانات بل و تفوقها سرعة و هو أعزائي القراء أمر مستحيل علميا و هذيان من وحي الشيطان .

يقول أرسطو : الإنسان أمام البديهيات كالخفاش أمام النور : أعمى . و نحن اليوم كخفافيش أرسطو أمام بديهيات جديدة تعمي أبصارنا و لا نراها . منعطف آخر في مسار التجربة العظمى .

****

كيف و لماذا دخلنا الحضارة الرابعة ؟

سنجد أنفسنا كلما استعملنا مفهوم الحضارة نتململ بكثير من الضيق داخل الاصطلاح , لأننا سنعني به شيئا مخالفا لما هو متعارف عليه , لماذا ؟ لأن " ألفين طوفلر " على حق (منهجيا) عندما يلاحظ أن الإنسانية لم تعرف إلا حضارتين : الزراعية و الصناعية (و يشبههما بالموجتين) , فالرومان و العرب و الإغريق و الفرس الخ ... ينتمون في الواقع إلى نفس الحضارة (الزراعية) لأن التكنولوجيا واحدة و حتى التنظيمات الفكرية كثيرة الشبه رغم الاختلافات الظاهرية , والفرق الهائل . والشرخ الفاصل يكون بين هذه "الحضارات " وحضارتنا العصرية المعتمدة على طاقة مخالفة ووسائل إنتاج مخالفة وتصور مخالف للعالم .

لنحاول إذا تجديد المفهوم من هذه الوجهة النظرية الجديدة : الأمم ليست بالأخلاق وإنما بالإنتاج , إذ ذهب إنتاجهم ذهبوا . والحضارة ليست إلا حصيلة إنتاجها من الأساطير و التنظيمات والمواد المصنعة أو المستخرجة من الأرض , و قد تعودنا أن نفرق بين الإنتاج الفكري والإنتاج المادي , والحال أنهما وجهان لنفس قطعة النقد . فالارتباط محكم ووثيق يستعصي على الحل , إلا أننا نستطيع اعتماد هذا التقسيم للشرح والتبسيط , فيمكننا أن نقول أنه لا شكل و لا وجود لحضارة خارج إنتاجها لنوع من الطاقة كالطاقة العضلية الحيوانية أو البشرية , ونوع من الآلات كالمحراث أو العقل الإلكتروني . ونوع معين من العقائد ومن التشريعات . لذلك يسعنا أن نقرر أن الحضارة هي تكنولوجيا وإيديولوجيا أو بالأحرى هي تكنوايديولوجيا لا غير .

ونحن لن نتوقف هنا طويلا عند النقاش العقيم الذي ضيع من وقتي المثاليين والمادين :أي الإنتاجين أول وأهم , وأيهما خير وأبقى , فالآلة تفرز الفكر والفكرة تفرز الآلة ومحاولة إعطاء الأولوية لهذا العمل أو ذاك تذكر بالمعضلة الشهيرة أيهما سبق الآخر الدجاجة أم البيضة .

لنسمي إذن حضارة جملة الوسائل التكنولوجية والفكرية التي تتوفر عليها الإنسانية في وقت ما ,وأنظمة حضارية , الأشكال المتباينة ظاهريا والمتشابهة فعلا التي تترجم لهذه الحضارة في الزمان والمكان . فنقول مثلا إن النظام الحضاري الفرعوني كان أول و أهم الأشكال التي تمخضت عنها الحضارة الزراعية والنظام الحضاري الأوروبي الغربي أول شكل من أشكال الحضارة الصناعية الخ.

ملاحظة أخيرة : يقصر (إلفين طوفلر) التاريخ على تتابع حضارتين : الزراعية والصناعية لكنه يغفل أهمية الحضارة البدائية , والحال أنهما الأساس التي تراكمت فوقه الحضارتان المواليتان . وسنرى فيما يلي أننا لا نستطيع أن لا نغفل تأثيرهما إلى يومنا هذا .

يكون التاريخ إذن في تتابع حضارات ثلاث . تمخضت كل واحدة منها عن عدد كبير من الأنظمة الحضارية وهي التي يقضي المؤرخون عمرهم في وصفها .

الحضارة الأولى

زمنيا يمكن تعريفها بأنها الفترة الطويلة التي سبقت اكتشاف الزراعة , ونحن نعلم أنها امتدت عشرات آلاف السنين وبالتالي فهي أطول الحضارات عمرا .

ارتكزت تكنولوجيتها على الحجارة المصقولة ثم على القوس والنشاب , وهي آلات في منتهى البساطة (أي الفقر المعلوماتي) أما الطاقة المعتمدة فتكاد تكون أساسا الطاقة العضلية البشرية المستعملة للصيد والقنص ولجني ثمار ما تصادف من نبات . وقد فرضت حالة التكنولوجيا هذه وطبيعة أسلوب الحياة القاضي بالجري الدائم وراء الصيد , شكل هذه المجتمعات البدائية . فهي مجتمعات كثيرة الحركة , قليلة العدد , في تنافر دائم لامتلاك أكبر عدد ممكن من مساحات الصيد . وقد عكست بصفة أو بأخرى هذه الحالة نفسها في الإنتاج الفكري والمتميز بغنى وتنوع الأساطير . الأديان الناتج عن تذرر المجموعات البشرية المنتجة لها هذا التذرر المفروض بلا مركزية الصيد والقنص . ومن الطبيعي أن تفسح الأساطير

. الأديان لهذه الحضارة المجال للحيوان بشتى أشكاله الرمزية , نظرا لتلاحم المصيرين والدور الحيوي الذي يلعبه في حياتنا . ويمكننا أن نعتبر أن غنى الأساطير . الأديان نوع من الجرد لكل الفرضيات التي يمكن لفكر يافع لم يملك بعد نواصي التحليل العلمي وضعها لتفسير العالم , وتلعب هنا المخيلة الدور الأساسي في القيام بهذا الجرد .

وبما أن التكنولوجيا البدائية لا تمكن من السيطرة على العالم , فإنها ستولد على الصعيد الرمزي نوعا من السيطرة الخيالية (في علاج المرض مثلا) وهذه إحدى أهم خصائص هذه الحضارة .

والجدير بالذكر أن الحضرة الأولى رغم تراكم طبقتين جيولوجيتين تاريخيتين (الحضارة الزراعية والحضارة الاجتماعية) لا زالت متواجدة إلى يومنا هذا بيننا وداخلنا .

فالبعض من المجموعات البشرية المعزولة (والآخذة في طور الانقراض المتسارع) تحيا تحت ظلها , إلا أن تواجدها الأهم داخلي متغلغل في ثقافتنا من حيث نشعر ولا نشعر .

فالانتقال من حضارة إلى أخرى يلغي التكنولوجيا السابقة , ولكنه لا يلغي الأيديولوجيا المتماشية معها وإنما يهضمها ويدمجها , فتبهت معالمها رويدا رويدا ولكنها قلما تختفي , مثلا لم يلغ انتقال الإنسانية من الحضارة الثانية إلى الثالثة , الشكل الإقطاعي لأنه الميز لهذه الحضارة . وإنما أضعفه كثيرا , ولازالت الحضارة الثالثة تتعامل مع أيديولوجيا الحضارة السابقة في إطار علاقات بالغة التعقيد سنتعرض لها فيما بعد .

الحضارة الثانية

سؤال : نقول حصلت الثورة الروسية سنة **1917** , أي حدثت تغييرات جذرية في التشكيلة الحاكمة , و ذلك بانتصار البرولتاريا على الأرستقراطية , و افتكاك مقاليد الحكم منها . و الكلمة هي أقوى ما يوجد في القاموس لوصف التغيير العميق داخل المجتمع , ما الذي يبقي لنا إذن لنصف التغيير الهائل الذي يحدث عندما تنتقل الإنسانية من حضارة إلى أخرى ؟ كيف سنصف ترتبات اكتشاف النار و الزراعة و البخار و الهندسة البيولوجية إذا اعتبرنا الثورة مجرد تغيرات سياسية داخل نفس النظام الحضاري ؟ لنتفاهم على أنني أعني بالثورة الترتيبات الهائلة التي تنجر عن الانتقال من حضارة إلى أخرى , بينما يمكن اعتبار التغيرات انقلابات لا أكثر ....السياسية داخل نفس النظام الحضاري

و الذي حدث بانتقال إنسانية من حضارة الصيد و القنص إلى حضارة الزراعة لم يكن انقلابا إنما ثورة الثورات ,و الانتقال النوعي الأول في حياة الإنسانية .

زمنيا يمكن توقيت ميلاد الحضارة الثانية بالاكتشاف الزراعة و ترويض الحيوانات و ترتبات هذين الحدثين معروفة بما فيه الكفاية : نشأة التجمعات السكنية , نشأة العائلة , نشأة الدولة , نشأة الأديان الكبرى ... نشأة التعلق بالأرض أي الوطنية الخ ... لنركز من جديد هنا على ترابط التكنولوجيا بأيديولوجيا , فالطاقة المعتمدة في هذه الحضارة أساسا حيوانية و خاصة بشرية , إذن لا بد من تسخير أكبر عدد ممكن من الوحدات العظلية للمكوث في نفس المكان و القيام بأعمال أغلبها شاقة و ملتصق باستغلال الأرض و من ثمة نشأة العبودية فنشأت أحلام التحرر التي تجسدت في شكل الأديان المختلفة جوهريا عن الأساطير الدينية للحضارة الأولى . فالمحور الرئيسي للسيناريو الديني لم يعد التصالح مع القوى الغيبية و استرضاءها لتعيين الإنسان الحر الطليق على صيد سمين لتبعد عنه المرض الموت , و إنما هو انتظار العدل من إله مركزي ليحرره من عبودية الجديدة بمرسل, يكون تارة ابنه نفسه و تارة أخرى كليمه أو مصطفاه .

و من البديهي أن فكرة الإله المركزي مرتبطة , أشد الارتباط بالتنظيم السياسي المفروض بطبيعة التكنولوجيا . و تشكل مصر الفرعونية أولى النظم الحضارية الزراعية أحسن نموذج لدراسة هذا الترابط . فانتصاب مجموعات بشرية منتجة و مستقرة و متجمعة فرض قيام حكم مركزي يضمن التنظيم و الحماية (و الاستغلال في نفس الوقت) . و قد تجسد هذا الحكم في شخص الفرعون الذي شكل النموذج الخفي لإله الديانات الوحدانية الثلاث , فنحن نجد جل خصائص هذا الفرعون : القوة و العظمة الخ ... مصعدة بكيفية هامة في التصور الوحداني " للفرعون الأكبر " , إن صح التعبير . لا غرابة إذن أن تنشأ الوحدانية في مصر عن طريق المنظر الأول لها إخناتون .

و لا غرابة أن يعتنق أول ديانة وحدانية العبيد الذين جعلت منهم حالة التكنولوجيا آنذاك المصدر الوحيد تقريبا و للطاقة و أهم أدوات الإنتاج . في الإله المركزي ضمان تحررهم المنشود , لا لأنه أقوى من فرعون فحسب و إنما لأنه خلافا له لا يريد لعباده (عبيده) إلا التحرر من كل الاستبداد . و من ثمة خطأ المقولة الماركسية الدين أفيون الشعب لأن الدين في أساسه أول مشروع تحرري في التاريخ . و سنجد نفس الجدلية تقريبا بين استبداد التكنولوجيا في القرن التاسع عشر في مصانع بريطانيا , و سحقها لعظام البروليتاريا , و بين ظهور المشكل الجديد للمشروع التحرري : الماركسية .

لنذكر أن الحضارة الثانية سادت العالم طيلة آلاف السنين الأخيرة , و لكن نجمها إذن بالأفول منذ قرنين تقريبا . قد أصبح عدد الفلاحين أقل من ستة بالمائة من مجموع السكان في بلد أمريكا , و هي تتراجع في كل بقاع العالم لتفسح المجال التكنوالديولوجيا عالم جديد يرتكز على طاقة البخار و الفحم و البترول لا على عضلات العبيد , و ستخرج جل إنتاجها من المصانع لا من الأرض أو من الحيوان .

الحضارة الثالثة

الزمان : نهاية القرن 19 المكان أوروبا الغربية , الموضوع المطروح : هل ستؤدي هذه المصانع المتكاثرة إلى تغييرات جذرية في تركيبة المجتمع و في تصوره للعالم ؟ أم هي ستبقى جيوبا معزولة يهضمها عاجلا أم آجلا المجتمع الزراعي القديم ؟

نحن اليوم نعرف الرد على هذا السؤال : قلبت الصناعة المجتمعات القديمة رأسا على عقب وأدخلت تحويرات جذرية فيها إلى درجة أنه أصبح من الصعب إيجاد صلة ترابط بين الحقيبتين التاريخيتين .

على الصعيد الاجتماعي

يقول طوفلر إن الآلات الجديدة فرضت نظام المصنع . وقد ترتب عن هذا :

* انقراض الفلاحين و ظهور فئة جديدة لم تكن معروفة من قبل (البروليتاريا) .

* ضرورة تكديس العمال في مدن ضخمة لتوفير الحاجيات المشتركة والمركزة من الطاقة (الفحم البترول) .

* خلق تصرفات جديدة مفروضة بالعنف إلى أن تصبح فيها بعد من التصرفات الاجتماعية الطبيعية كالانضباط و الحضور في الوقت " وحب " العمل و اتقانه الخ ...

* الفصل بهذه التكنولوجيا الجديدة لأول مرة في التاريخ بين الإنتاج و الاستهلاك .

فقد كان الفلاح الحضارة السابقة ينتج جل استهلاكه و يستهلك جل إنتاجه , و قل ما كان وصل من هذا الإنتاج إلى السوق ليحصل منها على بعض البضائع القليلة .

أما في إطار الحضارة الصناعية , فالأمر جد مختلف , فلا العامل و لا العرف بقادر على استهلاك ما ينتجه و من ثمة فإن جل الإنتاج موجه للسوق الخارجية و هذا يتطلب عدا استغلال قوة الشريحة الجديدة (و ما ينتج عنه من ردود فعل سياسية عقائدية كالماركسية) الحصول على أكبر عدد ممكن من الأسواق للحصول من جهة على الطاقة الضرورية لعمل المصنع , و من جهة أخرى على إمكانية تصريف البضاعة التي ينتجها هذا المصنع .

و يمكننا أن نصنف إذن إلى ما لا نهاية التغييرات الاجتماعية الهائلة التي أدت إليها الثورة التكنولوجية الصناعية و ظهور البروليتاريا و تراجع طبقة الفلاحين و من أهمها : التطور السريع للمدن الكبرى , النزوح من الأرياف , تفكك أوصار العائلة الفلاحية , أوقات العمل , نوع السكن , التعليم : و أفتح قوسين هنا للتركيز على علاقته بالثورة التكنولوجية , إذ يلاحظ (طوفلر) أن المدرسة ليست إلا الشكل المقنع للمصنع . نحن نعتقد أننا نضع فيها فلذات أكبادنا لكي " ينهلوا من منابع العلم " , و الحال أن البرنامج المدرسي ليس إلا تعلة ليتعلموا الانضباط و الحضور في الوقت ,و الانصياع إلى الأوامر جماعيا و فرديا , أي لتعلم التصرفات الضرورية كمنتجين و مستهلكين للتكتولوجيا الصناعية .

و لهذه الأخيرة ترتبات حتى في ميدان الصحة إذ نلاحظ تراجع أمراض معينة كانت منتشرة إبان الحضارة الثانية , و ظهور أمراض أخرى كحوادث الشغل و الأمراض النفسية , و كذلك ظهور" مصانع الصحة " أي المستشفيات التي تعمل كأي دولاب من دواليب الحضارة الثالثة وفق نفس القوانين . أما على الصعيد النفسي للأفراد , فكلنا نعلم سلبيات الحياة المعاصرة (السرعة , الإرهاق , الازدحام) و كلنا نعرف أيضا إيجابياتها (مزيد من الحرية , من الرفاهية , الخ ...) لنتتبع الآن بعض نتائج الثورة على الصعيد السياسي .

يقول (ألفين طوفلر) إن اختفاء الدويلات القابعة وراء حدودها كان أمرا حتميا لأنها كانت تقف حجر عثرة في وجه التطور المبادلات التجارية الجديدة المفروضة بتصاعد الإنتاج و بضرورة تصريفه في سوق واسعة , لا غرابة أن تنهار الحواجز المصطنعة في كثير من الدويلات الألمانية و الإيطالية في القرن التاسع عشر , لا قبله و لماذا ؟ لأن الروابط العرقية و الحضارية و التاريخية المتواجدة من قديم الزمان التي لم تكن كافية لكسر الحدود المصطنعة بين ممالك الطوائف وضّفت لتكون تعلة بناء السوق الموحدة المفروضة بطبيعة و حجم التكنولوجيا الجديدة .

و نحن نعرف في عصرنا مفعول هذا القانون : فالصراعات السياسية بين الإمبريالية و الوطنية , ليست أكثر من صراعات للتمكن من أسواق تصريف مواد التكنولوجيا .فكريا

لا جدال أن الماركسية و اللبرالية افرازتان من إفرازات التكنولوجيا . فلولا المصانع لما كانت البروليتاريا , و لولا البرليتاريا لما كانت الفلسفة الماركسية , و لولا الماركسية بالطبع لما كانت الصراعات النظرية المعروفة .

لكن تأثير التكنولوجيا لا يقف عند هذا الحد , فتصور الحضارة الثالثة للكون مثلا (و الذي عرف بالإلحاد المادي) مبني على اعتباره آلة بالغة التعقيد تتحكم فيها قوى ميكانكية موضوعية كالتي تتحكم في آلة النسيج . التي قبلت حياة الأفراد و المجتمعات .

ملاحظتان أخيرتان: لا بد من إشارة إليهما للتذكير للتعقيد الهائل للعلاقة بين التكنولوجيا و الإيديولوجيا, و بين مختلف الطبقات الجيولوجية الحضارية .

1. لم تعرف كل النظم الحضارية الزراعية الوحدانية , إذ قنعت بعضها بتصريف مكتسباتها الموروثة على الحضارة الأولى ,كذلك هناك أنظمة حضارية صناعية من تجدد إيديولوجيتها (الشيوعية) أو حتى تحافظ مثلما هو الحال في أمريكا على معتقدات الحضارة السابقة .

2. و مع هذا فإن من طبيعة كل التكنولوجيا جديدة أن تولد إيديولوجيا جديدة لا تظهر بدونها أو تكون سابقة لها .

3. توجد مراحل انتقالية للمرور من حضارة إلى أخرى و هو حالنا اليوم في الوطن العربي و من شأن هذه الفترات أن تغذي التنازع بين الناطقين باسم هذه الإيديولوجيا و تلك . و هو تنازع لا مفر منه و لا يستطيع إلا الزمن أن يضع حدا له (و عادت لصالح الجديد).

نصل إلى السؤال , بما أننا نعايش منعطفا في تطور التكنولوجيا وبما أن الارتباط بينها وبين الأيديولوجيا عضوي وضروري .

فما هي الترتبات الممكن عن صعيد الاجتماعي والسياسي الفكري للتكنولوجيا الغازية , وهل من الممكن أن نستعد لها وأن نوظفها قبل أن يغمرنا الطوفان من جديد ,كما غمرنا في بداية القرن طوفان الحضارة الثالثة ؟

لنتوقف في البداية عند أهم معالم هذه التكنولوجيا لنقدر فيها بعد ترتيباتها الاديولوجية .

الطاقات المتجددة

نرتكز على حضارة من النوع المعين من الطا قة , ويرتكز الاختلاف بين الحضارات أساسا على نوع الطاقة المعتمدة والطاقة التي ستنبني عليها الحضارة الجديدة لها خاصتان :

1. هي متجددة و بالتالي فهي تختلف اختلافا جذريا عن طاقة الحضارة الثالثة (الفحم , البترول , الغاز) , في لا تستخرج من باطن الأرض و بالتالي لا خوف من نضوبها و توقف كل الدواليب التي تسيرها .
2. وهي لا مركزية , أي أنها لا تتواجد في أماكن معينة من الأرض البترول في الخليج في بعض الأماكن الأخرى دون سواها , و ذلك لسبب بسيط : تنوعها و غناها . لنأخذ مثلا الطاقة الشمسية : وهي متواجدة في كل مكان , و تطوير تكنولوجيتها مسألة وقت لا أكثر .

فتمكننا من إنتاج الكهرباء بأسعار زهيدة , لا على الصعيد العام فحسب و إنما على المستوى الخاص .فمن المتوقع مثلا أن تؤدي الصناعة المتطورة إلى خلق مولد كهربائي شمسي خاص يعمل على صعيد البيت , و ذلك بالإضافة إلى الاستعمالات الأخر المباشرة للشمس كالتدفئة المنزلية أو التهوية الخ ...

لكن الطاقة الشمسية المعروفة ليست إلا إحدى مظاهر الطاقة الجديدة . فالاكتشافات العلمية و التكنولوجية تمكن اليوم من استعمال عدد كبير من الوسائل لتوليد الكهرباء (ومن ثمة أي عمل) كالريح , أو حتى أمواج البحر ,كما يقع حاليا في اليابان , كما تتطور يوما بعد يوم تكنولوجيا استخدام ... الفضلات المنزلية كمحروقات .

كم تريد من نسخة من نفسك ؟

هذه قائمة الأمراض التي يتوقع القضاء عليها (أو على الأقل محاصرتها كما وقع السل قبل نهاية القرن) .

الملاريا : و يصيب هذا المرض ثلث البشرية , و سيقع التغلب عليه نهائيا عندما يتم صنع اللقاح ضده و الأعمال الحثيثة في هذا الميدان خاصة باستعمال تكنولوجيا الهندسة البيولوجية .

السرطان : من المتوقع أن يقع التحكم فيه نهائيا في التسعينات و السرطان هو السبب الثالث في النفايات في البلدان الغنية (مع العلم أن جل أدوية المستقبل ستستخرج أما من البحر أو يقع صنعها في الفضاء) .

الأمراض بالفيروسات و الجراثيم : و هي متعددة و شائعة جدا وهناك عديد من الأمراض الأخرى كالربو و السمنة , و تسوس الأسنان التي يتوقع أن يتم تطويقها بفعالية متزايدة قبل نهاية القرن المقبل .

و يضاف إلى هذه النتائج الممكنة للأبحاث المتعلقة بالشيخوخة . و قد أعطت التجارب مشجعة لبعض المواد مما يجعلنا نتصور ارتفاع معدل للحياة بعشر سنوات على الأقل و انتظار الثورة في ميادين متقدمة من علم البيولوجيا التي ستدخلنا عالم الخيال العلمي و من أهم الميادين التي ستحصل فيها هذه الثورة .

1. ميدان التناسل : لقد إلى بعض الإنجازات التي دخلت الآن حيز التنفيذ : إخصاب بويضة امرأة (تستخرج جراحيا بمني (زوجها أو رجل آخر) ثم أعاد زرعها في نفس المرأة أو رحم امرأة أخرى (ماذا يقول القانون التونسي في هذا الأمر و أيهما أم الطفل) .

* إخصاب بويضة بمني داخل أنبوب ثم تجميد الجنين و الانتظار سنوات قبل إعادة زرعه في رحم ما" و جني الثمار"

* الكشف داخل الرحم على عدد هائل من الأمراض الوراثية و تشخيصها و من ثمة إجهاض الأم كلما بان خلل , و هذا ما قد يؤدي إذا توفر الكشف العام بثمن زهيد و التخفيض من عدد المعاقين .

* إخصاب بويضة بمني و الحصول توأمين يولد واحد و يبقى الآخر مستودع أعضاء فيمكنك مثلا على نسخة من رئتك أو من قلبك إذا أصابهما الوهن بعد حياة طويلة و من المرجح أن تقنية زرع الأعضاء ستتطور بيولوجيا بهذه الطريقة و ليس كما خلنا ذلك باعتماد بديل ميكانيكي , لكن ما هي حقوق النسخة ؟

* إخصاب بويضة ... ببويضة أي إخصاب الخلية الأنثى بخلية أخرى أنثى كذلك و هذا ما سيؤدي إلى ولادة امرأة إجباريا , ماذا سيقول القانون و العرف و الأدب في ابنة أمها و أمها ؟

و تبقى كل هذه الاكتشافات مجرد فلكلور إذا ما قارناها بما قد تخبئه لنا الأقدار و المختبرات في موضوع الخلود ... نعم الخلود رأينا الأبحاث حثيثة لاكتشاف إكسير الشباب , لكن هناك أبحاث لا تقل جدية في ميدان البيولوجيا المتقدمة لاكتشاف سر الخلود .

نظريا لا شيء يفرق بين الخلية الأولى التي تولد عنها كل الجسم و خلية جلدية مثلا فكليهما تحمل كل البرنامج الوراثي لكن الخلية الجلدية مختصة أسكتت كل الأوامر التي تحتوي عليها باستثناء مقطع بسيط هو المقطع الجلدي .لنتصور أننا أجبرناها على النطق لكامل البرنامج . النتيجة تكون حتما في إعادة بناء جسم بكامله معنى هذا أنه في حالة نجاح هذه التقنية يمكنك إعطاء بعض الخلايا الدموية مثلا (الأعمال جارية حليا على خلية من الكريات البيضاء) فيسحب في حالة النجاح المصنع البيولوجي ما شئت من النسخ من نفس السيناريوهات المتعددة تستطيع تربية نسخة منك عوض أن تزعج نفسك بزواج أو إنجاب أو تستطيع استعمال كمستودعات بولوجي لأعضائك إذا هرمت (لكن هل سيسمح بهذا القانون المستقبلي أو تستطيع و أنت على أهبة الموت التأكد من أن نسخة منك قد سحبت لأنها سترث كل ما تملك (إذا سمح بذلك قانون المستقبل) و بالتالي ستكون ضمنت لنفسك نوعا من الخلود وأقول نوعا فقط لان النسخة لا تحمل إلا خصائصك الوراثية أما معلوماتك وتجاربك فلا تورث اللهم إلا إذا أكتشف العلم أسلوب النقل هذه التجارب من جهازك العصبي إلي جهاز النسخة . وهو السيناريو الذي وصف في كثير من كتب الخيال العلمي .

هي حجر الزاوية بالنسبة للحضارة الجديدة بل وربما هي أهم معالمها , ستجد هذه العقول الإلكترونية (المتصاعدة التعقيد , المتزايدة رخصا يوما بعد يوم) أينما ذهبت في التعليم , في الإدارة , في البنوك , في المصانع ستجدها وراء كل الأعمال : غزو الفضاء , إدارة المستشفيات , تعلم الشطرنج , قيادة الطائرات , التنقيب عن النفط , طبخ أكلتك الشهية و تدبير منزلك في غيابك وغياب الزوجة المحترمة تذهب إلى طبيبك فيفحصك ثم يدخل في حوار مع جهاز لا يتجاوز حجم الكتاب فيأتيه بمعلومات هامة للتشخيص و الوصفة الدقيقة ستخلص من التحليل و الجهل الطبي و هو أوسع انتشار مما تضن و سيؤدي مزج العقل الإلكتروني و الروب (الإنسان الآلي) إلى تطوير هذا الأخير بصفة رهيبة قد يؤدي يوما إلى الاستغناء عن كثير من المهن (أشاوس مثلا أو العامل الذي يقوم بأعمال رتيبة) . هل تعلم مثلا أن مثال هذا الإنسان الآلي المدار بالعقل الإلكتروني يساهم في صنع السيارات باليابان , و أن السجون الأمريكية ستعتمد عليه لحراسة كبار المجرمين , و أنه قد يغنيك يوما عن خادمات الفقر و الهوان (و يغني خادمات الفقر و الهوان عن دينارتك القليلة) مما سيطرح بالضرورة معادلات صعبة على مستوى التشغيل , يجبرنا عن إعادة النظر حتى في مفهوم العمل , لكي نقدر أبعاد الثورة .

تصور أنك ياباني تسكن مدينة ميتاكا و تصور أن لهذه المدينة نظاما إعلاميا بالغ التطور يرتكز أساسا على جهاز مركزي أي على بنك مركزي للإعلامية , تصور أنك من بين الآلاف من المواطنين المرتبطين بجهاز فردي إلى المركز (مثلما أنت مرتبط بجهاز التلفزة إلى الإذاعة و التلفزة المركزية مع فارق هام هنا هو أنك تستطيع تبادل المعلومات لا تقبلها بصفة سلبية) .

أول سؤال يتبادل إلى ذهنك لماذا تريدني أن أرتبط بهذا المركز الإعلامي و هل هذا في متناول الجميع ؟ مبدئيا اتصالك بالإذاعة و التلفزة الرسمية أو بجهاز توزيع الماء أو الكهرباء لن يكلفك الكثير و أنت لا تستطيع أن تستغني الآن عن هذه الشبكة ,كذلك لن يكلفك اتصالك بالمركز الإعلامي كثيرا , بل و سيصبح هذا جزء من حياتك , و أعود إلى الجزء الأول من سؤالك : لماذا يجب أن تكون على اتصال بالمركز ؟ و الرد بديهي لأن لك فيه كعصا موسى منافع شتى . ماذا على سبيل المثال ؟ راجع نفسك لحظة و تصور العدد الهائل من المعلومات التي أنت بحاجة يوميا ك مواعيد القطار , عنوان أقرب طبيب أخصائي في الأعصاب , سعر الدولار , سعر مواد البناء , سعر الطماطم , قانون الطلاق , الأحوال الجوية ....الخ .... هذا إذا لم تكن طبعا طالبا في السنة أولى حقوق أو بحاث في ميدان الفيزياء النووية بأمس الحاجة إلى مراجعة آخر مقال صدر في أحدث المجلات العلمية الأمريكية . لا شك أنك ستكون مرتاحا للحصول على هذه المعلومات و أنت في عقر دارك تتحاور مع البنك عبر جهازك , تلقي عليه ما شئت من الأسئلة فيرد , تصور ربح الوقت الهائل و الأتعاب التي تعتبرها اليوم عادية في جريك وراء المعلومات . لكن منافع الإعلامية لا تتوقف عند الحصول على ما يهمك من أخبار فالنظام قدرات أخرى ستغير حياتك رأس على عقب إن أنت أجدت استعمالها و إن تمكن المجتمع ككل من استثمارها على أحسن وجه .

قف للجهاز ووفه التبجيل

تجمع أربعين طفلا في قسم (رديء التدفئة) و توكل بمهمة تعليمهم إلى معلم مرهق يردد نفس الشيء طيلة سنوات و تعتبر هذا (ناهيك عن برامج الفيحاء) من البديهيات في ميدان التعليم , حاول الآن أن تعتبر هذا التنظيم شكلا من أشكال التنظيم الصناعي الذي اتسمت به الحضارة الصناعية أي أنه على وشك الانفراط و حاول أن تكون تلميذا نجيبا بميطاكا .

كيف سيكون السيناريو : أنت من جديد في بيتك أمام جهازك الذي أدخلت فيه البرنامج الدراسي لليوم (درس الحساب و الجغرافيا مثلا) ... و الآن أدخل في حوار مع الجهاز و سيلقنك المعلومات الهامة ثم هاهو يعرض عليك جملة من التمارين للتأكد من فهمك و استيعابك , و الآن قم بتمارينك و اتصل عبر جهاز الهاتف المرفق بالجهاز بأستاذك (و هو الآخر في داره أمام جهازه) سيصحح التمرين و يرجع لك عبر الجهاز الإلكتروني في أسرع وقت . و الآن تابع دروسك وفق البرنامج الذي خطه لك المعلم (أو الأستاذ) لأنك مقيد بهذا البرنامج , قل لي هل يمكن مقارنة ما ستتعلمه و أنت وحدك أمام جهازك على اتصال دائم بأستاذك يكيف لك برنامجك و بين ما تتعلمه بين قطيع من الأطفال . هذا طبعا ليس خيالا و إنما واقع تلامذة ميطاكا و افرازة من إفرازات التكنولوجيا الحديثة . لكنني أراك تصرخ (إن كنت معلما) لكن ماذا عن هذه المهنة النبيلة ؟ أو تنفعل : و كيف سيتعلم الطفل الحياة الاجتماعية ؟ (أي البذاءة و الصراع من جملة الأشياء) . أقول لا تتعجل للاحتجاج و أمهلني إلى إحدى الفقرات المقبلة .

يسروا و لا تعسروا

لا شك أنك ستصبح من دعاة الثورة لا لشيء إلا لأنها ستعيد ترتيب علاقتك مع البيروقراطية البغيضة , هذا السرطان الخبيث الذي ينخر كل المجتمعات . السيناريو داخل تونس عندما تريد بطاقة ولادة أن تذهب بنفسك إلى البلدية, أن تتشاجر مع المتخلف الآتي بعدك لأنه لا يريد احترام الصف , أ نتواجه الموظف المحترم العابس الغاضب , أن تطلب منه بكل أدب هذه الوثيقة , أن يكشر و يصرخ في وجهك : أرجع غدوه , أن ترجع من الغد فإذا الوثيقة لم تحظر و البقية تجدها في تجاربك المريرة مع البلدية و الكوميسارية و الديوانة الخ ...الخ ... و الآن أنت مواطن في ميطاكا و تريد نفس البطاقة , أنت تتوفر على جهازك و على آلة بسيطة راقنة أخرى من نوع التلاكس . و الآن اتصل عبر الهاتف بالجهاز المركزي و اطلب البطاقة ... فإذا براقنتك بسرعة متناهية تعد كالبطاقة فإذا بها بين يديك ... تصور ربح الوقت لكن تصور الآن الترتيبات الخفية العميقة على الصعيد الاجتماعي : اختفاء الشاش اختفاء الوسيطات للتحايل على البيروقراطية تجعل من تعقيد مشاكلنا و حياتنا سبب وجودها أي أنها تخلق المشكلة ليكون حلها مبررا لهذا الوجود , تغير علاقات القوى داخل المجتمع و الاندثار البطيء لهذا السرطان الذي أفرزته الحضارة الصناعية الخ ... الخ ...

العبيد الجدد

قد يكون هؤلاء العبيد النسخ اللاقانونية أو الرجال الآليين " الروبوات " و قد يكونوا نوعا هجينا يجمع بين الإنسان و الإنسان الآلي أو الإنسان و الحيوان . لكن أكثر أصناف العبيد انتشار ستكون بدون أدنى شك الجراثيم فقد تقدمت الهندسة البيولوجية خطوات جبارة إذ يستطيع العلم أن يحقن الجراثيم بأوامر صنع بعض المواد قد تصنعها بدون مطالبة بالترفيع في الأجور أو حق التظاهر (و هذا مما سيجعلنا مثالا يحصى و لا يقاس عليه في ميدان العبودية) .

حاليا عدد المواد المصنوعة قليلا منها مادة الأنسولين , لكن هذا العدد سيتصاعد بسرعة و المؤمل أن تنتج يوما

الجراثيم جل حاجياتنا من الأدوية , و ربما من الأغذية . و من المؤكد أن حل مشكلة الجوع في العالم لن يأتي إلا بتطور الهندسة البيولوجية سواء كان ذلك بإجبار الجراثيم على صنع البروتينات أو تحسين الأصناف الزراعية و علف الماشية

لنتصور أن المصانع البيولوجية استطاعت توفير كل حاجياتنا من البروتينات ماذا ستكون النتائج ...؟ نحن نعلم أن زوال الحضارة الزراعية كحضارة مهيمنة أدى إلى زوال العبودية البشرية و قد أنهاها البخار و الآلة الحسّ الأخلاقي المرهف كما يعتقد البعض هل ستؤدي السيطرة على الجراثيم إلى القضاء على عبودية الحيوان (كمصدر للطاقة الغذائية) ؟ و بالتالي هل ستعرف الحضارة الجديدة فترة وئام بين الإنسان و أخيه الحيوان كما لم يعرف لها تاريخ الكون مثيلا ؟ ذلك ما أحلم شخصيا لمعايشته (أو بمعايشة إحدى نسخي له) . ذلك لأنني لا أكره شيئا كرهي لمنظر الأجساد الحيوانية التي تقطع دوما في واجه جزاري المتخلف . ومن المرجح أنني سأكون من أول مستعملي ا''ليفتيك'' الجرثومي يوم أنزل للسوق , لأنني أكره سفك الدماء ولو كانت دماء الخرفان والدجاج : وقد تشك في إمكانية حدوث كل هذا , تعتبره ضربا من الخيال , فبها ستكون ارتكبت خطأ فادحا لأنني لا أصف إلا الموجود , ففي معرض تسوكوبا الذي وقع في اليابان صائفة 1985 وقع عرض شجرة تنتج ... الطماطم بحجم البطيخ و من المتوقع أن تمكننا الهندسة البيولوجية من الحصول على الخرفان بحجم الفيلة , لاشك أن منظر عالمنا في القرن المقبل سيكون مثيرا جدا من هذه الناحية , بما سيفرزه من كائنات نباتية وحيوانية غريبة , فترتبات هذه الثورة بديهية , لقد أصبحنا نتوفر على كل الإمكانيات للقضاء على آفة هذا العصر.

الفتوحات

في بداية التاريخ كان الصراع قائما على امتلاك مساحات الصيد , ثم تطور إبان الحضارة الزراعية , فكانت الأرض هي الرهان , ثم احتلت السوق مكان كمركز الثقل والصراع والآن ونحن ندخل الحضارة الجديدة ما الذي سيشكل الميدان الذي سنتقاتل غدا من أجل امتلاكه والتحكم فيه ؟ والرد .. البحر ثم الفضاء ومن يدري ربما ... الصحراء . في بعض استعمالات البحر : استخراج المعادن , استخراج الأدوية , بناء مزارع بحرية تربى فيها الأسماك كما تربى الدواجن , إلى بناء مدن إما على السطح وإما في الأعماق .

كل هذه الأمور واردة من الآن والثورة التكنولوجية المتصاعدة الفعالية تسمح بهذا وبأكثر منه . لذلك ترى السباق على أشده بين العمالقة للتمكن من خيرات البحار . وسنبقى إنشاء الله نتفرج عليهم , وهم يتقاسمون الوليمة , كما يفعلون حاليا في ميدان الصناعة , أو نطالب بحقوقنا المهضومة في الأمم المتحدة .

في بعض استعمالات الفضاء : بناء المحطات الأوتوماتيكية حول الأرض , صنع الأدوية والمعادن , والقيام بتجارب علمية تستحيل على الأرض , استعمال الأقمار الصناعية (وهذا ما يحصل من الآن) للتجسس , وضبط الخرائط , ورش الأرض بالبرامج التلفزية التي ستصل كل شبر من الأرض , وتلغى الحواجز الدولية , كما ألغينا من قبل الأمواج الأثير (تصور مفعول هذا على التلفزة التونسية ... تصور الآن السلطة التي ستعطيها التكنولوجيا للشعوب الغازية للقضاء على (خير أمة أخرجت للناس) . والآن هل

يمكن أن نتصور أن الصحراء نفسها تصبح بفضل التكنولوجيا مصدر ثروة وقوة . لما لا ؟ ... ننظر إلى الهضاب العارية و إلى بحر الرمل ونحترق بالشمس هذا العدو اللدود , فنلعنها ألف لعنة ونرى الرياح العاتية تهاجم نخلاتنا العجفاء , فنخال الصحراء تصلح إلا للعبور بسرعة ,كل هذا صحيح لكن من منطق إنسان الحضارة الزراعية .

حاول الان أنك تملك طاقة غير طاقة الجمال , و أنك لا تنتظر من النبات الذي تجود به أرضا بخيلة شيئا ,لأنك تعرف كيف تسخر طاقة الشمس لخلق الكهرباء , و هذه لجلب الماء من الأعماق , و تعرف استعمال الصخر و الرمال (كمواد للبناء , لصناعات أخرى لا تخطر على بال). أو أنك تستطيع بفضل الهندسة البيولوجية زرع أسماك مختارة من النبات التي تتلاءم مع حرارة زائدة وماء قليل (أو كثير الملوحة) . و الآن أطلق العنان لمخيلتك و لا تتحرج ...فالمخيلة مع الذكاء هي من أهم ركائز الثورة التكنولوجية

الإعلام

تفتح الراديو و تسمع مئات الإذاعات بشتى اللغات و تأتي الأزمة العالمية أو العربية أو التونسية , وتفتح إذاعة لندن أو باريس وتدير ظهرك أو أذنك للخبر العربي الكاذب الساذج و أنت مقهور لأن لغة المتبني أصبحت لغة المذيع فلان لكنك مضطر لأن تفتح التلغباء (عفوا التلفزة)و محاولة اكتشاف ما تتعطش إليه نفسك المتعبة من ترفيه ثقافي , و معلومات نافعة .

و أنت مثلي تقفل في التلغباء بقرف أغلب الأوقات و تعود إلى كتبك لكن افرض أن لك الخيار بين عشرات البرامج التي تبثها الأقمار الصناعية أو حتى المحطات الخارجية . لن تلتفت بالطبع إلى أخبار التلغباء و إلى برامجها و من ثمة فإنك ستتشبع على مر السنين مثل مئات الآلاف من أمثالك بما تحمله الصورة الجديدة من قيم و مفاهيم و ستحاول شئت هذا أم أبيت أن تجد لهما ماثلا في بلادك .

و العملية كادت أن تقع مؤخرا لكن الظاهر أن الحكومة تصدت لرش القمر الصناعي الأوروبي لتونس ببرامج أوروبية . لكن عملية المنع هذه لن توقف تطور التكنولوجيا و سيأتي يوم تستعصي فيه حماية محيطنا الثقافي الذي سيواجه بتحدي مصيري أن يصبح من مستوى عالي أو أن يهضم .

و الآن لنتصور أبعاد مثل هذا الغزو الثقافي البالغ الخطورة البالغ الإنعاش أيضا .لقد عرفت كل الحضارات و كل الأنظمة بديهية قوامها أن تماسك المجتمع يفرض عليه تماسكا في المعتقدات و التصرفات و أن هذا التماسك لا يكون إلا بالتمكن مما يمكن أن نسميه "المونوبول الأيديولوجي " , لذلك قاومت كل الأنظمة الخطرة الآتي من الإيديولوجيات الأخرى و ضربت على أيدي المتصدين من الداخل لهذا المونوبول (الشيء الذي لم يمنع الانتفاضات و الشيع) .المهم أن هذا الأمر وفر على المجتمعات انقسامات , و الآن هل لأي مجتمع اليوم قدرة الحفاظ على المونوبول الأيديولوجي

لا طبعا و ذلك للسرعة الرهيبة للانتقال المعلومات و تداخلها و تشابكها و من ثمة تصدع المونوبول و تصدع المجتمع و تذرره إلى مجموعات فكرية تتزايد عددا و أهمية يوما بعد يوم . و من ثمة أيضا فشل كل المحاولات الأيدلوجية الرامية إلى صهر

المجتمع في بوتقة واحدة . معنى هذا أن لا المركسة و لا الأسلمة و لا الدسترة بقادرة على إلغاء هذا التذرر و التعرض له , , لأنه لا قبل لأحد بوضع سد مانع يوقف الهجمات الخارجية و تأثيرها الداخلي .

و القانون هذا و إن كان تأثيره على الأمم المتخلفة أوضح ساري المفعول على كل الأمم .

و الحل هنا أيضا ليس في البكاء على الأطلال و إنما في مواجهة الواقع الخطر الجديد لنكون غازين مغزوين . نتأثر و نؤثر , أما من يحلم بسد و بمونوبول و بدرع واق فللأحداث أن تقنعه بلا جدوى معارك الدفاع عن مواقع مكسورة مسبقا .

الطـــــاقـة ـ المادة الخام الأولـــــى

إن أكبر خطأ في التقييم قد يرتكبه القارئ هو أن يتصور أن الحضارة الرابعة تكنولوجيا أو لا تكون . و الحال أن المادة الخام و الطاقة الأولى لهذه الحضارة ليست الآلة , و إنما الفكر الذي يتنج هذه الآلة ,وإنه ليس بالضرورة مرتبطا بها لأنه قادر على حل كثير من المعضلات بتجاوز التكنولوجيا نفسها . و قد تتضح للقارئ هذه الفكرة الرئيسية إن هو تابع معي تفاصيل تعامل البحث العلمي المعاصر مع مشكلة من أخطر المشاكل الصحية في العالم : إسهال الرضيع .

أبعاد الكارثة

تقول الإحصائيات المنظمة العالمية للصحة :

. إن معدل حالات الإسهال في العالم إبان السبعينات حوالي **700** مليون حالة سنويا

. إن إسهال الرضيع هو أول سبب للوفيات لبلدان العالم الثالث و يتدخل بنسبة الربع فيها .

لنترجم هذه الحقائق المخيفة إلى أرقام .

. سنويا يقضي إسهال الرضيع على عشرين مليون طفل و ذلك قبل بلوغ السنة الأولى من عمرهم القصير .

. نسبة وفيات الأطفال في البلدان العربية تتراوح ما بين **60** في الألف و **250** في الألف . و تقدر النسبة في تونس ب**80** في الألف , إذا علمنا أن عدد الولادات سنويا هو **200** ألف , فإننا نستطيع بعملية حسابية بسيطة أن نقدر عدد الموتى بالإسهال سنويا من كل جيل جديد بأربعة آلاف طفل في تونس . و يرتفع هذا الرقم بالطبع إلى نسب أعلى في البلدان , كالسودان و الصومال .

الموضوع المطروح

لماذا يموت لنا سنويا أربعة آلاف بمرض نعرف أعراضه و أسبابه و نتوفر على أمضى الأسلحة لمكافحته ؟ و تطور السؤال من المهم إلى الأهم : كيف نستطيع أن نوفر هذه الآلاف من الأرواح البريئة ؟

أول ما نتبادر إلى الذهن أن النقص في الأطباء و المستشفيات هو السبب خاصة و أن النظرة الطبية الكلاسيكية للإسهال تقرر أنه يجب علاج الطفل بمستشفى بإعطائه المظادات و حقنه بالسوائل , لتعويض ما يفقد من الماء و الأملاح المعدنية التي يؤدي ضياعها بإسهال إلى الموت لكن التجربة هنا أيضا تفند هذا الرأي . فنحن نلاحظ مثلا أن بلدا كتونس نظرا لتواضع مساحته , و

كثرة أطره , يتوفر على الحد الأدنى من الإمكانيات البشرية و المادية . و مع هذا فإن ارتفاع التأطير الصحي لم يؤدي إلى اختفاء أو حتى تناقص هام في حالات الإسهال . إضافة إلى هذا فإن علينا إيجاد حل للمشكل في إطارها الموضوعي الحالي , أي ندرة الإمكانيات البشرية و المادية في بلدان العالم الثالث فنحن كأطباء لا نستطيع الاحتماء وراء نقص حقيقي أو نسبي للقول أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان . و من طبيعة التفكير العلمي الصحيح أن يجبرنا على إعادة صياغة مفاهيمنا و طرق عملنا , كلما اكتشفنا فشلا في مهمتنا , و من ثمة كانت إعادة صياغة السؤال كالآتي : ما هي العوامل التي لم نحسب لها حسابا في إطار نظرتنا الكلاسيكية مع مشكلة الإسهال , و التي تجعل معرفتنا المرض و لأسبابه و لأدوية غير كافية لحله ؟

كيف يمكن إيجاد حل في إطار الظروف الموضوعية الصعبة لبلدان العالم الثالث و النقص في الأطر و المستشفيات ؟

المستوى الجماعي

من البديهي أننا لا نستطيع التعامل مع مرض يتسبب في موت عشرين مليون طفل في العالم , بنفس الكيفية المتعامل بها مع مرض آخر كالزائدة الدودية مثلا , ففي الحالة الأولى نحن نواجه آفة جماعية تشكل وباءا أو جائحة , و من ثمة فإن الحال لا يمكن أن يكون مثلما هو الحال في المثال الثاني فرديا .

و من غير الممكن حتى لبلد له إمكانيات هائلة و معالجة كل حالات الإسهال بصفة فردية , ذلك لثمن الإنسان و الاقتصادي الباهظ .

و من الأنجع التعامل مع المرض كمشكلة جماعية , تتطلب حلا جماعيا يخرج عن نطاق المعادة الطبية الكلاسيكية مرض , فتشخيص , فعلاج فردي , لكن أي حل ؟ و تتبادل الإجابة إلى الذهن الوقاية طبعا , لكن المشكلة ليست بالبساطة التي نخالها .

ذلك لأن المعضلة لا تختفي بمجرد إشهار شعار جذاب , و لكنه طالما كون و لا يزال مجرد شعار .

المطلوب إذن من البحث العلمي" فك " المفهوم , و تفصيله إلى أدق جزئياته , لمعرفة أي وقاية نعتمدها لمكافحة المرض .

الوقاية بين الشعار و التطبيق

بقيت معالجة الوقاية مجهولة إلى بداية القرن التاسع عشر أي إلى أن أثبت الإنجليزي إيدوين شادويك , دور تلوث الماء في حدوث الهيظاء (الكوليرا) . فهو أول من أصاب في فهم دور الماء الصالح للشراب في الوقاية من أمراض الجهاز الهضمي الإنتاجية .

و باكتشافات "باستور "للجراثيم , عمم الطب مفهوم التلوث بالكائنات الحية الدقيقة إلى كل غذاء و على رأسه الحليب . و هكذا أدى فرض تعقيم الحليب سنة **1924** بفرنسا إلى انهيار نسبة وفيّات الأطفال بكيفية لم يعرف لها التاريخ مثيلا , كما اتضحت كل معالم الوقاية ابتداء من هذه الفترة . تتخلص في كيفية الماء العذب القي الغذاء الخالي من أي تلوث مهما كان مصدره .

لكن هذه الاكتشافات لم تؤدي هي الأخرى في العالم الثالث إلى نتيجة على الصعيد العلمي . ذلك لأن توفير الطعام النظيف و الماء الصالح للشراب أمر مرتبط بالتقدم الاقتصادي للمجموعة البشرية المعنية بالأمر , و بالتالي فنحن مهددون بالدوران في حلقة مفرغة إذا قررنا أن الوقاية من الإسهال لا تكون إلا بالتقدم الاقتصادي . فالفقر يولد المرض و المرض يولد الفقر . و نحن مطالبون بكسر الحلقة المفرغة لا بالدوران في داخلها إلى ما لا نهاية . أي أننا مطالبون لإيجاد حل مشكلة الإسهال من جهة في إطار الظروف الاقتصادية و الاجتماعية القاسية المتسمة بصعوبة , إن لم يكن استحالة توفر الماء النقي و الغذاء السليم من التلوث من جهة أخرى استحالة علاج كل حالات الإسهال فرديا داخل مستشفيات تعاني من اكتظاظ رهيب .

و هذه الخصائص هي بالطبع خصائص المجتمعات التي تعاني من الجائحة أي المجتمعات الفقيرة و المتخلفة التي تنتمي إليها جل المجتمعات العربية الإسلامية .

التربية الصحية أو البديل الممكن

لنعد إلى طرح الأسئلة , علنا نهتدي إلى حل يخرجنا من الحلقة المفرغة .

1. لماذا يموت الطفل ؟ على وجه التدقيق الموت نتيجة التوغل الجرثومي أو الحموي ؟ و هل لا بد من القضاء على هذه العوامل لإنقاذ حياته ؟

وكان الرد على السؤال الأول بسيطا : فالطفل يموت نتيجة فقدان الماء و الملح مما يؤدي إلى جفاف الجسم و هي الحالة التي نسميها " نقص التميّه الحاد " . و عندما لا يؤدي إلى الموت فإنه يترك مضاعفات خطيرة كالتخلف الذهني و إصابة المخ .

المهم أن أغلب حالات الإسهال مع خطر نقص التميّه الحاد عند الرضيع نتيجة أغلاط في تغذيته ,كالانقطاع عن الرضاعة الطبيعية و تلوث ماء الشرب و الحليب و سائر الأطعمة بالحمات خاصة .

هذا لا يعني أن الجراثيم الطفيليات لا تتدخل , لكن دورها متواصل نسبيا إذا قيس بدور الحمات .

يضاف إلى هذا أنها لا تقتل مباشرة , لا يستطيع الجسم التخلص منها بعد أيام , لكنها تقتل بتضييع الطفل للماء و الأملاح المعدنية الضرورية عن طريق الإسهال , إبان الهجوم الحموي , و من أصبح السؤال : كيف نعوض للطفل ما فقده من ماء و أملاح معدنية بانتظار تغلب الجسم على حمّات الإسهال ؟

نتذكر هنا أن رأي الطب الكلاسيكي يقضي بإدخال الطفل إلى المستشفى و حقنه بالسوائل المغذية . و نتذكر استحالة تعميم هذه الطريقة نظرا لعدد المرضى و اكتظاظ المستشفيات .

هنا تولدت الفكرة : لماذا لا نعطي الماء و الأملاح المعدنية عن طريق الفم ؟ و لماذا لا نكلف الأم نفسها بعلاج طفلها و وقايته من خطر نقص التميه الحاد ؟ و قد أثبتت مئات التجارب صحة هذه النظرية أي إمكانية إعادة التميه عن طريق الفم , و ذلك باستعمال مسحوق الاوراليت التي تضعه المنظمة العالمية للصحة بسعر زهيد و مزجه بالماء المغلي , أو إذا لم يوجد هذا المسحوق , استعمال الملح و السكر , وفق طريقة معينة , و قد قررت أكثر من **70** دولة في العالم اعتماد هذه الفكرة البسيطة

لبناء برامج وقائية لمحاربة إسهال الرضيع , بصنع هذه المادة و تعميمها و تثقيف الأمهات .و الحل كما نرى ليس في استعمال التكنولوجيا و انما في استعمال المادة الخام الأولى الفكر .

و لنركز من جديد على الثورة المنهجية في هذا المثال الذي يبرز الدور المتصاعد في الحفاظ على الصحة , الطاقة . المادة الخام الأولى للحضارة الرابعة .

الـــــــــخد مـــــــــة الـــطبـــيـة

عودنا النموذج التقليدي للفكر و للعمل الطبي على أن ننتظر من الطبيب خدمات محددة أهمها (التشخيص و العلاج بالأدوية , بالأشعة , بالجراحة الخ ... و الكثير منا يتصور أنها مرتبطة بتقدم الآلات و التكنولوجيا) .

لكننا نواجه هنا حالة جديدة و هي أن العلاج و الوقاية لا يكونان بتدخل مادي , و إنما بوضع معلومات علمية تحت أكبر عدد ممكن من الناس . كما تتضح هنا فكرة هامة ألا و هي أن هناك ميادين معينة لا ترتبط فيها نجاعة التطبيب إلا بنشر المعلومات . حقا هذا العامل غير وارد في ميدان كعلاج الزائدة الدودية , لكننا رأينا أنه يكاد يكون العامل الأول في حل مشكلة الإسهال . و هناك العديد من الميادين التي يتدخل فيها عامل نشر المعلومات أو التثقيف الصحي للحد من المضاعفات الأمراض الأكثر انتشارا .

قيمة المعلومات

رأينا أن توفير كمية معينة من المعلومات عن الإسهال لأكبر عدد ممكن من الناس , يمكن أن يوفر حياة الملايين من الأطفال و مبالغ باهظة للدولة . معنى هذا أن المعلومات ليست خدمة طبية فحسب نحسنها بالبحث , لكنها ثروة لا تقدر بثمن , وهو ما أصبحنا اليوم نعي به و نتنبه إليه .

ولا غرابة في هذا , ونحن ندخل عصر المعلوماتية , و علينا نحن العرب أن نعي أهمية هذه الثورة الحضارية والعلمية والتي يجب أن نكون من روادها بعد أن فاتنا ركب الثورة العلمية للقرن السابق .

فقد كان القرن التاسع عشر عصر المادة والطاقة , سيكون عصر المعلومات والمواضيع المطروحة حاليا في هذه القطاعات المتقدمة من العلوم هي :

كيف نجمع ؟

كيف نصنف ؟

كيف نخزن ؟

كيف نوزع المعلومات ؟

تكون إذا الدعامات الثلاث التي تبني عليها الحضارة مستقبلا المادة , الطاقة , المعلومات (بشتى أصنافها) .

وانتباهنا في الطب إلى أهمية جمع المعلومات و تبويبها و نشر الهام منها بالتثقيف الصحي إنما يدخل في إطار هذه الثورة الشاملة التي أصبحت فيها المعلومات مادة كسائر المواد الأخرى تكفل بصفة مغايرة الثروة والصحة والمناعة للأفراد والشعوب .

ومن الترتبات السياسية

الحرية الأولى أخيرا ؟

لنسم التحرر من المرض ومن الجوع الحرية الأولى والتحرر من الاستبداد بالحرية الثانية , ولنعتبر أن الحرية الثالثة المشاركية أرقى الحريات . و تتجلى في قدرة كل دماغ على إطلاق العنان لقدرات الخلق و الابداع الكامنة فيه .

ما هي إمكانيات تكنولوجيا الحضارة الرابعة و تحقيق و لو جزء من هذه الحريات الرئيسية ؟ من البديهي أن طبيعة الصراع داخل المجتمع ناتجة عن انتشار الخصاصة , لا عن وجود غدة العدالة الاجتماعية داخل أدمغتنا . افرض أنك وزعت كل الخيرات بمنتهى العدل حتى في تونسنا اليوم , لكن في إطار قلة الإنتاج و الإنتاجية التي نعرفها , لم تتحسن وضعية الأغلبية بصفة هامة رغم ما قد يخيل لك . فالظلم الاجتماعي هو نتيجة الفقر الجماعي و ليس سببه . و الفقر الجماعي هو حصيلة تأخر التكنولوجيا و سوء استعمال الطاقة الدماغية في هذا الإطار لا معنى للحرية إذن و المطلوب ليس العدل بقدر ما هو توفير ظروفه .

لقد كانت قدرة الحضارة الزراعية على إعطاء الإنسان هذه الحرية الأولى ضعيفة رغم خرافة "محلاها عيشة الفلاح " الذي كان طوال القرون الرمز الصارخ للفقر و المذلة و المرض و الاستعباد و الجهل المطبق . و قد شكلت الحضارة الثالثة خطوة هائلة إلى الأمام , إذا ارتفع إنتاج بشكل ملحوظ , مما مكن جزءا لا بأس به من البشرية من الحرية الأولى لكنها لم تحل إلا جزء من المشكلة و ذلك لسببين :

1. بقي ثلثي البشرية محرومين من هذه الحرية .

2. دفع لها ثلث المحرر ثمنا باهظا في العمل الشاق الرتيب في المصانع و تكدس الناس في المدن المكتظة و العمارات الشاهقة و الضواحي البعيدة , و تمزق أواصر العائلة القديمة و عزلة الإنسان . السؤال إذن هل ستتمكن تكنولوجيا الثورة من تحرير الثلثين الباقيين , و بثمن زهيد و الرد : ربما لقد أصبح اليوم من الممكن عمليا إنتاج البروتينات و الأدوية بهندسة بيولوجية , كما أن تطور الزراعة إذا لحقت بتكنولوجيا الطاقة الشمسية , و النباتات الجديدة , و تقنيات الري الخ ... يجعلنا نأمل نهاية المجاعة و توفير الغذاء لمليارات إنسان جائع . أضف إلى هذا تطور الصناعة نفسها باستعمال الإعلامية و الروبوتية , مما سيؤدي إلى تحرير العامل من الروتينية و الرتابة أن تكنولوجيا الثورة قادرة على أن توفر إنتاجا أوفر لثلثي الذين لم تتوفر لهما الصناعة الحرية الأولى . و عندها يمكن أن تتوفر بقية الحريات الأخرى و على رأسها حق تقرير المصير الديمقراطية .

الفكرقراطية

إن أهم ما ستتميز به الحضارة المستقبلية تغيير طبيعة الإنتاج و خصائص المنتجين . هل لاحظت أننا لو طبقنا النظام المركزي للإعلامية بميطاكا في تونس لأحال إلى البطالة جيشا عرمرما من الموظفين , أضف إليه الآن جيشا آخر من السواعد المفتولة التي تقوم بأعمال روتينية في المصانع المختلفة بعد استبدالها بتنظيم أكثر إحكاما , نتيجة إدماج الإعلامية بالإنسان الآلي (الروبو)

...و الآن أرم إلى الشارع بآلاف العمال بعد إغلاق عدد كبير من المصانع , لأن الإنتاج بالعقل الإلكتروني و الروبو يكلف أقل و يعطي إنتاجية هائلة و إنتاجا أرقى ...

أول من سيتبادل إلى أن هذه الحضارة التي ستزيد من حدة البطالة مصيبة و ليست نعمة , و اعتراضك هذا صحيح نسبيا , لكنه لا يجدي نفعا لأن الحضارة الثالثة طمست معالم الحضارة الزراعية , و لم يوقف هديرها احتجاج الفلاحين و الفقراء من البطالين و العمال المقموعين ... كذلك ستطغى الإعلامية الروبوتية , ستهدم الدعائم التي بنت عليها الحضارة الصناعية سلطانها و هذا التفوق لن يحصل إلا بعد أزمة خطيرة تعصف بكل المجتمعات المنتقلة من نمط حضاري إلى آخر . تسمع رئيس وزراء فرنسا يركز على أهمية تعصير الصناعة الفرنسية , و يعلن لك صراحة أن البطالة ثمن هذا التعصير أو أنه ثمن وقتي , فيصيبك الدوران و أنت تتصور الهوة السحيقة التي تفصل بيننا و بينهم , نحن الذين لم ننجح في الانتقال من الحضارة الزراعية إلى الصناعة القديمة , نحن الذين نبني استراتيجية تطورنا على التصنيع القديم .

لكن لنعد إلى قضية البطالة التي خلناها جزء من التعصير أو افراز اجباريا له . تقول الإحصائيات الاقتصادية أن اليابان هو أقل البلدان معاناة لظاهرة البطالة . و الحال أنه أول مجتمع حضارة رابعة . لماذا ؟ لأن تكنولوجيا هذه الحضارة تتطلب عددا هائلا من الطاقات , و من ثمة هي تخلق عددا كبيرا من مواطن الشغل لا لصنع الأجهزة فحسب , و إنما لتشغيلها . و تشغيلها هذا يرتكز أساسا على طاقة لا تنضب هي الطاقة الذهنية إذ لن يشتغل الجهاز قد يتصدر يوما مكتبك إذا لو تضع فيه برنامجا إعلاميا تشتريه من السوق حسب حاجياتك (برنامجا للإطلاع على الصحف اليومية , أو للقيام بعملك كمحاسب , أو لدراسة الطب , أو لتعلم لعبة الشطرنج الخ ...) كل هذه البرامج هي نتيجة عمل فكري بالغ التعقيد في بعض الأحيان . و تصدق نفس الظاهرة على باقي مظاهر تكنولوجيا الثورة . فهي إذن تلغي أعمالا و وظائف لكنها تخلق أعمالا و وظائف أخرى ... أعمال المستقبل .

نحن إذا مقدمون على استبدال كثير من السواعد المفتولة بالعقول المفتولة التي تخلق هذه التكنولوجيا و توظفها لتحسين الإنتاج أو لخلق إنتاج جديد . و الترتبات الاجتماعية لهذه الثورة بديهية , لأن هذا يعني ببساطة ظهور طبقة جديدة تختلف بصفة جذرية على طبقة الفلاحين و العمال . فقد ارتكزت الحضارتان الثانية و الثالثة على الطاقة العضلية لهاتين الطبقتين . لكننا نواكب بفضل التكنولوجيا الجديدة حدثا هائلا ألا و هو الدخول في أفول هاتين الطبقتين , و استبدالهما بهذه الطبقة التي تستمد في البلدان المتقدمة دورها و أهميتها من توفرها على الطاقة الذهنية أي على الطاقة المحركة الحضارة الرابعة .

و اندثار الطبقتين لا يعني طبعا اختفاء الإنتاج الفلاحي و لا الإنتاج الصناعي و لكنه يعني اختفاء إنتاج بدائي فقير من المعلومات . و من ثمة باهظ التكاليف من الناحية الإنسانية قليل المردود و الفعالية . فآلة الإنتاج مبرمجة من الآن لتصبح في المستقبل متزايدة الفعالية , لأنها متزايدة تتشبع بالمعلومات و بالفكر , لذلك سنجد من جهة تكنولوجيا تتطلب عددا متزايدا من القادرين على التعامل معها و تسييرها في كل الميادين . و على قارعة طريق الحضارة شعوب بأكملها مكونة من فلاحين و عمال أي من بقايا حضارتين في طريق الزوال , في الوقت الذي تنتج فيه مصانع سيارات اليابان بالروبو , و حقول القمح في أمريكا باستعمال

استشعار عن بعد و بالأقمار الصناعية للتنبؤ بالطقس أو باستعمال الهندسة البيولوجية لتحسين المشاتل و اغراق الدنيا بالقمح . و الحال أن عدد هؤلاء " الفلاحين " لا يتجاوز الستة في المائة من مجموع السكان .

تختلف إذا هذه الطبقة المكونة من جحافل الباحثين و التقنيين و المهندسين و الإداريين و مقدمي شتى أصناف الخدمات عن طبقتي الفلاحين و البروليتاريا , لكنها جد مختلفة أيضا عما يسمى بالمثقفين ,لان هؤلاء مبرمجين اليوم في الانصهار اليوم في بوتقتها , و أن يصبحوا جزء من مجموعة تتجاوزهم بعد أن شكلوا طوال التاريخ " أقلية مهنية " شاذة نوعا ما تحصى و لا يقاس عليها من البديهي أن المثقف لعب دورا كبيرا إبان الحضارتين الثانية و الثالثة كمعبر عن آمال و آلام الأغلبية المسحوقة من ثقل و حدود التكنولوجيا البدائية , و إن إنتاجه الفكري أضفى على الحضارتين وجهها الإنساني الذي نعرفه , إلا أن هذا الدور بقي على أهميته في التعبير (و حتى في التغيير) هامشيا , لان قوى الإنتاج كانت بحاجة إلى الطاقة العضلية أكثر مما كانت بحاجة إلى الطاقة الذهنية . أما و قد انقلبت الآية بظهور الحاجيات الجديدة فإن تغييرات جذرية ستدخل على وظيفته , و هو سيبقى كما كان في السابق معبرا عن آمال و آلام الضحايا التكنولوجيا القديمة و الغازية , لكنه سيجد في هضم هذه الأخيرة للطاقة الذهنية فرصة ذهبية ليصبح لأول مرة عنصرا فعالا بصفة مباشرة في إنتاج فكري مادي المتميز للحضارة الجديدة . فنحن نجده اليوم في بلدان الحضارة الرابعة كاتبا يحلم بغزو الفضاء عبر أدب الخيال العلمي . فتأتي وكالة الفضاء الأمريكية لتغرف الأفكار من شطحات خياله , و نجده عالم نفس و اجتماع في مجالس إدارة الشركات العالمية الكبرى أو البنتاجون .و نجده مؤلفا بالكاميرا منتجا في أبدع الأفلام و نجده باحثا علميا في خدمة المشاريع المستقبلية العظمى الخ ...أي أننا نجده لأول مرة جزءا لا يتجزأ من الطبقة المسيطرة : الفكرقراطية .

الوطنية الأخرى :

هل ستقضي التكنولوجيا الجديدة على الوطنية , أم هل ستعمقها ؟ و الرد أعقد من السؤال لأننا نعايش ظاهرتين متناقضتين . فمن جهة نلاحظ تعمق و انتشار الشوفنية و الوطنية و العرقية و الدينية في كل بقاع الأرض و مطالبة كل مجموعة مهما تناهت في الصغر بحقها في تقرير المصير .

و التوجه الفسيفسائي هذا هو أيضا من ترتبات التكنولوجيا , إذا أصبح التقارب الشديد و المتصاعد للسرعة يهدد الخصائص الوطنية و المجموعات البشرية , الشيء الذي يدفعها في إطار ردة فعل (بدائية و غير مضمونة النتائج) إلى محاولة الحفاظ بلفظ الكروموزومات المعلومات و العادات و التقاليد التي " هاجمتها " بها الطائرات و الأقمار الصناعية , إلا أن هناك تأثيرا آخر للتكنولوجيا و هو تصاعد الحركة نحو مزيد من اللامركزية داخل الوطن القديم. الصغير , و ذلك بفعل التزايد الرهيب في عدد الأدمغة التي تريد أن تتحكم في مصيرها , خلافا لما كان هو الحال عليه إبان حضارة استبداد الفرد أو الجماعة الضيقة , و هذا ما سيفرض الحكم الجهوي و البلدي . لكن الأهم من هذا التصاعد الهائل في تعقيد شبكة العلاقات (التجارية , الفكرية , الخ ...) بين مختلف " قبائل " الأرض . هذا مما يجعلنا نقرر أن من طبيعة التكنولوجيا الجديدة أن تعجل بظهور شعور انتمائي جديد

و هو العالمية . قد بلغت العلاقات الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية درجة من الاندماج أصبحت تستعصي على الحل , و جعلت من كل وطن مجرد جزء من الشبكة , يؤثّر عليها حسب وزنها , و يتأثر بها مهما كان هذا الوزن . و الإدماج هو حصيلة تكنولوجيا المواصلات و البرق و الهاتف و العقل الإلكتروني ...

و من ثمة يمكن القول أن الحركة الوحدوية العالمية ترتكز على خلق آلاف الصلات البالغة التعقيد بين الدول , بين المؤسسات الوطنية و القومية , بين الجامعات , بين العائلات , بين الأفراد , في إطار شبكة تربط مختلف مستويا ت التشكيلات الإنسانية بنسيج متين . قد بدأت هذه الحركة و نحن نعايش يوميا مراحل تطورها الانفجاري و لا نعي بأهمية ما نعيش , و بالتالي فإن تصوي إبان القرن المقبل إنه سيكون فيدرالية قبائل و جهات , و إن الانتماءات الوطنية و " القومية " ستبهت لصالح الانتهاء الضيق من جهة (إنما الحب للحبيب الأول) , و الانتهاء الأرضي من جهة أخرى . و إن من طبيعة التكتولوجيا الحديثة أن تغذي التيار الفسيفسائي و التيار العالمي في نفس الوقت .

لم يعد إذن بوسع أي أمة مهما عظمت أن تدعي أنها تتحكم في مصيرنا . فقد أصبح ارتباط المصير بين القبائل في القرية الرضية أوثق من أي يوم مضى و في أي عصر لكن علاقات القوة لم تختفي و لن ندخل عالم الاخوة المثالية . في إطار الحضارة الزراعية كان امتلاك الأرض هو القوة بعينها ثم أصبحت في امتلاك أدوات الإنتاج و السوق إبان الحضارة الثالثة . أما من الآن فصاعدا فالبقاء و التأثير الفعلي لن يكون إلا للأمم التي تمتلك التكنولوجيا المستقبلية , و لن يبنى التناحر على أمجاد الماضي و إنما على أهمية المشاركة في المغامرة الجماعية المستقبلة .

أقصى ما يمكن أن نطمح إليه العرب كمجموعة بشرية ذات نظام حضاري خاص بها ليس الاستقلال و لا السيطرة , و إنما هو التوازن في عملية التأثير المتبادل و ذلك بالمسارعة إلى هضم التكنولوجيا العصرية , لكي لا يفوتنا الركب مرة أخرى , و المساهمة في تطويرها , لكي نجد ما نقايض به وجودنا نفسه .

هل من مستقبل للحرية الثانية

إذا اعتبرنا أن الدولة هي الإطار القانوني لممارسة السلطة و التسلط داخل المجتمع و خارجه باسم هذا المجتمع , فإن علينا أن نتساءل ما هو تأثير التكنولوجيا الغازية عليها ؟ هل ستجد فيها كل إمكانيات ممارسة مزيد من الاستبداد ؟ أو هل ستجد الطبقات المقموعة فرصا جديدة للمضي قدما في مشروع التحرري ؟ و الرد مزدوجا بالضرورة , لأن التكنولوجيا ستعطي دفعا هائلا لقوى التحرر و دفعها هائلا في نفس الوقت لقوى الاستبداد .

حظوظ الاستبداد

إن الكهرباء التي تستعمل للإنارة و التدفئة هي اليوم من أهم وسائل التعذيب و ذلك بمقتضى قانون الاستعمال المزدوج لكل تكنولوجيا . و لا غرابة أن تجد الذئبوية في العقل الإلكتروني و الكاميرا و الصاروخ و القمر الصناعي , ما يمكنها من أحكام قبضتها و ممارسة مزيد من السلطة و التسلط . فيمكن مثلا على الصعيد الداخلي تجميع كل المعلومات عن الأغلبية الساحقة للناس . و بالتالي مراقبتهم سياسيا , كما تمكن التكنولوجيا الدول القوية من جل فرص السيطرة المطلقة على الأمم المتخلفة و بالتالي فإن الحريات الفردية و الجماعية مهددة أكثر من أي وقت مضى داخل كل المجتمعات . و المشروع التحرري في وضع حرج لأن عليه أن يكتشف وسائل جديدة مواجهة أخطار جديدة , و أسلحة جديدة , لكن فرص النجاح ليست منعدمة لأنه سيجد كما أوردت في نفس هذه التكنولوجيا ما يمكنه من المضي قدما في طريقه .

كيف ذلك ؟

الامتصاص و الانجراف

لا شك أن الدولة المركزية البيروقراطية الاستبدادية مهددة بصفة جذرية بهذه التكنولوجيا الغازية التي قد تحاول استعمالها لتركيز هيمنتها , فصلاحياتها أي سلطاتها اليوم أمام خطرين ماحقين : خطر الامتصاص و خطر الانجراف أما الخطر الأول فهو آت من السماء أو على وجه التدقيق من الأقمار الصناعية التي تقف اليوم القوانين القديمة و بعض الصعوبات التقنية أمام رشها بتلفزات كل البلدان بآلاف البرامج المختصة المتناقضة المتضاربة .و لكن المعركة مخسورة مسبقا , إذ سيأتي يوم نلتقط فيه البرامج التلفزية بالسهولة التي نلتقط فيها البرامج الإذاعية , و نحن لا ندرك الترتبات السياسية و الحضارية لأمر مثل هذا , و الحال أنها في منتهى الخطورة و هو ما سيدفع بالدول البيروقراطية القديمة إلى مكافحة الظاهرة بكل قوة . فرش الأقمار الصناعية لبلدان العالم ببرامج الدول القوية يعني منطقيا انتهاء المونوبل الإيديولوجي الذي تتمتع به الأنظمة السياسية داخل حدودها . و قد بدأ المونوبول يتصدع منذ بداية القرن بظهور الإذاعة و الصحافة لكن البرامج المرئية ستقضي عليه نهائيا و ستقضي بهذا على السلاح الأول الذي تعتمده الدولة لردع خصومها وفرض الالتفاف حولها : الأيديولوجيا . فسيجد الإنسان نفسه لا أمام حقائق مقدسة جامدة, لا يشوبها شك , وإنما أمام بظاعات أيديولوجية مختلفة واضحة أو مغلفة . و سيؤدي به هذا طال الزمان أو قصر إلى إعمال النظر في نسبيتها وتناقضها و وفرتها . وسيجد الإنسان في هذا الاختيار ما يهدد قناعاته و ما يؤثر سلبيا على تماسك عالمه الفكري ... وفي نفس الوقت ما يفتح عقله ويحرره من التضليل والتعتيم والمغالطة أي من جملة الأساليب التي تعتمدها الدولة الاستبدادية للاستظلال بقيم تخرقها قبل غيرها .

والدولة ليست مهددة بفقدان أول صلاحياتها كحامية لنسيج فكري موحد يمكننا من السيطرة المعنوية , ولكنها مهددة بفقدان كثير من قدرات التحرك على الصعيد الداخلي والخارجي , للارتباط الوثيق على صعيد العالم بين آلاف العوامل العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية البالغة التعقيد وهو ما يحد من قدرة التحرك ومن فاعلية القرار فأي دولة نتيجة هذا الترابط عاجزة عن التصرف المستقل . وسيتزايد هذا العجز يوما بعد يوم بتصاعد تعقيد شبكة العلاقات والارتباطات , فمصير الدولة أو النظام

السياسي الذي يوجه هذه الدولة في بلدنا اليوم مرتبط لا بإرادة الدولة نفسها أو بإرادة المجتمع, لكن بإرادة البنك الدولي , وتطورت القضية الفلسطينية , وإستراتيجية القوى العظمى وارتفاع سعر الدولار وحالة البطالة في أوروبا الخ ...قدس على نفس المنوال بالنسبة لكل دول الدنيا .

معنى هذا أن ما يسمى بالاستقلالية مفهوم تفرغه التكنولوجيا الحديثة يوما بعد يوم من محتواه , و بالتالي فإن الدول المستقلة ستعرف امتصاص الكثير من صلاحياتها , لصالح مؤسسات اقتصادية سياسية عالمية فمثلما ألغت تكنولوجيا الحضارة الثالثة حدود دويلات أوروبا , فإن تكنولوجيا الحضارة الرابعة بصدد إلغاء حدود دويلات العالم , و نحن نعيش بداية النهاية بالنسبة " لاستقلال " هذه الدول . و مما يزيد في خطورة وضعية الدول الاستبدادية ظاهرة الانجراف و ذلك نتيجة بروز ما أسماه (ألفين طوفلر) بالتميز الاجتماعي المتصاعد .

فالمجتمع الإقطاعي كان (رغم تعقيده النسبي) بسيطا إذا قارناه بمجتمعات الحضارة الثالثة و خاصة الرابعة فأنت لن تجد فيه إلا تيارا إيديولوجيا سائدا (الدين الرسمي) , و أقليات مقموعة , فئات اجتماعية قليلة ذات قدرات محدودة , لكن خاصية المجتمع المعاصر هو تصاعد عدد المكونات ووعيها بخصائصها و حقوقها في جزء من القرار , أنظر حواليك لتعي هذه الظاهرة حتى في مجتمعنا التونسي , أي بروز الطبقة الشغيلة و المثقفين و مختلف التيارات السياسية و تنوع التيارات الفكرية و تنامي الحس النسائي و الجهوي (ويشكل تعدّد الصحف ظاهرة أخرى على هذا التمايز التصاعد التعقيد) . و من طبيعة تزايد عدد الأدمغة الفعالة و عدد المكونات الاجتماعية أن يتصاعد الوعي و أن تتصاعد مطالب حق تقرير المصير , خاصة و أن القرار اليوم لأنه أصبح بالغ التعقيد , يتطلب تدخل عدد متزايد من الطاقات الذهنية , من الطبيعي أن نرى سلطة الحكومة تتقلص شيئا فشيئا و العملية لم تعرف توقفا , لأن كل القطاعات الاجتماعية ستطالب بمزيد من المسؤولية . و ستتحصل عليه بعد أن أدى أو يؤدي الاستفراد بالقرار إلى كوارث حتمية عرفنا منها العديد من العينات .

إن طبيعة المجتمع المتقدم هي التي تقتضي هذا . لذلك سبقتنا مجتمعات متطورة إلى نقل الكثير من صلاحيات الدول البيروقراطية إلى البلديات أو مجالس الجهات , و لا غرابة أن تكون أكثر البلدان تطورا أكثرها لا مركزية .

معنا هذا أن الدول الاستبدادية المتخلفة مؤهلة لا لانقراض و إنما لتصبح هيكلا وسطا له صلاحيات محدودة , تمتص الهياكل القومية أو التجمعات الجهوية الكبرى (الفدرالية العربية . الفدرالية الأوروبية مثلا) جزءا من صلاحياتها في حين يعهد بجزء متزايد الأهمية منها إلى العديد من المنظمات العالمية (الشركات العالمية أو كوكالات المختصة للأمم المتحدة) . كذلك ستعرف انجرافا تحتيا بتزايد قوة المؤسسات الاجتماعية المهنية و الإنسانية , و تتمتع الأطر المحلية للحكم كالبلديات و المجالس الجهوية , بصلاحيات متزايدة هي الأخرى : و ستجد الإنسان في هذا التفكيك لسلطات الدولة القديمة متنفسا على الصعيد المحلي أو الجهوي , في الوقت الذي ستتزايد أهمية القوى الفوقية التي تحركه و التي لم يكن يوما في مقدوره على كل حال التحكم فيها و توجيهها .

القانون أمام التحديات

لا أعجب لشيء قدر عجبي من القائلين بأن حل مشاكلنا يكمن في تطبيق قوانين الماضي . و الحال أن حتى قوانين هذا العصر تواجه مثلما هو في الغرب مشاكل لم يسبق لها نظير تجعل رجال القانون في حالة جري دائم وراء التغيرات الاجتماعية . و أقول إن كثير من عذابات الإنسان و من مشاكل المجتمع ناتجة عن دوام تصرفات و تشريعات ناتجة عن دوام تصرفات و تشريعات و أفكار كان لها معنى في طور معين من تاريخه , ثم أصبحت لاغية و عبئا ثقيلا عليه , و هذا في كل الميادين (إعلام أبله في واقع انتشار الوعي , نظام الحزب الواحد في واقع التعددية الفكرية و الاجتماعية , بيداغوجيا الحفظ و الاستظهار في واقع التجدد السريع للمعلومات الخ ...). نفهم الظاهرة تصدق على القانون و المنع ليس أبسط الحلول كما يضن البعض . و التحدي المطروح أمام المشرع اليوم أن يقول كلمته في كراء الأرحام في التلقيح الاصطناعي , في العمل المنزلي , في المزارع البحرية , في حقوق النسخ الآدمية (إن تواجدت يوما) في حقوق استثمار الطاقة الشمسية الخ ...

مشاكل لا عدا لها و لا حصر ..و حلولها في أعمال الفكر لا في استنباط قواعد من تجارب حضارة لا تمت بصلة إلى حضارتنا و مشاكلها . على كل ... تلوح في الأفق بوادر رسومات فكرية رهيبة بين الماضويين و المستقبليين في ميدان القانون ستبت إجباريا لصالح المستقبليين .

عن حظوظ الديمقراطية

توفر الحرية الأولى لا يؤدي أوتوماتكيا إلى الديمقراطية كما هو الحال في البلدان " الاشتراكية " أو سابقا في ألمانيا النازية كما أن الديمقراطية قد تسبق الحرية الأولى (الهند) .

لكن رغم هذه الاستثناءات الهامة يسعن أن نلاحظ أن هناك حركة تاريخية تحد بصفة متصاعدة من الديكتاتورية , لماذا ؟ هل لأن التأثير الأخلاقي يتزايد يوما بعد يوم على الحكام فإذا بهم يهتدون إلى سواء السبيل ؟ طبعا لا فاتساع رقعة المشاركين في القرار ظاهرة موضوعية هي نتيجة حتمية لعمل قوانين موضوعية . كيف ذلك ؟ أكثر المجتمعات معاناة للنظم الديكتاتورية المجتمعات الزراعية أو العقائدية .

و تبني هذه الديكتاتورية على ندرة المعلومات عند المستعبدين و قوة المونوبول العقائدي و استحواذ أقلية من المقدرات الجماعة أي استفراد الشخص أو المجموعة بالقرار , لماذا يمكن هذا الاستحواذ ؟ يرد طوفلر على هذا السؤال الهام برد بديهي لم ننتبه لأهميته نظرا لبساطته ألا و هو : يمكن الاستحواذ على القرار لأنه في المجتمعات الزراعية أو الصناعية المبتدئة بسيطة , واضح , افرض الآن أن المجتمعات تعقدت بصفة مهولة و ذلك بظهور حركات و تجمعات و مشاكل نظرا لتغيير تكنولوجي هائل . النتيجة أن القرار يصبح مفككا بالغ التعقيد إنه بحاجة إلى اللامركزية , و التخصص , و التشاور و التنسيق الخ ...و كلها أمور كان الخليفة الإقطاعي أو الديكتاتور العقائدي يجهلها و / أو يتجاهلها . و الخيار يكون أمام المجتمع عندما يبلغ درجة معينة من هذا التعقيد اللافعالية الاستبدادية مع أخطار التفكك و التمرد ... أو الديمقراطية أي إعادة توزيع القرار لكي يضمن المجتمع هذه الفعالية التي تجبره على التواصل إليها مستوى تكنولوجيته لا غرابة إذن أن نرى المجتمعات عندما تمر من مرحلة البساطة الزراعية

إلى التعقيد الصناعي تهشم النظم الديكتاتورية , أو نراها في حرب لا تهدأ ضدها إذا استطاعت الديكتاتورية بارتداء لباس العقيدة مواصلة التحكم في المجتمع الصناعي كما هو الحال في البلدان الشيوعية . لذلك مرارا أن الديمقراطية في بلدنا ليست هبة من الحكم و إنما هي النتيجة الحتمية لنضج المجتمع و لظهور جماعات و تيارات فكرية , تحاول إيجاد حل للمشاكل جديدة , إنها نتيجة للتعقيد المتصاعد للمجتمع , نتيجة الحمل القراري كما يقول طوفلر .

هذا الحمل لم يعد الحاكم بأمر الله , المتدكتر , المتجبر قادر على الاضطلاع به , لأن المجتمع المعاصر اليوم آلة رهيبة لا توجه إلا بتناسق آلات القرارات المختصة كل في ميدانه نظرا لتصاعد المعرفة و الوعي , و الميادين التقنية و قوة المتمكنين منها و المجتمع سيعرف تعقيدا في المستقبل لا قبل لأن حاكم متجبر بالتحكم فيه . معنى هذا أن المجتمع المدني المعاصر يكون فعالا أي ديمقراطيا أو لا يكون .

الصورة الجديدة للكون

لو سألت عابر طريق عن تصوره للعالم و عن رده عما سماه أحد الفلاسفة للأسئلة اللعينة (المتعلقة بطبيعة الإنسان و أصله و مصيره) , لا ختلفت الردود و تباينت و لأمكن تصنيفها حسب نوعية الحضارة المهيمنة التي يحملها هذا الإنسان في تلافيف مخه ,

و كذلك القيام بتصنيف ثانوي حسب النظام الحضاري لصاحب الإجابة .

لا غرابة في هذا , فلكل حضارة تصورها للأسئلة المصيرية المطروحة منذ بدأ الإنسان يفكر . و قد قلت إنها مرتبطة أوثق الارتباط بتكنولوجيا هذه الحضارة , (أو بعوامل أخرى ثابتة بالغة التعقيد كالنظام العائلي , و تركيبة نفسانية بشقيها الغرائزي و الفكري و قدرة المخيلة أو الحدس أو العلم داخل الإطار الذي تحدده العوامل الموضوعية المذكورة) . و قد ركزت بما فيه الكفاية على تراكم كل هذه التصورات , مما يجعلنا نحمل في الواقع داخلنا طبقات جيولوجية ميتافيزيقية . فكم من إنسان "عصري " تعرفه مؤمنا بالجدلية المادية و يتصور الكون كآلة عمياء , صماء , بكماء , تتحكم فيها قوانين سرمدية تكتفي بذاتها . و مع هذا يبتهل إلى الله ليحميه من المستبد الجائر في الأرض , كلما ألمت به مصيبة (رغم شعوره أحيانا بالخجل من هذا " الضعف ") .

و الآن ما هي ملامح الأسطورة الجديدة التي ستترسب يوما في شكل طبقة جيولوجية ميتافيزيقية رابعة ؟ (و من المؤكد أنها غير أخيرة , لأنه لا معنى للحقيقة المطلقة في ميدان كهذا) .

لا جدال أن ملامحها لم تكتمل بعد , لأنها لا زالت في طور البداية و لا يجب البحث عنها عند عامة الناس المتشبعين بتراكم الطبقات الثلاث (أو بالتعامل الأفضل مع إحداها أو مع اثنين منها) , و إنما نجدها عند فئة صغيرة جدا من كبار المفكرين العلماء المعاصرين و قد تجد طريقها أو لا تجده إلى العامة . و المهم ليس عدد المتشبعين بهذه الرؤية الجديدة و إنما ظهورها .

ولادة أسطورة أخرى

لنتصور مراقبا محظوظ يعد عمره بملايين السنين ينظر إلى عالمنا . سنراه يشاهد ولادة كوكبنا من شظايا إحدى شموس مجرة (و من واحد من جملة ملايين المجرات ذات الملايين من الشموس) . و الآن هو يتمتع بمشاهدة التغيرات الجيولوجية الهائلة على سطح الأرض , ثم ظهور أول خلية في أعماق البحر بفضل عمليات كمياوية بالغة التعقيد ثم تفرع آلاف الأصناف و الأجناس من النبات و الحيوان , ثم اختفاء الكثير منها و تطور أخرى . و الآن ها هو يمعن النظر في ظاهرة غريبة أسماها الإنسان , و هو غصن من شجرة الحياة الباسقة و حصيلة ملايين السنين من التطور البطيء . فيراه ينتشر على سطح الكوكب و يستعمره , ثم ها هو يدقق في أعماقه , فيرى تتابع الحضارات و الأديان و الأنظمة التي تتزاحم و تتابع بسرعة متصاعدة . و الآن هاهو يرى الإنسان نفسه يتغير بيولوجيا و نفسانيا و يتأهب لمغادرة قريته الكونية لاستعمار أرجاء الفضاء الفسيحة قبل أن تلتهم الشمس الكوكب الذي لفظته من حممها يوما . كل هذا في إطار كون نتتابع فيه عمليات الخلق و الإبداع لأنه كون حي , و يرجه أنه مليء بالفكر و الحضارات على سطح العديد من الكواكب , و لا متناه في المكان , لكنه متناه في الزمن ولد يوما وشب عن الطوق . و قد يدخل هو الآخر يوما ما في مرحلة احتضار تنتهي بالسكينة المطلقة , بالموت المطلق .

ثلاث ملاحظات حول هذا التصور للكون و الإنسان –لا ننسى إنه تصوّر النخبة المثقفة في الغرب يحاول الامتداد والتوسّع داخل الغرب نفسه ثمّ خارجه–

1. ارتباط الأيديولوجية بالتكنولوجيا هنا أيضا واضحا كل الوضوح . فقد مكن من جهة تطور المراقب الجبارة التي ترصد حركات النجوم و الكواكب و الصواريخ و الأقمار الصناعية الخ ... و من تكوين هذه الصورة الجديدة عن الكون , لكننا نجد من جهة أخرى أوجه شبه كبيرة بين تصور الكون الجديد ككائن حي في مرحة مخاض دائم (انفجار مجرات, تكون نجوم , كواكب , ظهور حضارات , اندثارها الخ ... و بين الواقع الاجتماعي الذي تمخضت عنه تكنولوجيا الحضارة الرابعة بملامحه الجديدة ..انفجار القنابل الذرية ...و الثورات و الانفجارات الاجتماعية القوية , و الصراعات الفكرية الهائلة , و كل هذه التغيرات التي تصبح في نفس المصب : انتقالنا من حضارة زراعية بطيئة التغيرات إن لم تكن جامدة إلى تصاعد في الحركة يتزايد سرعة , انتقالا من الحضارة الثالثة إلى الرابعة لا غرابة أن تكون الثورة في الأرض و الثورة في السماء , مرتبطين أشد الارتباط ببعضهما البعض .

2. تعتبر الثورة الفكرية للحضارة الرابعة , تعقد و ترابط الظواهر و الخلق المتتابع و تغيير اللامتناهي و انفجار كل التشكيلات و تركيبها المتجدد ,لأن كل تكنولوجيتها مرتكزة على أساس التعقيد و الترابط و التعهد الدائم و بالتالي فهي ترفض الأمور الجامدة المعقدة التي لا يمكن إلا أن تشكل بالنسبة إليها إلا حجر عثرة . لهذا ترى الكون كحركة لا تفتر و تتجاوز دوما نفسها بنفسها , تعتبر أن كل تشيكلاتنا الفكرية من فلسفات و ديانات و علوم و كل التنظيمات الاجتماعية و السياسية أشكال مؤقتة .

3. أين نضع مفهوما كمفهوم الله في مثل هذه البنية الفكرية ؟ هل نتصوره كعقل إلكتروني مركزي وضعت في ذاكرته كل المعلومات على الكون و كل الأوامر لخلقه و تطويره ؟

لا جدال أننا نجد نواة مثل هذا التصور في بعض قصص الخيال العلمي . و المهم هنا بالطبع ليس أن ندخل في جدل بزنطي حول قيمة هذا التصور , وإنما أن نفهم أن من طبيعة كل حضارة أن تحاول الرد على الأسئلة اللعينة , بمفاهيمها و هي مفاهيم تفرضها التكنوجيا بانتظار تطور نوعية الأسئلة و التصورات للحضارة الخامسة و الواحدة بعد الألف إن تواجدت يوما لنطمئن إخواننا المؤمنين بأن فكر الحضارة الرابعة العلمي المتقدم للكون و لمكانة الأرض و الإنسان فيه لا يلغي الله على عكس التصور المادي الميكانيكي للحضارة الثالثة الذي لا يجعل من الكون آلة ميكانيكية صماء , بكماء , عمياء , لكنه على عكس التصور الشخصي للحضارة الثانية يرفض أن يرى في الله حاكما إقطاعيا من أعلى طراز يتحكم في محاصيل المزرعة الكونية و مقادير عبيده المنهمكين في الإنتاج الصالح و التعبد لولي نعمتهم . فالله في التصور الجديد هو الفكر الجبار الذي تشكل الكائنات بمختلف أشكالها و أنواعها أفكاره , و من ثمة شبهته في كتابي " الطبيب و الموت " بأنه السيناريو و كاتبه , و كل الممثلين في نفس الوقت , و لهذا التصور انعكاسات هائلة على طبيعة العلاقة بين الإنسان و الفكر القدوس , ليس هذا الكتاب أحسن مكان لنقاشها .

***

استراتيجيات المواجهة

: المـــــشـــــاركـــــيـــــــة

لنعتبر التنظيم السياسي الشائع في كافة أرجاء الوطن العربي و المبني على الشخصانية و الحزب الوصائي الإقصائي و الإقلاع الفارغة , و السيطرة على جماهير الناس بفضل عنف الإعلام و عنف العنف .

أو الملاحظة حول هذا النظام أن الاحتجاج عليه بانعدام الأخلاقية أمر لا يجدي لأنه أحسن تنظيم سياسي ممكن و أكثر الأنظمة تماسكا و فعالية و جدوى ... لكن المجتمع الزراعي أو صناعي متخلف فهو يمكن من تطويق القبلية و الفوضى و فرض الانضباط وبالتالي من توفير الظروف الدنيا التي تمكن من خلق الحد الأدنى من الثروة و توزيعها و لو بصفة غير عادلة و نظام كهذا في مجتمع كهذا غير مطالب باحترام حقوق الإنسان بل بالعكس لأن الطاقة التي تدير آلة الإنتاج طاقة عضليّة بحت يتساوى فيها الإنسان بالحيوان و زيد مع عمر , و غالبا ما لا يفرضها إلا العنف , أم الفكر فهامشي إلى أقصى الحدود , بل هو سلبي الدور و الانعكاسات إذا عنا له أن ينظر لثورة المسحوقين في إطار انعدام البديل التكنولوجي.

لكن ما هي وضعية نظام هذا المجتمع كالمجتمع التونسي المعاصر مثلا ؟ .

لنلاحظ عرضا أن لأي نظام سياسي أيا كان يهدف إلى المحافظة على كيانه بموجب إرادة الحياة عند كل الكائنات أكانت بيولوجية , فكرية , تنظيمية . مكما يهدف إلى توفير الحدّ الأدنى من الإنتاج , مع العلم أن الهدفين مرتبطان لأن كل نظام يعرف مهما كان غبيا ذئبويا أنه لا بد من إطعام القطيع لجز صوفه , و المشكلة هي في عدم التطابق بين سرعة التطور التكنولوجيا و سرعة تطور الأيديولوجيا بما فيها جزئها السياسي . فقد تتغير الظروف التكنولوجية مودية إلى ولادة مجتمع جديد لكن بطأ تطور الأيديولوجيا و عدم قدرتها على مواكبة التغيرات الجذرية ,(لانها تنفيها من الأساس كهيكل فكري فعال وكغطاء سياسي لمصالح الطبقة الحاكمة) يدخل المجتمع في دوامة العنف ,نظرا للتناقض المتزايد العمق , بين البنية التحتية والبنية الفوقية ,كما يقول الماركسيون . وكلنا نعرف أن الثورات الناجحة هي مجرد عمليات تعديل الساعة , لكي يقع التوافق ولو مؤقتا بين المستويين . المهم أن النظام السياسي مؤهل لأن يصبح في تناقض جذري مع مهمته الرئيسية الثابتة . أي توفير الإنتاج , إذا عايش منعطفا تكنولوجيا يلغي دعاماته الأيديولوجية والمادية .

وأقول إننا نعايش اليوم مراحل استفحال هذا التناقض فنحن نعلم أن نسبة الفلاحين في تونس انخفضت إلى النصف , وأن الحضر اليوم أغلبية سكان البلاد. إن الخدمات (كالسياحة و الصناعة بأغلب اليوم جل الدخل الوطني . إن ارتفاع نسبة التعليم تتزايد يوما

بعد يوم , إن تشبع الناس بالمعلومات هو الآخر في تصاعد رهيب, وأننا مقدمون على تغيرات " جيولوجية " أكثر عمقا و سرعة في العشريات المقبلة , انظروا للغزو الإعلامي وظهور التقنيات الحديثة المتشبعة بالفكر لا بالطاقة العضلية.

من البديهي أن يدخل نظام الشخصانية والوصاية والإقصاء والقلاع الفارغة في تناقض كبير مع المعطيات الجديدة , وأن عيوب مثل هذا التنظيم ستطغى على حسناته , فالمطلوب في المجتمع الجديد تشغيل الطاقة الذهنية لأنها من ترتبات الثورة التكنولوجية ومن أسبابها أي من أسباب تطوير الإنتاج والإنتاجية , لكن مثل هذا النظام عاجز عن تطوير مثل هذه الطاقة , لأنها مؤهلة طال الزمن أو قصر إلى تدميره .فعندما يصبح في المجتمع آلاف الأدمغة القادرة على التفكير والتقييم والتخطيط يصبح القول بعبقرية الدماغ الواحد أضحوكة , وعندما يتصاعد عدد الأدمغة المفكرة بصفة رهيبة , يصبح التلقين الإعلامي الأبله مهزلة كما يصبح التنظيم الهرمي داخل المؤسسة الاقتصادية والجامعية حتى العائلية , أمر غير مقبول , لانه يحرم هذه الأدمغة . الطاقات من ممارسة صلاحيات تشعر أنها أهل لها .

وعن هذا الحرمان ينتج ما نعرف حوالي كلنا من شعور الإحباط والتمرد والنقمة خاصة وأن الأدمغة تقيم ضمنيا وتلاحظ دوما لكنها عاجزة عن التغيير للأسلوب القديم في التعامل مع المشاكل . لاغرابة في هذه الحالة أن تشكل الاستقلالية الجماعية والتمرد التأطير الذاتي طرق تعامل مجتمع يتزايد فيه عدد الأدمغة الفعالة , مع نظام سياسي موروث عن تكنولوجيا قديمة . فهي تحاول بهذه الوسائل الاحتجاج على نظام لا يتطابق مع المعطيات الجديدة , والتخلص منها أو تطويقها إن عجزت عن ذلك .

لابد هنا من الحذر من فخ وقع فيه الفكر السياسي مرارا , وهو الاعتقاد بأن الظروف الموضوعية تؤدي بصفة حتمية أو أوتوماتيكية إلى تغييرات سياسية تتماشى مع مقولاتنا وأحلامنا ومطامحنا في التحرر . فمن الممكن جدا(ولا أدل على ذلك من وضعية البلدان الاشتراكية) أن يتعامل النظام الاستبدادي مع المعطيات الجديدة للتكنولوجيا فيوضّفها لتعميق الاستبداد , وتبقى الطبقات الجيولوجية للمجتمع في حالة غليان لكنه غليان لا يؤدي إلى انفجار نظرا

وليس من الغريب أو من باب الصدفة أن تظهر وثيقة كحقوق الإنسان في بلدنا في نفس الوقت الذي غزته عقلية ومواد التكنولوجيا الحديثة لأن الأمرين مرتبطان أوثق الإرتباط

عمليا :

من البديهي أن هذه الحقوق المبدئية تنبع عن قدرات الإنسان الجديد و أنها تساهم في بلورتها وصقلها وتشذيبها , وأنه لا يمكن لهذه الأخيرة أن تتجلى وأن تأتى أكلها في إطار تنظيم هرمي شخصاني وصائي إقصائي وإنما في إطار معاكس والحقوق كما ندرك ذلك شرط ضروري لكنه غير كافي إذ على التنظيم السياسي الجديد أن يترجم عمليا في الميدان التشريعي لاستغلال الطاقة الذهنية , المحررة في عقلها . هذا يتطلب أن نتساءل عن الميادين التي يجب أن تستثمرها فيها , أو بالأحرى عن قدرات الوحدات الدماغية وهي ثلاث : داعي للتركيز من جديد على ارتباط هذه القدرات الثلاث , ولربما حق علينا اعتبارها قدرة واحدة وإنما فصلناها لضرورة العرض) .

و من البديهي أن قدرة الوحدة الدماغية لا تظهر إلا في إطار العلاقة مع كل الوحدات الدماغية , لأن من طبيعة هذه الوحدة أن تتعامل مع معلومات متقدمة عليها , فتثريها و تطورها أو تبلور بعض أجزائها و خصائصها , من ثمة ضرورة دخول هذه الوحدة بشبكة دماغية تتلقى منها و تبث إليها ما تفتقده عنها عبقريتها الطبيعية , بعبارة أخرى سنجني الثروة كل الثورة إن نحن أقحمنا أكبر عدد ممكن من الوحدات الدماغية و لتشكل شبكة أفقية لا هرمية , تتعامل مع المستويات الثلاثة في الإنتاج الفكري , المادي التنظيمي .

كيف هذا ...؟

نعتبر مؤسسة ما للإنتاج المادي البحث المصنع , نحن نعلم أن التنظيم الهرمي الشخصاني الوصائي الإقصائي , يعطي حق التفكير و التخطيط و التقييم لدماغ واحد لا يخضع إلا لرقابة الدماغ القابع فوق الهرم إلا على المحتوى لهرمه و نحن نعلم أيضا أن الأغلبية الساحقة للأدمغة داخل المصنع محرومة من حق التعبير و التغيير في ميدان طبيعة العمل و ظروفها , إن هذا الحرمان من حق القرار يتماشى أوتوماتكيا و حرمانها من حق التمتع بالنصيب العادل من ثمرة العمل الجماعي , و هذا ما يؤدي إلى ظهور روح التمرد و التخريب و التقاعس و التهاون , الشيء الذي يؤدي بدوره إلى ردة الفعل من قمة الهرم , فيدخل الجميع في الحلقة المفرغة من الصراع المهدر للطاقات .

لنتصور أن تنظيما آخر يجعل العلاقة بين مختلفة الأدمغة أفقيا لا هرميا و يعطي لكل الأدمغة الحق في أخذ القرار في تنفيذه تقييمه في اقتراح التحسينات , و خاصة لتقييم العمل و ظروفه . ما من شك أن هذا سيؤدي إلى نتيجة .

1. تحسين المناخ في داخل المؤسسة : بما أن المشاركة في أخذ القرار و تنفيذه و تقييمه يرضي حاجة الإنسان الطبيعية إلى الكرامة , و كرامة اليوم أن تكون فاعلا , خلاقا , لا أن تكون جزءا سلبيا من آلة .

2. تحسين الإنتاج نفسه ,كما و نوعا , لأن عقول العمال قادرة على اكتشاف العديد من إمكانيات تطويره .و لليابانيين تجارب مثيرة في مثل هذا الميدان إذا لا يخلو مصنع أو مؤسسة من لجان تفكير و مراقبة لجودة البضائع . و قد أصبح من المعتاد في اليابان أن تأخذ الإدارة بعي الاعتبار كل المقترحات القاعدية , بل و أن تشجعها , لأن هذا يعود بالنفع على المؤسسة و على العامل و على المناخ العام .

لنتصور أن للمؤسسة الاقتصادية مشاكل عدة كالإنتاج داخل الورشة الفلانية , ثم على مستوى آخر عدد حوادث الشغل و على مستوى ثالث مصاعب التصدير الخ ...

و من البديهي أن إشراك أكبر عدد ممكن من الأدمغة لحل المشاكل على هذه المستويات الثلاث ,كفيل بتطويق الكثير من المصاعب و إيجاد العديد من الحلول لم تخطر على بال الدماغ الذي لا يخضع للتقييم . مع هذا أننا إذا أردنا أن نتقدم فإن علينا أن نهيكل كل المؤسسات الاقتصادية على مبدأ المشاركة في مختلف المستويات في أخذ القرار و تنفيذه و تقييمه , و إن التداول على المسؤولية يجب أن يكون قاعدة القواعد .

ملاحظة عابرة

لا شك أن إحدى أسباب فشل الاشتراكية في مشروعها التحرري و تهيكلها في كل مكان كنظام الاستبدادي بيروقراطي يثور عليه العمال في بولونيا , باسم إيديولوجيا حضارة زائلة , يمكن من رفضها للمشاركة إلا على الصعيد الخيالي السحري , و هذا مما أدى إلى النتيجتين السلبيتين التين تمخضت عنهما التجربة :

1. ضعف و رداءة الإنتاج الاشتراكي بالمقارنة مع الإنتاج الرأسمالي لأن هذا الأخير على علاته الكثيرة كالظلم و الاستغلال يستطيع إقحام عدد كبير من الأدمغة في عملية أخذ القرار و تنفيذه و تقييمه , و هو ما يجعله أكثر عطاء و مرونة و ديناميكية .

2. نسبية العدالة نفسها داخل المجتمعات الاشتراكية و الحال أنها نظريا مفخرتها , فظهور النومنكلاتورا أي طبقة المحظوظين ظاهرة لا يختص بها الاتحاد السوفيتي و إنما هي خاصية كل البلدان الاشتراكية , و نحن لو دققنا في أولى خصائص النمكلاتورا هذه لتضح لنا أنها الطبقة التي تتمتع بحق أخذ القرار و تنفيذه و تقييمه .

فالظلم في توزيع الإنتاج المادي يتماشى بالضرورة مع الظلم في توزيع المشاركة في أخذ القرار و تنفيذه و تقييمه , فمن البديهي أنه لو كان للعمال بالفكر و الساعد في الاتحاد السوفيتي حق المشاركة في كل المستويات لاضمحلت ظاهرة النومكلاتورا أو لا ارتكزت على قواعد أخرى غير القواعد المعمول بها حاليا , و هي ظاهرة الكفاءة و باطنيا تهيكل طبقة يتوارث داخلها الأفراد الامتيازات المكتسبة .

و لهذه النظرة ترتبات بديهية إذ يمكن الحكم الآن بع مرور أكثر من نصف قرن على التجربة الاشتراكية بالقول أن هذه الأخيرة قلبت الآية عندما جعلت من عدالة توزيع الإنتاج المادي المدخل الإجباري للعدالة . و الحال أن التوزيع العادل للمشاركة هو هذا المدخل . ففي غياب حق المشاركة في أخذ القرار و تنفيذه و تقييمه يعاد تهيكل المجتمع الطبقي و الظالم ماديا و معنويا , و هو ما يصعب أو يستحيل إذا عكسنا الآية , إذ يكون عندئذ التوزيع المادي العادي من التحصيل الحاصل .

و يصدق نفس الكلام على الثروة الفكرية . فهي لا تكون إلا بإقحام أكبر عدد ممكن من الأدمغة في عملية الخلق و الإبداع , فثرواتنا في هذا الميدان معطلة بالوصاية و الإقصاء التي يمارسها الاستبداد السياسي و الفكري . و لا بد هنا من التركيز على أنه لا فرق بين أن نقمع الطاقة الخلاقة باسم قانون المعمول به حاليا في بلدنا , أو باسم مقدسات زيد أو عمر . و الخيار أمامنا واضح : إما الفقر الفكري أو ضمان حرية الفكر بدون قيد أو شرط (و للواقع أن يغربل و يصفي) .

دور المشاركة إذن في خلق الثروة المادية و الفكرية بديهي , لكن دورها في خلق الثروة التنظيمية أقل وضوحا للعيان . فنحن لا ندرك أن كثير من عذابات الإنسان المعاصر لا تنتج عن الفقر المادي و الفكري فحسب و إنما عن سوء التنظيم . تنظيم أوقات العمل , تنظيم الترتيبات الإدارية , تنظيم ممارسة المسؤولية الخ ...

و من أهم أسباب سوء التنظيم الذي نرزح تحت ثقله خاصة في تعامله مع هذه الآفة التي نسميها البيروقراطية , قلة و رداءة الأدمغة التي تنظم و غياب أو صعوبة التقييم لعملها .

لنتصور نظام مشاركيا يفرض في كل مستوى من مستويات الإدارة تواجد لجان اقتراحات لتحسين التنظيم , و لنفرض أنها تتعامل مع جمعيات ممثلة لصالح المواطنين و نتصور وجود تنسيق بين مختلف اللجان القاعدية , في إطار نظام سياسي مشاركي يفوض لها كثير من الصلاحيات للتغيير . لا شك أن حركية كهذه كفيلة بإعادة هيكلة كثير من الترتيبات الإدارية . و هو من شأن أن يسهل علينا حياتنا و تعاملنا مع هذه البيروقراطية التي تشكل اليوم بدون شك أو منازع أبغض الحلال للإنسان (و ربما لله نفسه) . لنركز من جديد على ارتباط الخلق المادي بالفكري و الفكري بالتنظيم و التنظيمي بالمادي و الفكري في إطار علاقة تأثير متبادل لا تنتهي . و هذا يعني أننا سنهدر كثير من الطاقات و الوقت , إن تصورنا أننا نستطيع أن نحرك أحدا من العوامل الثلاثة دون تحريك العاملين الآخرين أو أننا نستطيع أن نقدم الميادين الثلاثة بدون تغذيتها بالطاقة الذهنية كما و نوعا .

أولى دعامات المشاركة إذن نظريا وثيقة حقوق الإنسان و عمليا قانون جديد يضمن لكل فرد في كل مستوى من مستوى الحياة الجماعية حق المشاركة في أخذ القرار و تنفيذه و تقييمه , على أن لا يقع الخلط بين المستويات .

فالمجتمع المشاركي ليس إذن هرميا مبنيا على تراكم طبقات جيولوجية , و إنه مجتمع أفقي , متعدد المستويات , تلعب داخل كل مستوى من هذه المستويات قوانين المشاركة الفعلية و التقييم الدائم و التداول السريع على المسؤولية , مع سهولة و مرونة المرور من مستوى إلى آخر .

الدعامة رقم 2

هل تكفي مشاركة الفرد اجتماعيا على المستوى المحلي (كالعمل مثلا داخل عدد لا متناه من الجمعيات ذات الأهداف المعينة) , و سياسيا على المستوى البلدي و الوطني و الجهوري لفض المشاكل التنظيمية ؟ و هل تكفي مشاركته الفعلية في عملية الخلق و الإبداع المادي و الفكري , لرفع مسار التطور و الإثراء خطوات جبارة إلى الأمام ؟ طبعا لا , بل من الممكن أن تطغى عيوب الاختيار على حسناته (لا بد من التركيز مرة أخرى على أن من طبيعة اختيار مهما كان أن يولد سلبيات , طال الزمان أو قصر . و أنه يجب مراجعته إذا أظهرت التجربة طغيان الترتيبات السلبية على الإيجابية . و في هذا اختلاف جذري عن الموقف العقائدي الذي يجهل و يتجاهل الطبيعة الازدواجية الأشياء , فلا يرى إلا الخير المطلق في اختياراته (الترتبات الإيجابية) . و لا يرى إلا الشر المطلق (أي الترتيبات السلبية) في اختيارات الآخرين).

فالذئبوية و النرجسية كما نعلم من خصائص البشر الرئيسية و بالتالي فإن الاعتراف النظري و العملي بعبقرية كل الناس الضمنية (و هو الشيء الحاصل) , و قد يؤدي إلى جعل المجتمع جحيما لا يطاق , إذا سنجد أنفسنا في مواجهة لا بعدد محدود من النرجسيين العصابيين المصابين بجنون العظمة , بل بعدد مهول منهم , و هو الأمر الذي قد يأتي على الأخضر و اليابس داخل المجتمع في فترة أولى , بانتظار ظهور ردة الفعل في شكل تنظيم استبدادي في شكل هرمي في منتهى القسوة , يعيد النظام بعد إستتبداد الفوضى . فالمجتمعات , هذه الكائنات الحية التي تتجاوز الإنسان , قادرة على تحمل الظلم , لكنها غير قادرة على تحمل الفوضى لأنه بداية الموت بالنسبة إليها .

الموضوع إذن : إدخال المشاركة الفردية داخل إطار أهم و أعم و أشمل يضبطها و ينظمها و يعطيها فعاليتها و جدواها , أي إطار المشاركة الفعالية . فقيمة الإنسان و من ثمة قيمة مشاركة تنبع لا منه و لكن من الشبكة الدماغية السابقة له المتقدمة عليه .

إلا أن الشبكة الدماغية لا تقتصر فقط على تأطير النرجسية الطبيعية منها و العصابية (المرضية) . فالقوى الفاعلة في المجتمع فردية حقا , لكن أغلبها جماعي الصبغة , و من ثمة ضرورة الانكباب على دور الجماعات . سبق أن قلت أن الدولة في مفهومها البدائي و في بداية تطورها هي بالضرورة الأداة المادية و التشريعية لسيطرة رجل / حزب / عقيدة / طبقة / جهة / على المجتمع , و من عادة الدولة الاستبدادية أن تدعي أنها تمثل مصالح الكل و تجسدها , و بالتالي فلا تناقض بينها و بين المجتمع . إلا أن الأحداث اليومية بظواهر التململ و الاحتجاج و التمرد تكذب هذا الإدعاء , فالمجتمع ليس كلا متجانسا يمكن لرجل واحد أو حزب واحد أو عقيدة واحدة أن يحتوي كل مكوناته و تناقضه , هو بطبيعته موحد و مجزّأ تتجاور داخله عدة مركبات يمكن وصفها كالتالي

- عموديا : هناك جماعات ذات تاريخ مختلف فنحن نجد مثلا داخل مجتمعنا التونسي شرائح قديمة موغلة في القدم عقائديا و تكنولوجيا كالفلاحات الفقيرات المعزولات في أكثر المناطق تخلفا, و المنتميات إلى الحضارة الثانية (و حتى الأولى) . و هناك شرائح عصرية جدا كالنساء المثقفات الحاصلات على شهادات عليا في جامعات أمريكية اكتسبنا فيها علما و عقلية لا تم بأدنى صلة إلى عقلية الجدة الملتحفة " بالملية الزرقاء " , و المنتميات إلى الثالثة (و ربما الرابعة) . و يوجد بين هاتين الشريحتين العديد من الشرائح الاجتماعية المتطورة في هذا الاتجاه إلى المعاصرة , أو اتجاه العودة إلى الماضي , كالفلاحين الفقراء المعتنقين للماركسية بعد دخولهم مصانع الحضارة الثالثة , أو كعدد من المهندسين الرافضين لقواعد و مفاهيم هذه الحضارة , و محاولين إعادة الصلة بعقيدة آبائهم و أجدادهم الفلاحين و الرعاة , على أمل أن يجدوا فيها حلا لمشاكل واقعهم المعقد .هناك إذن عدة شرائح اجتماعية متواجدة في أماكن مختلفة من الخط الزمني الرابط بين الماضي و المستقبل . و الحركة كما رأينا ليست بالضرورة في اتجاه واحد ,
- و إنما في اتجاهين , مع تواجد العديد من نقط التقاطع (و هي ليست نقط التقاء) بين الراحل إلى المستقبل و الراحل إلى الماضي . و لنعتبر الآن نقطة زمنية ما , و لتكن حاضرنا اليوم , و لنحاول وصف مختلف الشرائح الاجتماعية المكونة للمجتمع .

* أفقيا : لا شك أننا سنكتشف تحت هذا المصطلح المبهم تراصفا و تزاحما و تناقضا و صراعا بين أجزاءه المكونة أي الأجيال / الطبقات / الجنسان / الجهات / تجمعات المهنية .

لا غرابة إذن أن يزخر المجتمع بمختلف التجمعات السياسية العقائدية التي تترجم لآمال و آلام هذه الجماعات , و قد سبق أن ركزت على أن تزايد عدد المكونات هو خاصية من خصائص المجتمعات المعاصرة و هي الظاهرة التي أسماها (طوفلر) بالتمايز المتصاعد .

فنحن نعرف و سنعرف يوما بعد يوما تطورا انفجاريا لكن التجمعات المهنية (كنقابة الصحفيين و القضاة و المحامين الشبان) , الاقتصادية (المصدرين لهذه البضاعة أو تلك) , أو الطالبية (تجمع الطلبة الإسلاميين و الاشتراكيين و الديمقراطيين) , أو النسائية(حركات متطرفة و مدجنة لا سياسية) ...أو الجهوية (أحباء الشمال الغربي , و مناصري الجنوب الغربي) ناهيك عن الجمعيات ذات الطابع الاجتماعي (كما اهتم بالإعاقة و التبرع ...و ...و ...).

ما الذي يحدث عندما تواجه كل هذه التشكيلات المتواجدة بشكل مكثف بدولة الوصاية و الإقصاء ؟ المصادمة , لأن الجزء لا يحتوي الكل و لا يمثل الكل و لا يدافع البحث عن أرضية مشتركة كأن يقبل مثلا الديمقراطية رأي الإسلام في ميادين محددة (الهوية الشخصية) , أو أن يقبل الإسلام بالتسليم للائكين في موضوع مجلة الأحوال الشخصية , أو أن يسلم الشيوعي بضرورة الديمقراطية و تناسي مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا .

و من شأن هذه المساومة بالطبع أن لا ترضي أحدا , لأن كل عقائدي يحلم بتطبيق برنامجه بحذافيره . لكن هذا مستحيل و غير مرغوب فيه في مجتمع مشارك , إذ هو كعلاج لمرض للداء نفسه . و الحال أنه يمكن للعقائديين المخلصين إعطاء نفس جديدة للمشروع التحريري بمثل هذا العمل الجماعي المتحرر من آفة الآفات : الوصاية و الإقصاء التي تتمم كل قدرات و تدمر الأحزاب نفسها عاجلا أو آجلا .

4. الاعتراف بجدوى و دور و استقلالية كل المؤسسات التي يفرزها المجتمع و تشجيع تكوينها و عدم عرقلتها في بآي قانون مشط كالذي يحكم في بلدنا هذه الظاهرة , فيصح مجرد إعلام بقيام الجمعية , كافيا و حده لإعطاء الصبغة القانونية , و ما على الأجهزة السياسية أن تثبت تعارضها مع القانون فيما بعد .

5. تعميم العمل بقاعدة حلقات الجودة في المصنع و الإدارة و المدرسة و الحزب الخ .., و تقنين مثل هذا العمل حتى يبقى خاضعا لشطحات استبدادية لزيد و عمر . مع العلم أنه لا فائدة من هذه الحلقات إن لم تعطي لها صلاحيات التغيير فلا أخطر على حياة أي مؤسسة و مصداقيتها من المشاركة الوهمية الخيالية أي التي لا تؤدي إلى شيء

6. تعميم التداول الفردي و الجماعي على المسؤولية , أكانت بلدية محلية , جهوية وطنية و تحديد فترة ممارسة المسؤولية لزمن معين يقع التراضي عليه وفق المتطلبات ناجعة هذا العمل .

7. اعتبار عامل التقييم المحرك الرئيسي للمجتمع . و من خصائصه الرئيسية أن يكون عادلا . شفافا , لا يتجرأ أحد على الطعن فيها . يجب إذن أن يصبح تقييم الطالب لأستاذه و المريض لطبيبه و العامل للعرف و المحكوم للحاكم من تحصيل الحاصل في المجتمع المستقبلي , لا كما هو الحال في المجتمع المتخلف : عدوان لا يطاق .

8. اعتبار تواجد مختلف التجمعات الاجتماعية العقائدية و السياسية ظاهرة طبيعية يترجم لها بتواجد كل المجتمعات السياسية (حسب الأهمية التي يمنحها لها الناس في إطار انتخابات دورية نزيهة) في كل أجهزة السلطة أكانت بلدية أو جهوية أو وطنية أو قومية .

9. ضرورة إشراك كل المجتمعات السياسية في القرار (باستثناء المجموعات الرافضة لحقوق الإنسان كمبادئ أساسية) على قاعدة الوفاق و التراضي مثلا لا شيء يمنع داخل المجتمع الديمقراطي المتقدم من جلوس الإسلامي و الشيوعي و القومي و الديمقراطي في بلدنا حول طاولة القرار في البلدية , أو برلمان أو حكومة للبحث عن أرضية مشتركة , بعد أن أثبت الصراع المزمن على الوصاية و الإقصاء لا جدواه .

10. من البديهي أن تضافر الذئبوية , و ثقل الإرث الحضاري و التناقضات الموضوعية بين المصالح , عوامل كافية لإجهاض أي تجربة مشاركية و من ضرورة الاستعداد للأزمة , و حلها ديمقراطيا باللجوء إلى التصويت عند إذن عند فشل الوفاق و التراضي و التصويت بالأغلبية (و هو هنا أبغض الحلال للديمقراطية و سلاحها الأخير لا الأول) مع العلم بأن على أي نظام مشاركي أن لا يخرج أي حزب / شخص / عقيدة من دائرة القرار الاجتماعي إلا مكرها للتشبث بعقلية الوصاية و الإقصاء . و لاستحالة التوفيق بين متطلبات الأغلبية و متطلبات الأقلية .

سؤال أخير : كيف نبث هذه الأفكار في مجتمع يتسم بتراصف الأضداد و ترصد الأحزاب الوصائية الإقصائية بالمجتمع أو ببعضها البعض ؟ هل يجب علينا أن نبني حزبا مشاركيا يقود عملية بناء المجتمع المشاركي ؟ طبعا لا :

1. لأن المشاركية تبقى ينضجها تطور المجتمع نفسه . و " السذاجة " أو المثالية التي قد تبدو للقارئ واضحة وضوح الشمس في هذا الكلام , حقيقة , لكنه في إطارها الزمني و بالمقاييس الأيديولوجية للمجتمع المتخلف الذي نعيش داخله . فالمشاركية خيال اليوم لضعف كثافة الأدمغة الفعالة , لكن هذا العدد مؤهل لأن يرتفع بسرعة فائقة متزايدة ...

و يومها تأتي المشاركية أو تعم الحزب الأهلية .

2. لأن أي حزب مشاركي لا يمكن أن يكون هو الآخر إلا حزبا وصائيا إقصائيا هدفه الأول هو دوامه و سيطرته على المجتمع , و من ثمة فإن حظ المشاركية كبرنامج سياسي واعي يحاول امتطاء و قيادة التغيرات الجيولوجية هو في التغلغل داخل الأحزاب الوصائية الإقصائية نفسها . و يكون نجاح المشاركية يوم نشهد تلاقي العديد من مختلف المتحزبين القدامى على تباين آرائهم الإيديولوجية (و هي آراء لا يمكن الحسم فيها لأنها كما قلت تترجم لحقائق موضوعية قاهرة) و تنافر المواقف داخل الحزب نفسه بين الوصائيين الإقصائيين من جهة و المشاركين من جهة أخرى . أي بين المتشبثين بالحرفية ايديلوجيا انقرضت تكنولوجيتها , و الأذكياء المحاولين ترجمة المشروع التحريري القديم إلى لغة ووسائل العصر .

س **2** : إنتاج العقول

" الوحدة الدماغية " هي اليوم كما أسلفت العملة أو الوحدة النقدية الحقيقية التي تقاس بها عملية الشعوب . فمن البديهي أنك كلما صففت في مواجهة التخلف عددا متزايدا من الوحدات الدماغية , و كلما حسنت من نوعية الوحدات , كلما ازدادت حظوظك في خلق و استيعاب التكنولوجيا .و لا أدلة على ذلك من وضعية عرب الجزيرة الذين أطرت بهم البترودولارات , و لم

يحملهم هذا لا على تصاعد الخلق أو مضاعفة الابتكار في أي من الميادين الفكرية و العلمية , بل نعلم أن تبعيتهم زادت و تعمقت في كل هذه الميادين .

و لقائل أن يقول أن تونس مثلا تنتج **83,4%** من الأدمغة إنه رقم مشرف , لكن حذار من سرعة الحكم . فنسبة التمدرس يعني نسبة الأطفال المجودين في التعليم الابتدائي , و من المؤكد أن هذا الرقم يشكل (إذا قورن بأرقام ما قبل الاستقلال حيث كان **90 %** من الأطفال محرومين من التعليم) قفزة كمية ونوعية هائلة إلى الأمام يبقى أن علينا أن ندقق و نتساءل :

1. هل أن البرامج الموضوعة تساهم في خلق إنسان قادرة على التعامل مع مفاهيم و طرق تصرف و إنتاج الحضارة الجديدة ؟

2. هل تؤهله إلى المضي قدما في طريق التعلم و هو طريق لا نهاية , أي التجدد السريع للمعلومات .

3. ما هو العدد الأطفال الذين سيتمكنون من دخول التعليم الثانوي و الجامعة ؟ و الرد على السؤالين الأولين , لأنهما يتطلبان دراسات تقييمية بالغة التعقيد لا أظن أنها قد وقعت . أما السؤال الثالث فلنا إمكانيات الرد ليها , و الأرقام للأسف محبطة للهمم , و مثيرة لموجة عارمة من التشاؤم .

1. يصفى في نهاية التعليم الابتدائي نفس التلاميذ , و لا يلتحق بالمدرسة الثانوية إلا النصف الباقي .

2. تتالي عمليات التصفية في الثانوي سنة بعد سنة ليدخل الجامعة في الأخير **3 %** فقط من جملة المتمدرسين .

و الاعتراض الكلاسيكي على هذا التقديم معروف : هل من الضروري و هل من الممكن اقتصاديا إدخال عدد أكبر إلى الجامعة ؟ و هل التعلم بالضرورة مدرسي جامعي ؟ و الإجابة كذلك كلاسيكية :

1. يتطلب التعامل مع المجتمعات المعاصرة قدرا متزايدا و متسارع التجدد من المعلومات , و الجهاز المدرسي بمستوياته الثلاثة جزء من جهاز أعم لنقل و نشر هذه المعلومات ,كالعائلة و التلفزة و الصحافة .إلا أن مصيبتنا أن مثل هذه التشكيلات عاجزة هي الأخرى فلا العائلة تجربة و لكنها تجربة حضارة زائلة , أما التلفزة فهي لا تساهم في التعلم بل بالعكس فهي أداة تجهيل ذات فعالية كبيرة : فهي تعرض دوما إعلاما خياليا و تاريخا خياليا , و مشاكل اجتماعية خيالية و بالتالي فإنها في نظم الوصاية و الإقصاء مدرسة اللينة و التهميش . معنى هذا أن الوحدات الدماغية التي تخرج من سلك التعليم هشة إلى أبعد حدود الهشاشة . فهي لا تملك الحد الأدنى من المعلومات الضرورية و الصالحة للتعامل مع العالم , و هي لم تجد الوقت الكافي لتنمية مناعتها ضد الإعلام المغشوش و التاريخ المغشوش و الأدب المغشوش الخ ...و بما أن المجتمع فقير لأنه لا ينتج لأن ليس له على خط المواجهة العدد الكافي من الوحدات الدماغية فإننا سنرى البطالة تتلقف هذه الوحدات الدماغية و تزيدها تهميشا على تهميش .

2. تظهر التجربة لأي أستاذ من أساتذة التعليم العالي رداءة الأدمغة التي نتسلمها من الابتدائي و الثانوي و التي صفاها نظام تعليمي متزايد القصوى و الصرامة , فهي أدمغة محشوة بنتائج علوم الآخرين , لكنها لم تدرب على المنهجية العلمية , على التفكير و على النقد أي على خلق المعلومات .

معنى هذا أننا مجتمع يرمي بجل ثروته عرض الشارع و يسيء استغلال القلة القليلة من الوحدات الدماغية التي يمتلكها .ثم يأتي بعد هذا من يقول لك أن التخلف هو نتيجة الصهيونية و الإمبريالية و استنزاف خيراتنا و ثرواتنا . و الحال أن استنزاف هذه الخيرات و انتصارت الصهيونية علينا هي من ترتبات ليست من أسباب تخلفنا .

لنعد الآن إلى مقارنة وضعيتنا بوضعية اليابان .

تقول الإحصائيات أن **80 %** من الأطفال اليابانيين يصلون إلى مستوى البكالوريا , و أن هدف اليابان هو الوصول إلى نسبة **94 %** في مستهل سنة **2000** . أما نسبة الدخول إلى الجامعة فهي **37 %** أي أنها تفوق **12** مرة نسبة تونس . من أين لمجتمع كمجتمعنا أن يزاحم بلدان كاليابان تزخر بهذا العديد من الوحدات الدماغية المتخرجة من أحدث الجامعات حيث يقع التركيز لا على الحشو و إنما على المنهجية ؟ إضافة إلى وجود مناخ ديمقراطي يسمح للمعلومات بالانتشار الهائل و بالتنافس , الشيء الذي ينمي ملكة المقارنة و النقد و التقييم الخ

و من المضحكات . المبكيات أن اليابان غير سعيد البتة بنظامه التعليمي هذا . و أن لجنة وزارية نشرت في غضون **1985** الخطوط العريضة للإصلاح التعليمي المقترح و هو كالآتي :

1. التركيز على قيمة الشخص في المجتمع

2. التركيز على المواد الأساسية كاللغة (اليابانية لا الإنكليزية أو الفرنسية) و الحساب و التاريخ (الحقيقي لا الخيالي)

3. تطوير ملكة الخلق و الابتكار على المستوى الفني و التقني .

4. تنويع الشعب ابتداء من الثانوي لكي تستوعب الاختلافات الكثيرة في المواهب و الاستعدادات .

5. التركيز على خلق جو مدرسي يعتبر حقوق الطفل .

6. التركيز على القيم الإنسانية و العالمية في البرامج لا على الوطنية و الشوفينية .

7. التركيز على تعليم التعلم الذاتي و الدائم .

8. إعطاء الأولوية للإعلامية .

لماذا أوصت هذه اللجنة بإعادة صياغة برامج تعطي الأولوية لحقوق الطفل و للقيم العالمية و تعليم التعلم و الإعلامية الخ ...؟ لأنها اعتبرت بأن اليابان بحاجة إلى مثل هذا التعليم يحتل مكانة الصدارة في العالم , لا أكثر من هذا و لا أقل .

الإستراتيجية الثانية للمواجهة و المواكبة إذن : تثوير التعليم و الثورة تبدأ عندما نقتنع كلنا أن الطفل هو طاقة دماغية جبارة , و الطاقة الدماغية هي الثروة . و أن هدف التعليم إنتاج عقول الحضارة الرابعة .

هل تتصور مثلا غباء أكبر من إهمال أو إحراق عشرات الملايين من أبار البترول في عصر يشكل فيه البترول المادة الإستراتيجية الأولى ؟ (إبان إصدار هذا الكتاب للصدور برز للوجود و مشروع لهيكلة الجامعة التونسية يرمي إلى من جملة الأشياء ... للتقليل من عدد الطلبة

س **3** : التطور الثلاثي

الإدماج الأول

بعد كل التجارب المريرة , أصبحنا نحن العرب نتفق على رفض جل الدعائم الهيكلية التي ترتكز عليها الأنظمة الحالية (لأنها أصبحت قديمة مهترئة متآكلة) كالشخصانية و القلاع الفارغة (البرلمان , حزب , منظمات , منصبة) , و إعلام موجه و انتخابات شكلية الخ ...مع ذلك فإنني أقرر القناعة المطلقة أي شيء هاما لن يتغير في تونس و في بلد عربي آخر إذا ما وصل إلى سدة الحكم غدا طاقم عسكري أو الاتجاه الإسلامي أو الحزب الشيوعي أو الديمقراطيون الاشتراكيون .

طبعا ستتغير الواجهة (حزب بدل آخر) , و ستعمل نفس القوانين التي أفرغت الحزب الحاكم من قواه لإفراغ الحزب الجديد , ستستبدل إعلاما موجها بإعلام موجه في الاتجاه المعاكس , ربما نجز صوف البرجوازية الكبرى , لكن هل سيكفي هذا لكي يجد كل تونسي موطن شغل , لكي نحل المشاكل الاقتصادية و هي في عصرنا هذا أول المشاكل ؟ لا طبعا لأننا اليوم أجداد لنا يخططون وهم على أعتاب القرن العشرين لحل المشاكل الاقتصادية و الاجتماعية و من ثمة السياسية لتحسين استعمال الإبل , أو بالبحث عن الزيادة في إنتاج التمور , بينما كان الحل في التمكن من الصناعة الناشئة كما أثبت ذلك التاريخ .

لذلك أقول يجب مراجعة كل الأحزاب باستراتيجياتها للتغيير الاقتصادي و الاجتماعي اعتمادا على هذه البديهية

حل مشاكل تونس الاقتصادية لن يكون بمحاولة زرع مصانع الحضارة الثالثة في كل مكان , و إنما بالتمكن من التكنولوجيا الجديدة للحضارة الرابعة . لنفرض مثلا أن حكومة ثورية أمسكت إذا مقاليد الأمور في البلاد , و تريد معالجة مشكل البطالة في الشمال الغربي و الوسط و الجنوب . أول حل يتبادل إلى الذهن هو زرع المصانع فيها , لكن هذا الزرع يتطلب القضاء على المشكلة بناء مئات المصانع . فمن أين تمويلها ؟ نفرض أن التمويل وجد (بقروض تزيد من حدة التداين الوطني) أين السوق ؟ هل يعقل أن يتنافس إنتاجنا إنتاج الغرب أو اليابان ؟ و إذا أقفلنا السوق المحلية بحواجز القمرق , فكيف ستتطور هذه الصناعة التي لن يزاحمها أحد (في رداءتها) و كيف نستطيع إجبار المستهلك على شراء " تونسي " هو الذي ينفر من كل ما هو محلي ؟ (على حق في غالب الوقت) . ثم ماذا عن الثمن الاجتماعي و الإنساني للتصنيع ؟

فنن نعرف أنه باهظ الثمن , و هذه الإستحالات معروفة . لذلك أصبحت الموضة في كثير من البلدان للاستنجاد بالفلاحة التي أهملت في غمرة موضة التصنيع بأي ثمن , لكن أي فلاحة ؟

إن كانت الفلاحة القديمة كالمعركة المخسورة حتى قبل الشروع , فالإنتاج الزراعي بالتنظيم القديم و بالتكنولوجيا القديمة , لن يستهوي الشباب , و لن يرفع الإنتاج , و لن يوقف النزوح . و من ثمة فهو ليس البديل و إنما البديل هو تلقيح الفلاحة بالتكنولوجيا العصرية التي ستؤدي إلى نشأت ركيزة اقتصادية و اجتماعية ثورية .

لهذا أقول أن على المعارضة أن لا تغفل على التغييرات الحقيقية و التي يجب التفكير فيها , لتجاوز الأزمة , و أن الأمر يتجاوز خطورة و عمقا حتى قضية إعادة توزيع الدخل القومي , أو خلق المؤسسات الديمقراطية , و كلها أمور هامة و مستعجلة نحن اليوم في عالمنا العربي لا نتقد حتى قدرها عمق التغييرات التي تحدث في الغرب المتقدم و لا نفهم عموما طبيعة الأزمة التي يتخبط فيها . فملايين الباطلين عن العمل في العالم العربي هم اليوم ضحايا تخلص الدولة الغربية من التكنولوجيا القديمة كصناعة الحديد و الصلب و الفحم و السيارات هذه الصناعات المتخلفة التي يريدون تصديرها للعالم الثالث تحت غلاف نقل التكنولوجيا (تكنولوجيا الحضارة الثالثة لا الرابعة) , أي أنه بعبارة أخرى يصدر لنا الأزمة و البطالة الآجلة , خاصة و أن الدراسات الاقتصادية تثبت أن الاستثمارات في التكنولوجيا الصناعية المتخلفة قد أدت في العالم الثالث إلى خلق مشاكل خطيرة (النزوح , تمزق العائلات , الإجرام و الانحراف , و حتى تدهور مستوى المعيشة في كثير من البلدان ...) .

نحن إذن لن نحل مشاكلنا بهذه التكنولوجيا المحكوم عليها بالإعدام لأنك لا تستطيع فتح باب حديد بمفتاح قديم , و هذا ما أخشى أن الجزائر فعلته في السبعينات .

عمليا ماذا يعني هذا ؟ أن ترفض المصانع ؟ أن نسلح كل فلاح بعقل الإلكتروني ؟ لكن لأي عرض ؟ ..أن نبني المختبرات للصناعة الهندسية , لكن كيف و بماذا ؟ ها موضوع للتفكير على مستوى مجتمع بأكمله لا على مستوى فرد و بد من أن تكون لا لأن نركز من جديد على أن التكنولوجيا الحديثة هي فكر قبل أن تكون مادة , و من ثمة ضرورة التساؤل عن سبل استكشاف و سائل تصنيع الفلاحة و تلقيحها بالتكنولوجيا الحديثة (و لبلد كالهند تجارب هامة في هذا الميدان) و على أي الصناعات يجب أن نراهن , كيف نستعمل الإعلامية (و ننتجها) لندير شؤوننا بفعالية ...؟ بعبارة أخرى كيف نستعمل هذه الطاقة اللامتناهية و المتوفرة و التي تشكل في الواقع حجر الزاوية للحضارة الرابعة : الطاقة الذهنية ؟ و ستتابع الحلول المذهلة الممكنة للبطالة : المزارع البحرية , إحياء الأراضي القفر , صنع المرايا الشمسية , صنع المولدات الكهرو. شمسية , صنع العقول الإلكترونية , استعمال الطاقة المتجددة كالريح و الفواضل المنزلية ,إنتاج الثقافي , و ألف حل آخر لا نفكر فيه الآن , لأننا كخفافيش أرسطو عميان أمام النور . إذا اعتبرنا أن الطاقة الذهنية هي اليوم الطاقة التي لا تنضب و مولد التقدم في المستقبل , و إذا اعتبرنا أن الإنسان هو وحدة دماغية , و أن تنمية و تنوع عدد الوحدات الدماغية داخل المجتمع هو بمثابة استثمار الاستثمارات , و إذا اعتبرنا أننا و إن لم نتوفر على الكثير من البترول و من المعادن , فإننا نتوفر على عدد هائل من الوحدات الدماغية القابلة للدخول في عملية التنمية , فإن تنمية الطاقة الذهنية يصبح ركيزة التطور الاقتصادي و الاجتماعي في المستقبل . و من البديهي أن تطوير الطاقة و الثروة الذهنية عمل يتجاوز اختصاص التعليم إذ يجب أن يخضع لتصور و مخطط دقيق يبدأ بتحديد خطوط القوة للتطور

المستقبلي و حاجياتنا من التكوين , و يجند و ينسق بين التربية و الإعلام و الثقافة , و يجعل من اكتشاف المواهب و توظيفها مهمة المهام , و يتخذ في كل مؤسسة جملة من التدابير الرامية إلى تقييم كل الوحدات الدماغية و إعطائها حق المبادرة , إضافة إلى عملية استرجاع أدمغتنا المهاجرة . و لا بدّ من إحداث وزارة للطاقة الذهنية , تحدد لها مهمة تعهد و تنمية هذه الثروة . إلا أن هاتين الركيزتين لا يجب أن تغفل عنا أنه من الضروري تفادي الخطأ الفادح الذي سقطنا فيه ماضيا ألا و هو اعتبار التنمية الاقتصادية هدفا في حد ذاته . و قد ضحينا كالكثيرين بالكثير و بالهام و الأهم .كنقاوة المحيط و خلوه من التلوث . و قد أدى وضع القيم الاقتصادية في الصدارة أو بأحرى فصلها عن القيم الأخلاقية إلى أنهيار مريع في مستوى العلاقات الإنسانية التي زادت عنفوانية على عنفوانية و ذئبوية على ذئبوية .

و الحال أن تنمية الثروة الاقتصادية مرتبط بتنمية الثروة الذهنية و الثروة القيمية نفسها . فمن البديهي أن مجتمع متشبع و ممارس لقيم العدالة و بالتقييم الصحيح و المسؤولية (باللامركزية الإدارية) و التعاضد (بتكاثر المؤسسات الاجتماعية الممثلة) الخ ...و مؤهلة أكثر من غيره لمواجهة كل الصعوبات الاقتصادية , خاصة إذا رسم لنفسه هدفا كتنمية الطاقة الذهنية بشتى الوسائل . فإذا أردنا أن نتقدم , فإن علينا أن نفهم أن التطور لا يكون إلا ثلاثيا و إن محاولة تطوير المجتمع بدون الانتباه إلى الترابط الوثيق بين العوامل الثلاثة لا يمكن إلا أن يولد " تقدما " يفرز من العيوب أكثر مما يفرز من الحسنات

الإدماج الثاني

يمكن أن نفتي بأن كراء الأرحام حرام , و أن تمنع التلقيح الصناعي , أو أن تحاول الدول منع الدول المجاورة رش تونس ببرامج التلفزة الفضائية الخ . لكن احتياج التكنولوجيا القادمة ,كاحتياج السيارة و أحمر الشفاه في الماضي : أمر لا مناص منه و الخيار أمامنا واضح .

الاقتصاد الجديد

و ذلك بتسرب التكنولوجيا عشوائيا و تحطيمها لاقتصادنا الهش و سبل عيشنا و لغتنا و ثقافتنا , فندفع ثمنا باهظا يؤدي إلى ردة فعل دينية أو قومية عنيفة أخرى كالتي عرفناها و نعرفها ضد التصنيع العشوائي . فنضيف إلى المشاكل أخرى تزيد الطين بلة .

التحطم و التوجيه :

ذلك للقيام بجرد لكل المظاهر ثورة تكنولوجية و التخطيط في إدماجها في حياتها , حتى تتلاءم مع حاجياتها و معطياتها أي تسخيرها لنا , إلى تسخير أنفسنا لها (أي لممتلكيها)

من سيوجه العملية و كيف ؟

عمليا كيف نشأت و تطورت التكنولوجيا الحديثة في الغرب و في اليابان ؟ أكان هذا بقرار من هذا أو ذاك ؟ لا طبعا فقد برزت هذه التكنولوجيا بصفة مفاجئة كتطور النسيج الصناعي القديم , أو ردا على بعض التحديات (ارتفاع سعر البترول) أو في إطار

التطور الطبيعي لبعض العلوم أو ... صدفة , قد فاجأت رجال السياسية و رجال الفكر و رجال القانون و رجال الدين الخ ...و لا زال إلى يومنا هذا في سباق مع الأحداث للتأقلم مع ترتيباتها الثورية .

بطبيعة الحال ليس هنا مختبرات أو مصانع أو تجارب متقدمة يمكن أن تتمخض عن مثل هذه الثورة , مثلنا كمثل كل شعوب العالم الثالث التي تشكل 75 % من كل البشرية , و لا تنتج إلا 3 % من الباحثين العلميين . أضعف الإيمان هو الانتباه إلى خطورة المنعطف التاريخي و اعتبار هذه الثورة فرصتنا إلى إقلاع اقتصادي حقيقي , و ركوب الموجة في الإبان و توجيهها حتى و لو لم نكن نحن صانعي البركان .

من هي الأطراف التي يمكن أن تضطلع بمهمة الإدماج من أجل المصير الأفضل ؟

الصناعة ؟ لكنها هشة و متخلفة و لا يمكن أن تفرز قوى تتجاوزها ناهيك عن التحكم في توجيهها .

الجامعة ؟ لكن الجامعة لا تملك أدنى سلطة لفرض التغييرات . هذا إذا افترضنا تنظيمها الحالي يمكنها من القيام بدور جهاز مخابرات اجتماعي يجمع كل المعلومات عن الثورة , ويدمج أهم إنجازاتها في البرامج الجامعية , ما عدى جيلا جديد من العلماء والباحثين الذين يستطلعون مواكبة التطور وحتى المساهمة فيه ... أقول إذ افترضنا , أن الجامعة بعيدة كل البعد عن القيام بكل هذه الدور حاليا . فهي جهاز تلقيني لتخريج أطر الحضارة الثالثة وأغلبها إذا قسناها بمقاييس الغرب من الصنف المتوسط جدا .

الوسط السياسي ؟ لكن هذا الوسط أبعد كل الأطراف المعنية عن النظرة المستقبلية . لنعتبر مثلا كيف يقضي رجل سياسي عادي في إي حكم و أي نظام وقته : سنجد أن نصف الوقت على الأقل مخصص للحفاظ على المنصب (الانتخابات أو مناورات البلاط) أو للحصول على منصب أرقى . أما النصف الباقي فيلتهم جله للعمل التشريفاتي (الخطب . الاستقبالات . وجولات التفقد) . فلا يبقى إلا أقل من ثلث الوقت لدراسة الملفات .

والآن أعتبر التعقيد المتصاعد لهذه الملفات وتشابكها وارتباطها بعوامل تربك أمهر العقول , الإلكترونية , تجد تفسيرا لهذا العجز الذي يظهره أغلب السياسيين في أغلب البلدان , والتجائهم إلى العنف والقمع كبديل للحلول التي لم يجدوها في الإبان , ومن ثمة سخط كل الشعوب بدون استثناء على أنظمتها ورجالها .

لا أحد من هذه الأطراف الثلاثة قدر إذا على توجيه عملية الإدماج , فهل حكم علينا إذن بالغزو والاغتصاب مرة أخرى . وأرد بالنفي لأن هذه التشكيلات قابلة إن أبرمت بينها حلفا على تجاوز نقائصها الذاتية .

لننظر مرة أخرى باتجاه اليابان وهو أول بلد دخل الحضارة الرابعة من بابها الواسع . هو الذي قاد الثورة ؟ إنه تحالف متين بين السلطة السياسية والسلطة الفكرية والسلطة الاقتصادية , وهذا بالظبط ما يجب أن نحققه في بلدنا إذا أردنا أن نكون .

من البديهي أن تحالف كهذا لا يمكن أن يبنى في إطار مجتمع جمدته الشخصانية والحزبية الضيقة والإرهاب الفكري ..أي في إطار مجتمع متخلف . ومن البديهي أيضا , أنه يتطلب مجتمعنا مشاركيا قوامه التقييم والتداول والمؤسساتية , واستغلال الطاقات

الفكرية , وبالتالي نرى الفخ والحلقة المفرغة التي قد ندور فيها إلى الأبد. فالتخلف السياسي يولد بالضرورة التخلف الحضاري والتكنولوجي الذي يولد بدوره التخلف السياسي إلخ ...

من حسن الحض أن عملية الإنضاج الذاتية للمجتمع تفرض التغييرات وفي اتجاه واحد , إن دورنا هو في ركوب الموجة , وربما في إدارة أشرعة الباخرة بكيفية ذكية , لكي لا تضيع أبسط كمية من القوى الدافعة .

الحلف الفعال :

كيف يمكن أن نتصور عمل هذه المؤسسات التي تضطلع كل واحدة منها بجزء من السلطة الفاعلة ؟ أقصد السلطة السياسية و السلطة الفكرية و السلطة الاقتصادية .

لنلاحظ أولا أن تصادم هذه السلط و نزاعها يؤدي إلى تجميد حركية الاختيار و المبادرة و يضعف المجتمع بصفة خطيرة : كيف يمكن التصدي للغزو الحضاري إذا كانت السلطة السياسية (أي أجهزة القرار و التنفيذ) تحاول فرض هيمنتها على السلطة الفكرية (المعلمون . الأساتذة . الباحثون العلميون . المثقفون . الصحفيون المستقلون) أو هي في نزاع دائم معها ينتهي بعملية إركاع الباحثين في المختبرات العلمية لهراوات البوليس ؟ و كيف يمكن للسلطة الفكرية أن تأثر على الأحداث إذا وقفت موقف عداء اتجاه السلطة السياسية ؟ كيف يمكن للسلطة الاقتصادية أن تطور الصناعة إذا لم تدمج و لم تندمج مع التغييرات التكنولوجية التي تستطيع الجامعة هضمها و إشاعتها , أو إذا لم تقبل بحوار لا ينتهي مع علماء الاجتماع و الدين و النفس الخ ...حول ترتبات الاختيارات و التقنيات الاقتصادية على حياة الأفراد و الجماعات لتفادي الأزمات . لذلك أقول : يجب أن نجد كما هو الحال في اليابان صغة تعاون و حوار بين هذه السلط الثلاث بدون تدخل في الصلاحيات أو محاولة استيعاب هذه بتلك . و تبقى المبادرة بيد السلطة السياسية و من ثمة تحسيسها بالرهان . هذا دورنا نحن المثقفون(أي أحد أجزاء السلطة الفكرية) , لذلك يجب علينا أن نلقي بكامل ثقلنا على دعم كل رجل أو تيار سياسي متفتح على المستقبل . فأنا لا أحسب ما قلت عن قلة نجاعة المؤسسة السياسية كهيكل (أتمنى أن تتجاوزه الحضارة الرابعة) لكن " الهم فيما تختار " كما يقول المتشائم أو " سبق الخير تلقى الخير " كما يقول المتفائل .

لنفرض تواجد مثل هذا النظام المتفتح على المستقبل البعيد و الواعي بأن تجربة الحلول القديمة لم تخرج البلاد من الأزمة الاقتصادية و الحضارية . و نفرض أن السلطة الفكرية و الاقتصادية (أو على الأقل أجزاء متقدمة منها شعرت بأهمية رهان التغيير و دخول القرن الواحد و العشرين من بابه الواسع و قبلت الدخول مع السلطة في حلف ثلاثي مصيري , فبماذا يجب أن يبدأ هذا الحلف بعبارة أخرى ما هي البرامج ذات الأولية المطلقة التي يجب بعثها و تنفيذها و تقييمها ؟ أقول برامج ثلاثة :

1. التحسيس و التكوين

2. تجميع المعلومات و البحث العلمي

3. إدماج التكنولوجيا في كل مخطوط اقتصادي جديد

المخابرات الحقيقية

المعلومات اليوم ثروة لا تقل أهمية عن الطاقة أو المعادن و التمكن منها يعني التمكن من جزء من التقدم الاقتصادي .

هل من جهز في المجتمع مكلف بتجميع و تبويب كل المعلومات الضرورية عن الثورة و متابعة ترتيبها في هذا المجتمع أو ذاك ؟

لا طبعا فالمعلومات تتسرب بصفة عشوائية تارة عبر الجماعات (و كثير ما تخفضها هذه الأخيرة بدون نشرها) أو نجدها في الصفحة الأخيرة للجرائد ... كمادة تسلية .

لذلك أقول علينا بهيكلة مثل هذا الجهاز لكي يشكل بنكا للمعلومات يتابع بمنتهى الدقة كل ما يصدر في العالم و كلما يخترع في ميدان التكنولوجيا المعاصرة , على أن تحدد له مهمة أخرى : توزيع هذه المعلومات على المجموعة بعد تبسيطها على الجامعات و على رجال السياسة . لكن تجميع المعلومات و توزيعها ليس كل شيء , قد قلت أنها تعتبر اليوم ثروة و إنتاج تقايض بها الأمم الكبرى تفوقها , هذا يعني أن أمة لا تنتج ثروة العصر المقبلة مهزومة سلفا , و بالتالي فإنها قضية دخول حلقة البحث العلمي الحقيقي من أوسع بابه مسألة حياة أو موت بالنسبة لكل نظام حضاري يريد فرض وجوده .

دور التحسيس

يجب إعادة المواطن ليواكب الثورة حتى لا يقف موقفا سلبيا من التغيرات المقبلة خاصة إذا فاجأته و هذا هو دور أجهزة الإعلان (يوم تصبح لنا أجهزة من هذا النوع) , لكن المعركة ستربح أو تخسر على مستوى تكوين الأجيال الجديدة أي في ميدان التعليم الجديد .

من المناظر المؤذية التي تصدمي في الكلية , رأيت الطلبة أيام الامتحانات و هم يحفظون عن ظهر قلب في الأروقة , و يرتلون دروسهم ترتيلا قبل الدخول إلى قاعة الامتحان , إنهم يمارسون دراسة الطب بعقل القرون الوسطى , الحفظ و الاستظهار , لكن الغلطة ليست غلطة الطلبة لكنهم ربوا من الابتدائي على هذه المنهجية لذلك يصل الواحد منهم إلى الثلاثين و هو لا يفعل سوى الحفظ . اذكر الصعوبات الهائلة التي اعترضتني عندما حاولت إدراج برامج المنهجية في دروس الطب الجماعي و رفض الطلبة لها , بل أذكر أن طبيبا متربصا صرخ في وجهي لأنني كنت أحاول أن أثبت له أن الوصفة العلاجية التي تعلمها منذ سنوات قد فاتها الزمن . قد قال لي غاضبا إنني أشككهم في كل معلوماتهم. فمن يجب أن يصدق و لم أستطع أن أقنعه بأن المعلومات الطبية تتغير يوما بعد يوم , و أن دور الطبيب اليوم هو مواجهة هذا السيل من العرمرم من المعلومات الجديدة و أن أول مهماته التمكن من المنهجية و متابعة تطور الاكتشافات و أن عليه أن يمرن ذكائه لا ذاكرته , لأن العقل الإلكتروني سيعطيه كل المعلومات في ثواني , لكنه لن يعطيه قدرة التفكير و النقد و المقارنة و التمحيص .

لذلك أقول للمشرفين على التعليم الابتدائي و الثانوي و العالي أن معركة تعصير تونس مرتبطة ارتباط وثيقا بالقرارات التي يتخذونها , لأنها تتعامل مع الثورة الأولى و الطاقة الرئيسية للحضارة الرابعة : الطاقة الذهنية و الإصلاح يكون على مستويين .

المنهجية العلمية :

خلق المعلومات و التعامل النافع مع حركيتها المذهلة , سيكون قدر الشعوب التي تستطيع تغيير و توجيه برامجها التعليمية القديمة , هل تعلم مثلا أن الاستعداد للبحث العلمي يبدأ في كندا من أول سنة ابتدائي . كيف ؟ يأخذ المعلم الأطفال إلى الغابة و يطلب

منهم اكتشاف ووصف أنواع الأشجار المختلفة أمامهم و يوضعون على قارعة الطريق و يطلب منهم القيام لجرد بعض خاصيات الشارع . لا عجب أن يكون لهذه الأمم علماء و بحث علمي , بينما يصل الطالب عندنا إلى الدكتوراه في الطب , و هو لا يزال يرتب ألفية ابن مالك العصرية . إن مراجعة البرامج بإعطاء مادة المنهجية , مكانتها أمر ضروري و يجب أن نجعل من المنهجية العلمية مادة إجبارية ذات أقوى ضارب في الجامعة لا في الطب فحسب و إنما في كل الميادين أكانت علمية أم أدبية .

إصلاح البرمجة : لماذا تعطي الشهادة الابتدائية لمن يعرف الحساب (في عصر الحاسبات الالكترونية)و القراءة و الكتابة (في عصر الوسائل السمعية . المرئية) ؟ و لماذا تركز مادة الطبيعيات على حفظ أسماء النباتات و الأشجار لا على زرعها و تعاهدها ؟ لماذا تغفل برامج التثقيف الصحي و القانون الخ ... ؟ أسئلة لم أجد لها ردا و طالما خامرتني فقد راجعت البرامج الموضوعة في الثانوي فعجزت عن استنباط أهدافها أي ما هو نوع الإنسان الذي يطمح تكوينه و لي أن أعتقد أن السؤال خامر أصحابها .....قلنا ما هي أجهزة آلات الحضارة الرابعة ؟

ما هو اقتصادنا المحتمل ؟ ما هي متطلبات في ميدان التصرف ؟ ماذا لو وضعنا برنامج تعليمنا على هذا الأساسي ؟ لا شك أننا سنخلق إنسانا مستقبليا (مع العلم أنني لا أرفض أن تكون له ذاكرة و تراث) . يمكننا من التعامل مع هذا المستقبل الصعبة كأمة بحظوظ أوفر , هل تعلم مثلا أن فرنسا أدخلت 100 ألف عقل إلكتروني إلى مدارسها هذه السنوات الأخيرة و قلي بربك ما هي حظوظ أطفالنا المكدسين في أقسام تحت إمرة معلم منهك القوى غاضب , مضرب جائع يدرس برامج تجاوزها الزمن بيداغوجيا و محتوى قد يمين بالقياس إلى الطفل الفرنسي أو الياباني . و لا ننسى أن معركة الصدارة بين الأمم لا تربح اليوم في ساحات المعارك و إنما في ساحات المدارس .

س **4** : جامعة للحضارة الرابعة

التفتح على المجتمع :

الجامعة قلعة محاصرة و أبراج عاجية تكاد تعيش بمعزل عن الشعب و همومه . حتى لمظاهرات الطلبة و خصوماتهم . هذه الصبغة السريالية , متى كان شغل الشعب الشاغل الخصومة العقائدية بين الماركسية و الإسلام حول جنس الملائكة ؟ أما عن الأساتذة و المؤسسات فحدث و لا حرج ؟

انفصام عن الواقع , عن مشاكل التخلف , عن مشاكل التقدم الاقتصادية التكنولوجية , السياسية , الاجتماعية و كأن تكوين الفنيين دليل على المشاركة الحقيقية يضاف إليه انعزال تأسيسي مقصود ورثناه عن تنظيم فرنسي راجعه أصحابه منذ زمن و لا زلنا نتعيش على ذكراه و ملامحه و أهمها :

1. الانغلاق على النفس , فالجامعة ملك للجامعيين لا يدخلها إلى المتدكتورن ليتدكتروا و الهدف من العمل الجامعي , تكوين الأخصائيين في ميادين معينة (عادة بيداغوجية الكتاب أي الحفظ للاستظهار يوم الامتحان و هي بيداغوجية تجاوزها الزمن) .

2. الانغلاق على مئات الآلاف من المتعطشين للعلم و الذين لا تلتفت إليهم . و الحال أن : **1.** دور الجامعة لا يقتصر على تكوين الأخصائيين , فهذا جزء من مهمتها و ليس كل المهمة و إنما و ظيفتها الاجتماعية الأولى هي أن تكون وكالة مخابرات للمجتمع , تجمع له من كل مكان أكبر قدر ممكن من المعلومات بالتخطيط المحكم و العمل الناجع في الميادين الاقتصادية و التكنولوجية و الاجتماعية الخ ...و هذا يتطلب القيام بعملية رصد لكل الطاقات الفكرية في المجتمع و إدخالها في خضم عملية التفكير و التكوين التقني و العام . بعبارة أخرى إن كان أكبر أخصائي في الفن الشعبي ليس دكتورا , فلماذا لا يطالب بالتدريس ؟ و إن كان للمهندس الألمع و الصناعي الناجح و الكاتب الموهوب رغم أنه معلم) ما يقوله في ميدانه فلماذا تقتصر الجامعات على كفاءات (بعضها شاخت) و ترفض ما يوجد خارجها تفتح أول إذن يكون بجلب الطاقات كل الطاقات الخارجية , لكن الانغلاق موجود أيضا داخل الجامعة نفسها , فالطب يجهل علم الاجتماع و علم الاجتماع يجهل التكنولوجيا , و التكنولوجيا عديمة التفاعل مع علم النفس ....و السبب في كل ذلك الغلطة المنهجية الأولى . التي بنيت عليها الجامعة , و هي أنها مدرسة مهنية من مستوى عال , و أقول أنها غلطة لأن المهنة نفسها لا تتقن إلا إذا كان للمهن معلومات خاصة تقنية و عامة أي ثقافية فالنجاعة إذن تتطلب مد الجسور بين الاختصاصات كأن لا تعطي الشهادة لطبيب إلى إذا كان له تكوين في أحد ميادين العلوم الإنسانية و الطبيعية أو أن تقحم شهادة علم الاجتماع في الهندسة المعمارية أو أن لا يتخرج فيلسوف إذا لم تكن له شهادة في أحد الميادين العلمية .

يبقى كسر الانغلاق الأكبر ...الانغلاق على الشعب قلت إن الجامعة أكثر من مدرسة مهنية من طراز عال و أنها ليست ملك أخصائييها , و إنما هي مؤسسة وطنية تساعد على التقدم الثقافي و الاقتصادي . و هذا التقدم لا يكون إلا بتسرب المعرفة من الجامعة إلى عامة الشعب , ماذا فعلت جامعتنا في هذا الميدان خلال الربع القرن الأول ؟ الجواب لا شيء , ماذا يجب أن تفعل خلال ربع القرن الآتي ؟ الجواب كل شيء . و لبلوغ هذا الهدف يجب : **1.** الفصل بين التعليم التقني البحت الذي ينتهي بشهادة مهنية بين التوعية و التثقيف الذين هما من حق الجميع .

2. إعتبار التعامل مع الشعب هو القاعدة , كيف ؟ لتبويب تراثه و المحافظة عليه أولا و ثانيا بنقل كل المعلومات المستحدثة إليه كأن يشمل دور كلية الطب إعداد برامج التثقيف الصحي للراديو و التلفزة و يشمل دور كلية الزراعة إعداد نفس البرامج التثقيفية

للمزارعين . و يشمل دور كليات الهندسة إحداث دورات نقاش و توعية , لكي لا نبني منازل نموت فيها من الحر أثناء الصيف و تكون أبرد من الشارع في الشتاء الخ ... الخ ...

البحث العلمي :

يقال أن البحث العلمي من مشمولات الجامعة و أهدافها و أقول تلك هي النظرية ,أما الواقع فهو حسب تجربتي كالآتي : **1.** وجود البحاثين , و من مستويات عليا لكن ... في المهجر

2. يأس الكثير منهم من الجامعة و ابتعادهم عاجلا أو آجلا عن البحث بعد طول خصام مع النظام الهرمي التعجيزي و غياب سياسة واضحة لتشجيع البحث و البحاثين ماديا و معنويا .

3 تعدد الأبحاث الهامشية التي قلما توظف في تقدم البلاد خطوة على هذا الصعيد أو ذاك .

4. غياب العمل المندمج المتعدد الأطراف سواء داخل الكلية , أو بين الكليات المتعددة للوطن . فما بالك بالعمل المشترك بين الكليات المغربية و الأجنبية بصفة عامة . البحث عندنا حاليا من مستوى الصناعة التقليدية (قبعة الكاوبوي بجلد الجمل) . و عندهم أي في أوروبا و اليابان من مستوى الصناعة (صناعة العقل الالكتروني و المكوك و الصاروخ و الأقمار الصناعية) .

و أسباب تخلفنا في هذا الميدان هي التالية : **1.** البحث عملية جماعية توضع في البلدان المتقدمة كاليابان في خدمة أهداف قومية واضحة : تطوير الصناعة الإلكترونية التي تحقق للبلاد أرباح خيالية أو غزو الفضاء في أمريكا أو احتلال سوق الأدوية في سويسرا الخ ... إذن البحث العصري هو قضية تخطيط و إدماج في إطار النهضة الاقتصادية و الثقافية .

هل لنا مخطط في تونس للبحث في قضايا مثل التصحر و الطاقة الشمسية و البناء الخ ...؟ لا طبعا **!** لنا مجلس أبحاث يختار الأبحاث التي ترد عليه من هذا و ذاك حسب اهتمامات فردية و يعطي الأولوية لأقل البحوث تكلفة . نأتي هنا إلى نقطة حساسة للغاية ...التكاليف : **2.** لنتفق من الآن على مبدأ : لا وجود لبحث متطور بدون إمكانات متطورة فقد ولى عصر العباقرة الذين يكتشفون نظرية النسبية و هم في مكاتبهم , و البحث العلمي اليوم صناعة لا تقدر عليها إلا أعظم الدول و أعظم الجامعات , حقا المال شرط ضروري و ليس كافيا كما يقول علماء الحساب لكنه شرط ضروري .

نستطيع التلاهي بهذا الموضوع أو ذاك لكن إن أردنا الدخول صلب القضية : اكتشاف أدوية , صناعات , تقنيات القرن الواحد و العشرين (التي سندفع ثمنا باهظا للتمتع بها إضافة إلى التبعية إذا عجزنا عن اكتشاف البعض منها للمقايضة) . فالحل هو البحث العصري بكل تكاليفه .

و تسأل أين نحن من هذا البحث و ميزانية جامعات كاليفورنيا تفوق ميزانية الدولة التونسية ؟ هنا نصل إلى قلب المعضلة نكون أو لا نكون . ولا وجود لحل وسط , الحل هو بدايته ما ناديت به العديد من المرات .

السوق العلمية العربية المشتركة , المال موجود و الأدمغة العربية كذلك (و هي ربع الأدمغة الموجودة في العالم) لكن لا على صعيد الأمة لكن لا على الصعيد الضيق للوطن القطري .

لماذا لا يطرح رئيس حكومتنا في أحد مؤتمرات القمة العربية المقبلة فكرة المعاهد المشتركة للبحث المتقدم (المنزوعة من السلاح السياسي طبعا) مع العلم بأننا نحتاج حتى ندخل القرن الواحد و العشرين بشيء من الحظوظ إلى :

1. المعهد العربي للعلوم الذرية ,

2. المعهد العربي للأبحاث الطبية و الصيدلية ,

3. المعهد العربي للأبحاث الفضائية,

4. المعهد العربي للمحروقات ,

5. المعهد العربي لعلوم الصحراء ,

6. المعهد العربي للبحار ,

7. المعهد العربي للزراعة ,

8. المعهد العربي للإعلامية ,

هل تتصورون إمكانات هذه المعاهد التي يمكن أن تجمع خيرة بحاثي الأمة يطورون اللغة , والمنهجية والاقتصاد , والتعاون الأخوي و... يدافعون عن شرف هذه الأمة التي عقرت بعد ابن خلدون والتي تتشدق بأمجادها الماضية , لأنها تتخبط اليوم في عار التبعية والتخلف , ولا تجد ما تفخر به عمالقة هذا القرن ؟

التعريب :

لغتنا تهمشت , أصبحت خليطا صارت مسخا , و الشعوب اليوم تفقد لغتها تفقد وجودها , فوجود هذا الشعب مهدد إذن . إن أردتم أن تصبحوا قمرا صناعيا يدور في فلك فرنسا , فذلك خياركم لكنه ليس خياري . ومن أسباب تهميش لغتنا وإذلالها وتحطيمها : التعليم , وعلى رأسه التعليم العالي .

نعرف مقولة : الفرنسية وحدها اللغة الممكنة , هي لغة العلم والتفتح والتقدم والتخلي عنها يعني التراجع , أقول لو كان ذلك صحيحا لقلت لتذهب العربية إلى الجحيم ولكنه كلام أخرق ولأنه كلام اخرق فإنني لن أتنازل إلى مناقشته , يضاف إلى ذلك أنه ليس في أغلب الأحيان إلا التغطية النظرية لخيرات سياسية معروفة لا جدال فيها لأنها تخدم مصلحة طبقة معينة ذات مصالح معينة , كذلك لن أناقش مقولة : العربية قادرة على مواكبة العلم وترجمة أحداث تياراته لأن الأمر بديهي بالنسبة إلي و أنا لا أناقش البديهيان .

الموضوعان المطروحان هما :

1. متى , وكيف ستتوفر الظروف والاختيارات السياسية التي ستحقق التعريب في كل المستويات وعلى رأسها التعليم العالي ؟

2. ما هي المراحل والاستعدادات التقنية التي يجب توفيرها لكي تكون العملية ناجحة؟

وفي الرد على النقطة الأولى أقول : الوضعية الحالية عابرة والتاريخ لا يرحم المتخلفين عن الركب وإرادة الشعب واضحة لا لبس فيها وكذلك كل مستندات القضية. نحن مقبلون شئنا أم كرهنا على تغيرات وإصلاحات في كل الميادين, لذلك ستتقدم على الركح تيارات وشخصيات سياسية لتفوز برضى هذا الشعب المتزايد نضجا وإدراكا ووعيا (و ... نفاذ صبر) يومئذ سيسألون : ماذا عن التعريب ؟ متى وكيف ؟ وسنختار أنصار التعريب أي أنصار لغة هذا الشعب وسنحارب الآخرين...

تبقى المشكلة التقنية وهي هينة وصعبة في نفس الوقت . هينة إذا توفرت الإرادة السياسية والطاقات الخلاقة وصعبة إذا كان القرار غامضا وإن تركت لأعداء التعريب كل فرص العرقلة , و التعطيل و هو ما سيقع حتما لأن الفرنسية ليست لغة تدريس علوم فحسب , ذات حياد إيديولوجي و إنما هي قبل كل شيء القناة الأيديولوجية الأولى التي تمر عبرها المعلومات التقنية الموجهة لخدمة أهداف و أعراض إيديولوجية يؤمن بها و ينادي الكثير ممن تمرسوا داخل الجامعة .

لنفرض أن الإدارة السياسية الحازمة تدعمها إرادة الشعب , قالت كفى من الآن فصاعدا نحن بلد عربي , جامعته تنطلق بلغة أجدادنا و أحفادنا , ننفض عن أنفسنا غبار التبعية و عقدة النقص , بطبيعة الحال لن تذلل هذه الإرادة كل الصعوبات التقنية لكنها ستسمح بمواجهتها من موقع القوة و الصعوبات على قدرة المهمة لذلك يجب أن تدخل في إطار عملية محكمة طويلة النفس : إعداد الكتب , رسكلة الأساتذة , رسكلة الطلبة , استعمال الإعلامية العصرية , بالطبع يجب البداية بتعريب الفيزياء النووية و الطب و هندسة الطيران حتى لا نجعل من تعريب الجغرافيا (أضعف الايمان) الحجة و الذريعة , هل يعني هذا الانغلاق على أنفسنا في إطار ردة فعل شوفينية و طنية دينية ؟ كلا طبعا و اللعنة على الشوفينية على الوطنية على الدينية . فالجامعة هي معقل فكري لا يحد بحدود عرقية أو دينية , بل بالعكس فالتعريب لن ينجح إلا بالتفتح .

1. على جامعات العرب : كل هذه الجامعات مقدمة على التعريب , لأن مرحلة تاريخية مرت و الأخرى آتية لا ريب فيها , إذن نحن لن نعرب لأنفسنا إنما للآخرين , هل تتصوروا معنى أن تصبح تونس بنكا للمعلومات في هذا الميدان لجامعات الوطن من الرباط إلى الظهران .

2. على جامعات الغرب و العالم : نحن سجين الفرنسية و أنا لست ضد الفرنسية فهي لغة نكتب بها نصف الوقت , نعترف بفضلها علي و علينا كلنا , لكن الشجرة التي تخفي وراءها الغابة و الغابة هي اللغات الأخرى , لغات العلم و المعرفة و تصورات منعشة .

نعرب إذن و نفتح نوافذ على الانقليزية و اليابانية و الروسية و الفرنسية ؟ فهي لغة قرر أصحابها وضعها في مرتبة اللغات العلمية المتقدمة ...من هنا إلى أواخر القرن ..ما رأيكم أن نحترم نحن لغتنا و أن ندافع عنها كما يفعلون ....؟

س 5 : البحث المشترك

البديهيان :

1. إذا عظمت الشعوب و مناعتها لا تقاس كما يحيل للبعض في هذا العصر , بضخامة ترساناتها العسكرية و إنما قدرتها على خلق و استعمال التكنولوجيا , و من ثمة العلم الذي تتوفر عليه أمة ما هو ضمان رخاءها و تطورها الاقتصادي . هو ضمان مناعتها العسكرية , هو ضمان استقلال السياسي .

2. نحن العرب لا نخلق علما و لا ننتج تكنولوجيا . لا في ميدان البضائع المتطورة و لا في ميدان المغامرة الفضائية , و لا في ميدان استثمار الطاقات المنجمية , و لا في ميدان الأبحاث البيولوجية و الطبية , نحن نستورد و نستهلك ...نحن عبء على الفكر الخلاق على العامل بجد ونشاط في مخابر اليابان أمريكا و أوروبا و الاتحاد السوفيتي و حتى الهند و الباكستان التي نستجدي منها أسرار القنبلة الذرية التي عجزنا عن صنعها و الحل أن إسرائيل تملك منها العشرات .

3. إن الهوة الساحة التي تفصل بين قدراتنا العلمية . التكنولوجية و قدرة الأمم الخلاقة تزداد اتساعا يوما بعد يوم رغم التزايد السريع في عدد جامعاتها و بحاثيها و طلبتها , قد يستحيل في يوم قريب القفز فوقها و اللحاق بركب هذه الأمم القليلة التي تملك ما بين يديها من الآن كل مقومات القوة من بضائع و أسلحة و طاقة و وسائل السيطرة المطلقة على الفضاء و البحار و المحيطات و من ثمة فإننا سنبقى إلى الأبد أمة تابعة تعيش على فتات الأمم المبدعة .

4. المجهودات المبذولة حاليا في كل قدر عربي لتكوين الجامعات و الباحثين (و هي مجهودات جبارة) لم تؤدي إلا إلى جعلنا قادرين على فهم و استيعاب ما تكتشفه العقول الخلاقة , لكنها لن تمكننا بأي صورة من الصور من المساهمة في مغامرات الخلق و الإبداع العلمي . التكنولوجيا .

5. ضيق السوق الفكرية و صغر جامعاتنا و استحالة استخدام طاقاتنا الخلاقة (المتواجدة بسخاء) بمستواها الحقيقي , أدى و يؤدي و سيؤدي إلى هجرة الأدمغة العربية التي تشكل ربع الأدمغة المهاجرة في العالم ومن ثمة فإن جامعاتنا ستغذي شاءت أم أبت مراكز القوى الفكرية والتكنولوجية في العالم التي تكبلنا يوما بعد يوم بأغلال التبعية المطلقة .

6 . التغني بأمجاد الأجداد للتغطية على واقعنا المخزي و تأخرنا المهول رياضة مارسناها إلى حد الغثيان , وقد آن الأوان لأن نضع لها حدا فهي لا تغني ولا تسمن من جوع .

7. نحن مطالبون لضمان استقلالنا و تطورنا الاقتصادي و أمتنا و للمحافظة كذلك على شرف الحضارة العربية , بتوحيد امكانياتنا و طاقاتنا على الصعيد العلمي , حتى يكون لأبنائنا و أحفادنا نصيب في هذه الأرض وخيراتها .

حاجيات الأمة : طبيعة هذه الحاجيات مفروضة بحكم نوعية الميادين العلمية التكنولوجية التي تغير يوما بعد يوم ملامح عالمنا هذا و مصير أممه وهي كما يلي :

1. الإعلامية : نحن بحاجة إلى مهد عربي للأبحاث الإعلامية , تكون مهمته تكوين جيل إعلامي عربي يواكب أبحاث العصر , ويمهد للأجهزة التي نحن مضطرون إلى استيراد أبسطها من أمريكا و أوروبا واليابان , لن تكون لنا أدنى قفزة علمية في الميادين المتطورة الأخرى كالذرة والفضاء , والصناعة الإلكترونية ...

2. الطاقات الجديدة : البترول إلى نضوب كما نعلم , و العالم متجه إلى استخدام الطاقات الجديدة و على رأسها الطاقة الشمسية , أليس من السخرية أن ننتظر من المخابر الكاليفورنية أن تعلمنا استخدام هذه الطاقة المتوفرة بسخاء جبار ؟ هل نترك لهم هذه السوق الهائلة التي يمكن أن تدر على أمة تملك التكنولوجيا الشمسية ثروات هائلة ؟

3 . الأبحاث الطبية و الصيدلية : وزننا في هذا الميدان كوزننا في بقية الميادين العلمية الأخرى , أضف صفرا إلى صفر كما قال زغلول يكون الحاصل دائما صفر .

إن حاجياتنا مع ذلك في هذا الميدان لا تقدر بثمن , و نحن بأمس الحاجة إلى مسح كامل مشاكلنا الصحية الخاصة , بالإضافة إلى أننا مطالبون كأمة تفخر بأمجادها في هذا الميدان باكتشاف علاج السرطان و الأمراض العصبية و الآفات الكثيرة الأخرى التي تهدد صحة الإنسان , و الأمة بأمس الحاجة أيضا إلى مركز أبحاث صيدلية يتعامل مع صناعة عربية للأدوية تفي بحاجياتنا و تقينا من التبعية المطلقة التي تربطنا بصناعات الغرب . هل الغرب و الاتحاد السوفيتي , النتيجة على الصعيد الصحي بالنسبة للأمم التابعة قد تكون عودة عصور الأوبئة .. لأن جميع الأدوية تصنع عندهم .

الهندسة البيولوجية : يكتسب هذا العلم الحديث جدا أهمية قصوى تتزايد يوما بعد يوم و قد يشكل العلم الرئيسي للقرن الواحد و العشرين , و يتمثل في استعمال الخلية الحية (كالخلايا الجرثومية) لصنع المواد العضوية التي تحتاجها الإنسانية . و قد بدأت المختبرات الغربية تصنع دواء الأنسولين الضروري لعلاج مرض السكري ابتداء من بعض الجراثيم , كما تعقدت الأبحاث الرامية إلى تحسين مردود النباتات , و من المنتظر أن تكون الهندسة البيولوجية سلاح الإنسانية في المستقبل ضد الجوع و ذلك بصنع البروتينات الضرورية للإنسان بأبخس ثمن حتى لا يفوتنا الركب , يجب أن يكون لأمة معهدها للهندسة البيولوجية .

5. الأبحاث الفضائية : سيشكل الفضاء في القرن المقبل الساحة الرئيسية التي يتقرر فيها الفرز بين الأمم السائدة التابعة .

عسكريا : لن تقوم قائمة لأي أمة تطمح إلى الأمن و الاستقلال إن لم تتمكن من مراقبة خصومها في الفضاء بفضل الأقمار الصناعية .

اقتصاديا : ستكون هذه الأقمار و صناعتها موردا هاما للأمة المصنعة نظرا لأنها ستصبح من معالم الحياة العادية للإنسانية في المستقبل , كذلك ستكون القاذفات من صواريخ و مكوكات التي تسمح بوضعها في مدارها الفلكي موردا هاما اقتصاديا , و عامل

ضغط عسكري و سياسي إذ لا يمكن لأي أمة لا تتوفر على قاذفاتها الخاصة استعمال الأقمار الصناعية للرصد الجوي و التجسس العسكري و المسح البيولوجي لثرواتها المنجمية , و نقل برامجها الإذاعية و التلفزية الخ ...

الأمة مطالبة إذن , بالتمكن من تكنولوجيا القاذفات و الأقمار الصناعية , لأن استقلالها و مناعتها و تقدمها مرتبط بمثل هذه التكنولوجيا و بداية الحل هنا أيضا : المعهد العربي للأبحاث الفضائية .

6) الأبحاث النووية : المفاعلات التي تبيعنا إياها بعض الدول لتضربها إسرائيل كلما لاح منها خطر هي في أغلب الأوقات مفاعلات تجاوزتها التكنولوجيا الحديثة منذ مدة , في جانب بساطتها إن لم نقل بدائيتها .

- **وفوائد التمكن من علوم و تكنولوجيا الذرة بديهية لا تتطلب شرحا مفصلا : التوازن الذري مع إسرائيل التي تستطيع تدمير مدننا و محو القاهرة و عمان و بيروت و دمشق و الضهران من الخريطة إذا سجلنا ضدها نصرا عسكريا في ساحات القتال بالأسلحة الكلاسيكية ,**
- **استغلال الطاقة النووية لحاجياتنا في ميدان الكهرباء و الطب إلخ ...**

أضف إلى هذا مرة أخرى شرف المشاركة في ميدان العلوم النظرية المتقدمة التي تتعامل مع المعضلة طبيعة المادة التي تكون نسيج هذا الكون .

7) علوم البحر : الإمكانيات التي توفرها البحار و المحيطات سواء على مستوى الدراسات النظرية أو على مستوى الخيرات المعدنية البيولوجية إمكانيات هائلة , و هذا ما فهمته الدول الكبرى التي تتوفر على جامعات عائمة ترصد ثروات البحار و تخطط لوسائل استخراجها .

أنبقى نتفرج عليهم و هم يتقاسمون الوليمة ؟ أم نبدأ نحن أيضا مغامرة السيطرة على البحار ؟ و بداية المغامرة تكون بإحداث المعهد العربي لعلوم البحار و أقسامه أي بواخره التي تجوب المياه من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي, مجمل القول :

- **نظرا لما يتطلب العلم الحديث من تجنيد طاقات مادية و بشرية لا يمكن أن يحقق جزء ضئيل منها أي قطر عربي بمفرده**
- **نظرا لأن البحث العلمي و ضمان الحاضر و المستقبل .**

فإن الأمة مطالبة بتوحيد جهودها في هذا الميدان و إحداث مرحلة أولى :

. المعهد العربي للإعلامية ,

. المعهد العربي للطاقات الجديدة ,

. المعهد العربي للأبحاث الطبية و الصيدلية ,

. المعهد العربي للهندسة البيولوجية ,

. المعهد العربي للأبحاث الفضائية ,

. المعهد العربي للأبحاث النووية ,

. المعهد العربي للعلوم البحرية .

كيف يمكن أن تبرز هذه المعاهد للوجود ؟

1)لا يمكن لهذه المعاهد أن ترى النور إلا بمقتضى إرادة سياسية , و بما أنها لا يمكن أن تكون نظرية , فالإرادة السياسية المطلوبة هي إرادة جماعية يكرسها إجماع الملوك و الرؤساء العرب على قيام برنامج للنهوض بالعلوم المتطورة في أرجاء الوطن . مع التذكير بأن التاريخ لم يحفظ للمأمون ذكرى فتوحاته بقدر ما حفظ له أنه كان خليفة التراجم و المكتبات .

2) حتى يمكن لهذه المعاهد أن ترى النور إلا بمقتضى إرادة سياسية , و بما أنها تخلق بقرار سياسي ، لتمحوا عنها حال برزوها إلى النور كل صفة سياسية .

3) توضع المعاهد تحت إشراف الجامعة العربية و بالتحديد تحت إشراف المنظمة العربية للثقافة و العلوم بعد إحداث تغييرات جذرية في هذا الجهاز وليتمكن من تأدية مهامه الجديدة :

4) توضع المعاهد تحت إدارة مجتمع علمي عربي يضم نخبة علماء الأمة يقع اختيارهم من طرف الجامعات و الحكومات العربية , و يعهد إليه بتوزيع المعاهد على مختلف الأقطار حسب مقاييس يقع ضبطها في الأوان .

5) يقع انتقاء البحاثين العرب العاملين في مختلف المعاهد من طرف إدارة المجمع العلمي حسب مقاييس صارمة لضمان جودة و نوعية النخبة العاملة في هذه الحقول العلمية المتقدمة .

6) يعهد إلى المجتمع العلمي (المجدد) و المشرف على المعاهد سياسية بتحديد معالم سياسية ترتكز على أربعة محاور رئيسية :

- تصبح المعاهد " بنك معلومات " و تكون إحدى مهامها تجميع كل هذه المعلومات المتراكمة بسرعة فائقة لتعريبها و خزنها في العقول الإلكترونية , ووضعها تحت ذمة كل المؤسسات العربية الجامعية الاقتصادية و العسكرية التي يمكن أن تعرف كل ما تحتاج و ذلك بسؤال العقل الإلكتروني مباشرة .
- تصبح المعاهد مركز تدريب لخبراء الأقطار العربية في الحقول العلمية الحساسة و المتقدمة , و من ثمة يمكنها أن تنسج بين باحثي الأمة العلاقات الضرورية لمواجهة التحديات المشتركة علاوة على ذلك فإن استعمال هذه المعاهد للغة العربية و هو موضوع لا نقاش فيه بعيد إلى لغة إبن الهيثم و البيروني و إبن نفيس دورها الطبيعي كلغة علم .
- تقوم المعاهد بأبحاث نظرية تواكب بها تطور العلوم و التقنيات , في الوقت الذي يمكن أن تتعاقد فيه مع هذه الحكومة أو تلك أو حتى مجموعة حكومات لتحقيق إنجازات معينة كانتاج القاذفات أو الأقمار الصناعية العربية, أو تحسين المنتوجات الزراعية .

- تقوم المعاهد بمعونة الجامعات و المدارس الثانوية و الابتدائية في الوطن بعملية جرد للمواهب العلمية الخارقة و ذلك بتنظيم المسابقات العلمية و توزيع الجوائز و المنح على الفائزين في المستويات الثلاثة كما يعهد إلى المعاهد بمهمة استقطاب الأدمغة المهاجرة و حتى غير العربية إن تطلب الأمر , كما تخصص جائزة نوبل أمواله أو جزء منها لهذا الغرض النبيل و تكون قيمة هذه الجائزة ماديا و معنويا في مستوى الجائزة العالمية .

7) يكون تمويل إنشاء و تسيير إطار الجامعة العربية . مثلا يمكن أن تخصص كل دولة 1% من ميزانية التسلح لهذا الغرض . و إن لم نفعل ؟

1. سيتزايد تهميش و تقزيم اللغة العربية التي قطعنا (خاصة في المغرب العربي) أشواطا كبيرة في أعمال تهميشها و تدميرها و ذلك باستعمال اللغة الأجنبية في الميادين التقنية و العلمية التي تمس الحياة مباشرة و اعتبار أن العربية لا يمكن أن تكون شيئا آخر غير لغة الخطب و البيانات .

2. ستتزايد تبعيتنا التكنولوجية و الاقتصادية و السياسية و العسكرية , و كل من لا يفهم هذا الترابط الحتمي مطالب بمراجعة معلوماته عن سير الدنيا و قوانين العصر .

3) سنبقى متطفلين على الحضارة المعاصرة , نستهلك , لا ننتج , نتغنى (لكن بدون جدوى) بأمجاد الماضي لننسى عقمنا الحاضر.

تتلخص مأساة الأمة.

1. في عجز أقطارنا كل على حدة على مواجهة تحديات العصر التكنولوجية الاقتصادية و العسكرية و السياسية .

2. في فشل كل الجهود لتوحيد الطاقات و ذلك للغلطة المنهجية الخطيرة التي أرتكبت منذ البداية و أرادت تذويب كل الفوارق و التشكيلات الموضوعية الموجودة كالدول و ذلك بمنتهى السرعة متجاهلة أن الدول كائنات حية لا تموت و إنما تتغير و تتطور ببطء .

نحن اليوم مطالبون برفض التحدي التكنولوجي فالاقتصادي فالعسكري فالسياسي , ونحن أيضا مطالبون للنجاح في هذه المهمة المصيرية في إعادة النظر في منهجيتنا الوحدوية والمنهجية الوحيدة الممكنة هي التي توخاها الأوروبيون : لبنة توضع بعد لبنة . وهكذا طوال سنوات إلى أن يستقيم البناء الشامل , السوق الفكرية العربية المشتركة هي لبنة هامة من لبنات صرح عروبة القرن الواحد والعشرين ...

س6 : التخطيط المستقبلي

المنهجية الجديدة :

لما نشرت آلاف المقالات ومئات الكتب في الغرب إبان العشر سنوات الأخيرة . وتبحث كلها في موضوع المستقبل لا من باب الأحلام التي يتكفل بها الخيال العلمي و ولكن من باب التخطيط الصريح للمستقبل ؟ والانتقال النوعي واضح للباحث في هذا

الميدان فالفكرة تنتقل من الحلم إلى إرادة السيطرة والتنفيذ والسؤال هو ما الذي حدث في الغرب في العشرية الأخيرة , لكي يحصل هذا الانتقال النوعي , واعتبر أن وراء هذا العامل سببان :

1- التطور المذهل للتكنولوجيا الحديثة وأخص بالذكر منها الإعلامية والروبوتية والهندسة البيولوجية التي فتحت أبوابا وميادين هائلة للسلطة والتسلط (على الطبيعة والإنسان) لم تكن تخطر ببال رجال الخمسينات (وقد حلم بها الفكر البشري في العشرينيات وحتى قبل تحت قناع الخيال العلمي).

2- الأزمة الاقتصادية التي عصفت بدعائم الغرب بعد حرب رمضان وارتفاع أسعار البترول , وقد شكلت هذه الأزمة حافزا لعقول الغرب لاكتشاف بديل للبترول , وبديل لسياسة السهولة التي كان الغرب يمارسها نظرا للرخاء المنقطع النظير الذي عرفه (اليابان) بعد الحرب العالمية الثانية .

تواجد الدافع وظهور تكنولوجيا جديدة ظاهرتان تفسران لنا التحول في العقلية , لكن من الخطأ أن نقول أن الفكر المستقبلي بدأ منذ عشر سنوات فقط فله جذور قديمة في :

1- التخطيط المستقبلي للبلدان الاشتراكية الذي أدخل فكرة التحكم في الزمن لإيجاد مستقبل منشود ومحدد وللشركات العالمية طبعا دراستها لكل الاحتمالات الاقتصادية .

2- السيناريوهات الاستراتيجية العسكرية للدول الكبرى التي تضع عدّة احتمالات سياسية وعسكرية وتبنى على أساسها مخططاتها الدفاعية والهجومية .

طبيعة وأهداف الفكر المستقبلي :

هو فكر مركز الثقل في المستقبل ومحاولة السيطرة عليه وبالتالي فهو نقيض للمذهب القدري , إذ يفترض أن ليس هناك مستقبل مقدر علينا وإنما مستقبلات محتملة , نستطيع الخيار بينها وتوجيه دفة سفينتنا نحو أفضلها . معنى هذا أيضا أنه يرفض أن يكون المستقبل حصيلة قوى عمياء تدفعنا في اتجاه قد لا يرضينا .

هنا تعترضنا مشكلة مصيرية : من يقرر ما هو أفضل مستقبل . والرد بديهي : الأقوى طبعا لذلك أقول انتبهوا يا عرب يا توانسة فالفكر المستقبلي سلاح نظري يضاف إلى كل الأسلحة التي لا نملكها والتمكن منه قد يعيننا على الأقل على فهم الاتجاه الذي تحاول الأمم المسيطرة والطبقات المسيطرة داخلها دفع عجلات التاريخ (... تاريخنا) نحوه .

محدث أم قديم : قديم طبعا وبصفة إجبارية

الفكر بطبيعته ثنائي لا يتعامل إلا مع الظواهر ونقيضها نور/ ظلام- طول/عرض- إيمان/ إلحاد- رجل/امرأة حرية / عبودية- ماضي / مستقبل . معنى هذا أنك أينما وجدت الشيء إلا وكان معه نقيضه ووجودهما في نفس المعادلة ضروري بالطبع . لذلك تراني مشفقا على كل الذين يحاولون خلق فكر أو عالم لا تناقض فيه فالفكر المستقبلي يتعايش دوما من قديم الزمان مع الماضية . وهذا ما تثبته أبسط دراسة للتاريخ .

خذ من جملة المؤشرات جمهورية أفلاطون , والمدينة الفاضلة للفرابي وسائر الأعمال الفكرية التي كانت تخطط بكثير من التدقيق لعالم أفضل يتجاوز فضاعات الحاضر الذي كان يأخذ بخناق أفلاطون والفرابي وتوماس مور ورابلي الخ...

نقطة التحول :

في إطار الحضارة الثانية (الزراعة) كان التطور بطيئا و التاريخ يكرر نفسه برتابة مملة و من ثمة كان الإنتاج الذي يركز على المستقبل كمسرح يخطط لاحتلاله حتى بصفة طوباوية (بحتة) قليلا و نادرا

بظهور النهضة في أوروبا و الفتوحات الأوروبية بأمريكا و خاصة بانطلاق مارد الحضارة الثالثة (الصناعية) من معقله البريطاني ليكتسح العالم لاحظنا التسارع الرهيب لحركة التاريخ و التغيير المتصاعد في السرعة في وجه العالم بعد أن أوجدت الصناعة(يوما بعد يوم) وسائلا لتغيير هذا الوجه . لا غرابة إذن أن يصبح المستقبل مركز الثقل في تفكير الغرب بما أنه المساحة المفتوحة التي ستسمح باكتشاف مزيد من وسائل التغيير و مزيد من التأثير على مصير الدنيا أي مزيد من ... السلطة و التسلط .

وسائل الفكر المستقبلي :

1. البحث العلمي والتكنولوجي وتجند له الأمم والحكومات والشركات العالمية موارد هائلة تشجيعا لا يفتر . والبحث العلمي ليس بالضرورة قضية أناس يعملون في المختبرات الجامعية مثال بسيط :

ترتب الشركات العالمية الكبرى ملتقيات لأطرها في أفخم الفنادق و يكون الأمر : فكروا . تخيلوا . إحلموا . هلوسوا . اهذوا ما طاب لكم الهذيان حول موضوع سيارة المستقبل مثلا ويسمون هذه الطريقة العاصفة الدماغية (**Brain - storming**) وعن هذه الهلوسة والمخيلة التي لا يحدها أحد تولد مئات الأفكار الغريبة والمجنونة والشاذة ... والصائبة, ثم تقع الغربلة والتنفيذ وغزو الأسواق , وبهذه الطريقة يعدون لنا آلات وأجهزة المستقبل التي ستغير حياتنا أكثر من ألف برنامج سياسي طوباوي . والحق أنني أصاب بنوع من اليأس والإحباط عندما أدرس مختلف الطرق المعتمدة بخلق معالم المستقبل وكلها تعتمد على استغلال مخيف للطاقة الأولى الطاقة الدماغية وذلك بتشجيع و تجميع الأدمغة وإعطائها كل حرية التفكير والخيال وتنظيم الجامعة و الصناعة ودنيا السياسة نفسها للتخلص من غير الأكفاء

(بالتقي الدائم) وتشجيع الكفاءات , في حين أننا نتصرف عكس هذا أي أننا نقتل كل طاقة فينا بتنظيم مجتمعنا وفقا لمصالح الأشخاص أي لمصالح أدمغة محدودة وتقرر وحدها و كأن أي دماغ يساوي وحده آلاف الأدمغة , مضيفا قلة النخاعة إلى الوقاحة , وأنا أشعر بالقهر عندما أتصور كل الوقت الذي سنضيّعه لفرض الحق كل الأدمغة في الفكر والقرار (أي فرض الديمقراطية) , لأننا سنكون حتى ولو نجحنا في تكوين الشبكة الدماغين الخلاقة قد تأخرنا عن هذه الأمم التي تجري إلى المستقبل بدون قيد في أقدامها .

طريقة أدلفي : هي من جملة الوسائل المعتمدة لاكتشاف أجهزة الغد وتتخلص الطريقة في بعث أسئلة محددة عن سيارة الغد المنشودة إلى آلاف المختصين (الأدمغة الفعالة) لمحاولة اكتشاف التصور الذي يتخمر في هذه الأدمغة . والعمل على استعمال هذه الأفكار

هناك عدد كبير من الطرق التي تمكن الشركات العالمية الخاصة من أعداد تقنيات الغد , أو من استيعاب ما ظهر خارج هذه الأعمال

قارن إنتاجية هذه الشبكة الدماغية الرهيبة التي تتجدد دوما والتي لا تقبل غلا الجدوى والفعالية كمعيار لتعيين الإنسان المناسب في المكان المناسب والتنظيم – الهرمي القار – الذي يوضع في الشخص في الجامعة والمصنع والسياسة مدى الحياة وبدون تقييم وتكون مهمته خنق كل طاقة قد تحاول زحزحته من مكانه .. وضع بعد هذا مسؤولية التخلف على الصهيونية العالمية والتخلي عن تعاليم الإسلام .

الستراتيجيات والسيناريوهات :

إن الفكر المستقبلي لا يحاول كما أشرت إلى ذلك " التنبؤ" بمستقبل حتمي وإنما اعتبار كل المستقبلات الممكنة لمحاولة اختيار أفضلها (للطبقات السائدة في البلدان السائدة طبعا) وتوضع استراتيجيات في تصور إمكانيات تطور مشكل ما : (مصير مشكلة الشرق الأوسط مثلا) بمحاولة اعتبار الثابت (الرفض المتبادل) والمتحول (إمكانيات الطرفين) وعلى هذا الأساس تقام الفرضيات (حرب ذرية – حرب كلاسيكية ينتصر فيها العرب – سلام يفرض من قبل القوتين الخ ...) وتوضع كل هذه الاستراتيجيات التي تغذي بأدق المعلومات كإمكانات تتصرف على وفقها الشركات العالمية والحكومات . بل وتحاول خلق الظروف لتحقيق هذا السيناريو بدل الآخر .

الامتداد الكمي : رغم أن المستقبل لا يشكل امتدادا للماضي أو للحاضر وإنما هو شيء آخر فإن بعض الاتجاهات تبقى لفترة متفاوتة قارة ويمكن اعتبارها للتخطيط القريب المدى أي أننا نستطيع مثلا من الآن معرفة نوعية أمراض الغد وذلك اعتبارا لتجارب أخرى وإحصائيات معروفة – هل تعلم مثلا أن المشكلة الصحية الأولى في تونس سنة 2000 ستكون الانفجار الهائل للسرطانات وخاصة لسرطان الرئة نظرا لانتشار التدخين والشلل النصفي وأمراض القلب نظرا لارتفاع نسبة المصابين بضغط الدم والسكري وارتفاع معدل الحياة ؟ وهل تظن أننا أعددنا شيئا لهذا ؟ لا طبعا فنحن نحارب .. أمراض الماضي وعندما تنقرض هذه نجد أنفسنا في كارثة أخرى لم نعد لها العدّة لأن المتخلف كجنرالات فرنسا الذين قيل عنهم أنهم دائما على أهبة الاستعداد لربح الحرب ... التي فاتت .

تصور أن لنا سياسة مستقبلية في الصحة ستتغير كل الأولويات والبرامج مع العلم أن هذا لا ينفي طبعا قضايا الحاضر والماضي وإنما يصبح للعمل " طعما " آخر وجودة وفعالية تجعلنا نتحكم في الأحداث , لا نلهث وراءها كما هو الشأن دائما .

المستهلكون :

هناك طلب كبير على الفكر المستقبلي بمختلف تقنياته وعلى وجه التحديد من أطراف ثلاثة : الدول والشركات , والمؤسسات العسكرية , أما في خصوص الدول فإن أغلب الحكومات الغربية أصبحت تتوفر على معاهد وطنية للمستقبلية , وقد أحدثت فرنسا معهدها في عام **1981** وتولي كل الحكومات كثيرا من الاهتمام للدراسات التي تمكنها من ضبط القرار . أما المؤسسات الاقتصادية والعسكرية فإنها تستهلك الكثير من نتاج عشرات المؤسسات الجامعية التي أصبحت تتخصص في هذا الميدان وحده .

بعض البرامج والأبحاث الحالية :

1- تحسين الأطر النظرية لاكتشاف أحسن الاحتمالات وأكثرها جدية وتنمية كل الأسلحة الفكرية كالنظريات الحسابية واستعمال العقل الإلكتروني .

2- على صعيد الإنتاج : تطوير كل أنواع التكنولوجيا الحديثة مثل الآلات الذكية وإعلامية الجيل الخامس (العقول الإلكترونية المتكلمة) , وتسخير الطاقات , وبناء المدن البحرية ومحطات الفضاء لتجميع الصواريخ المتجهة للمريخ , واستعمار الزهرة **venus** يجعل مناخها مشابها لمناخ الأرض , حسب التقنية المقترحة من طرف العالم الفلكي الكبير **carl sagan** , وتطوير الدراسات الفلكية بالمرقب المركب في المحطات الفضائية وخلق النسخ الآدمية الخ .

3- على الصعيد الاجتماعي : دراسة التأثيرات الهائلة للتكنولوجيا الحديثة على مفهوم الوطن والعائلة والجنس والعمل الخ .

ماذا عنّا نحن ؟

الخيار واضح : نكون أم لا نكون نبقى نتناقش هل نعود لتعدد الزوجات أم لا نعود ؟ هل نقطع يد السارق أم لا نقطع ؟ هل نثبت أولوية أجدادنا في كل موضوع أما ندخل حلبة السباق ؟

وبما أن الفكر المستقبلي يطرح احتمالات ويحاول تطبيقها فهذا هو السيناريو الذي أراه أكثر احتمالا :

- ضياع وقت كبير في نقاش كبير مع الماضوية وربما سيطرة هذه الأخيرة لفترة من الزمن , ثم فشلها الحتمي لأنه لا حلول للمشاكل الحالية والمستقبلية بتجارب الأجداد حتى ولو أوهمونا بأن كلامهم صالح في كل زمان ومكان .
- ضياع وقت طويل قبل تحقيق الديمقراطية , وهي الشرط الضروري لإطلاق الحلول الخلاقة من المعقل الاستبدادي .
- إبان المعركة ضد الماضوية والدكتاتورية , ستنمو الأجيال الجديدة التي ستتشبع بالفكر الجديد والتي ستجبر كل مسايرة الركب .
- نمو الرافد المستقبلي العربي وانتصاره على العوائق وربما دخوله في منتصف القرن المقبل كعنصر فعال في الحركة العالمية .

لا شك أن مستقبلنا سيكون محكوما موجها بصراع هذه التيارات الفكرية السياسية , وبما أن نمو وانتصار الرافد المستقبلي التحرري للفكر العربي مهدد بكثير من العوائق , وأن النصر ممكن لأننا نضع أنفسنا في مجرى التاريخ ولكنه غير مضمون لأن الذئبوية متغلغلة فينا والمستقبل حافل بالمفاجآت , فإننا نجد أنفسنا مطالبين لا بالتساؤل عن شروط النجاح وإنما بالتجند الدائم لمحاولة توفيرها .

****

فـــي المشـــروع التحـــرري

التطلعات الثورية في كل المكان . وفي كل مكان توجد عقيدة للإستحواذ عليها وامتصاصها وتوجيهها في الاتجاه المعاكس ز والمفارقة أننا أمام قوى هائلة تبحث عن التحرر , ولكنها لا تعمل في آخر المطاف إلا لتكريس عبوديتها .

إدقار موران

يمكن اعتبار المشروع التحرري العامل والقار الأول في تاريخ البشرية , والمفتاح النظري لفهم وتفسير هذا التاريخ , هدف هذا المشروع الأزلي تحرير الإنسان من القيود الموضوعية التي تفرضها التكنولوجيا , ومن القيود المجحفة والخيالية , والوهمية التي تفرضها الإيديولوجيا وكأن شعاره : " ما أقصر العمر حتى نضيعه في النضال " (النضال من أجل الخبز والكرامة والمعرفة) , لكن , النضال المستميت الدائم هو : قدرة الإنسان . ونحن لا نعلم هل سيحقق المشروع التحرري يوما حياة لا نضالية تشكل منعطفا في تاريخ الإنسانية نحلم به لكننا لا نتصور تفاصيله ؟

–المشروع التحرري عمل تاريخي لا يقف عند نمط حضاري – عقائدي , وهو متواصل بدون انقطاع منذ بداية التاريخ , وسيبقى متواصل في المستقبل , قارا عبر تغير الأشكال والأساليب .

–تتميز كل حضارة بتكنوإيديولوجيا(أو بالأحرى هي ليست أكثر من هذه التكنوإيديولوجيا) ولا تلغي الحضارة ما سبقها من تراث وإنما تنظمّه وتتجاوزه إيديولوجيا .

–ارتكزت الحضارة الأولى على الفكر السحري . الخرافي , و الثانية على الفكر الغيبي . الديني و الثالثة على الفلسفة المتعلمنة , في حين تبني الفلسفة الرابعة هيكلها الأيديولوجي على وحدة العلم و الخيال .

–تختلف أشكال التعبير على المشروع التحرري من حضارة إلى أخرى نظرا لتغير الأرضية التكنولوجية (و يكون التغيير هنا جذريا) . كما تختلف لكن بأقل حدة داخل كل حضارة , نتيجة تعدد الأساليب الممكنة و تعدّد مصادر التشريع , و الملاحظ هنا التناقص السريع بعدد الأشكال المقترحة لتفسير العالم و تنظيمه . فمن آلاف الأساطير إبان الحضارة الأولى , إلى أديان تعد على أصابع اليد الواحدة إبان الحضارة الثانية , وصل الفكر إلى تنظيمين فكر . سياسيين إبان الحضارة الثالثة .

–فشلت مشاريع التحرر للحضارتين السابقتين نظرا لعجز التكنولوجيا آنذاك عن توفير الحريات الثلاث , و عدم قدرتها على مواكبة طموحات المحررين . و قد أدى هذا إلى صمود التنظيم الهرمي الاستبدادي للمجتمع مع تغيير طفيف في قمة الهرم , و بقاء القاعدة ترزح تحت وطأة الحرمان . و في ظل استحالة توفير الحاجيات الأساسية لكل الناس و إنما لأقلية فحسب , تبلورت النزعة الاستبدادية في عقيدة التحرير أولا كوسيلة قمع إيديولوجي على الصعيد الفكري يفرض فكرة توفر الأغلبية المقموعة على مكاسب خيالية , كالانتماء إلى الشعب المختار أو إلى خير أمة أخرجت للناس , أو للحزب الطلائعي , أو

كوعدها بالجنة هنا , أم في عالم آخر .و ثانيا كوسيلة قمع سياسي لفرض مصالح الأقلية باسم المشروع التحرري القديم و المحنط .

–كلما تزايدت فعالية المعرفة في وصف العالم و التحكم فيه ,كلما ضعفت النزعة الاستبدادية في الفكر , لأنه من تمكنه من سلطة فعلية يغير حاجة إلى فرض سلطة ضعيفة أو خيالية .كذلك يمكن القول أن تزايد فعالية التكنولوجيا يخفف من وطأة الاستبداد الموضوعي الذي يعاني منه الإنسان , لكنه لا يلغيه تماما و إنما يغير من نوعيته في بعض الجوانب .

–من السذاجة اعتبار العقائد مجرد تشكيلات فكرية تتلخص مهمتها في النطق بالحقيقة . فهي أولا و قبل كل شيء مشاريع تحررية فشلت و تحجرت لأسباب الذاتية و الموضوعية التي تعرضنا لها .

إلا أن هذه الصبغة التحررية للعقيدة تكتشف مع ظهور كل جيل جديد عبر شبابه الذي يحاول إعطائها نفسا جديدا لكن بدون جدوى , نظرا لتواصل عمل الأسباب المذكورة . فتزايد تحرر الإنسان من شتى أصناف الاستبداد مرتبط أوثق الارتباط بتزايد فعالية التكنوإيديولوجيا أي بتزايد فعالية الإنتاج المادي الفكري .

–مما يسهل ظهور الاستبداد من الناحية الفكرية ارتكاز الفكر الغيبي الديني على مفهوم إله ينطق بالحقيقة المطلقة , ونبي يترجم لها , و ارتكاز الفكر الفلسفي المتعلمن على مفهوم بسيط وسطحي للعلم كتجسيد آخر (لكن إنساني) للحقيقة الشاملة . فالحقيقة دليل كل شيء و لا شيء دليل عليها صالحة في كل زمان مكان , لا تناقش و لا تصحح الخ ... الخ ...و ربما أن الفكرة هي سلطة (أو إرادة سلطة) فإن الطبيعة الشمولية للحقيقة . السلطة تمخضت إجباريا عن المذاهب السلطوية .

–يعوض النقص الحاصل في تحقيق المكاسب الموضوعية (الحريات الثلاث) نظرا لقصور التكنولوجيا بتحقيق مكاسب خيالية , تفرض الإيديولوجيا التشبث بها للتغطية على فشل المشروع التحرري .

–يتعرض الإنسان المعايش لفترة الانتقال من حضارة إلى أخرى إلى خطر الانفصام الفكري العاطفي , فهو مجبر على التعامل مع تكنولوجيا جديدة تفرض بصفة مبهمة لكن قوية خلفياتها الإيديولوجية , في الوقت الذي لا يزال فيه متشبعا لإيديولوجيا قديمة أصبحت على طريق التواري نظرا للاندثار البطيء لتكنولوجيتها .

تعيش أغلبية العرب هذا الانفصام نظرا لمعايشتها مرحلة الانتقال من الحضارة الثانية إلى الثالثة و صعوبته .

إلا أن تصاعد سرعة التاريخ بدأ يفرض تحديا آخر على القطاعات المتقدمة من المجتمع , أي الانتقال من الحضارة الثالثة نفسها إلى الرابعة مع كل ما يعنيه هذا الانتقال من ضرورة إعادة تصور العالم وصياغة جديدة للمشروع التحرري . نحن إذن مطالبون اليوم لإعادة صياغة تصورنا للعالم وفق المعلومات العلمية المتوفرة عنه , و كذلك إعادة طرح المشروع التحرري وفق المعطيات الجديدة للتكنولوجيا .

–لا يمكن لمثل هذه العملية الفكر . سياسية أن تكون امتداد لما سبق , و من ثمة ضرورة القطيعة الابستمولوجية مع الماضي علما أن هذه القطيعة لا تعني رفض التراث بقدر ما تعني تجاوزه , باعتباره تجربة تاريخية يمكن أن نتعلم منها (خاصة من سلبيات) , لكن لا يمكن أن نكررها أو أن نجعل منها المرج المقياس لتنظيم اليوم أو الغد .

–تهيكلت الحضارة الأولى على إنتاج الصياد , و الثانية على إنتاج الفلاح و الثالثة على إنتاج العامل بالساعد , أما الحضارة الرابعة فقوامها إنتاج العامل بالفكر .

–تمحورت جدلية التحرر و الاستبداد إبان الحضارة الثانية على المواجهة الفكر . السياسية بين الفلاح و الإقطاع , و بين العامل و الرأسمالي إبان الحضارة الثالثة , و ستتمحور نفس الجدلية بين الطبقة الجديدة التي تفرزها التكنولوجيا الجديدة أي العمال الفكريين و بين الأشكال الاستبدادية . الموروثة و الجديدة .

–تشكل طبقة العمال الفكرية القوة الاجتماعية الفعالة الجديدة . فالفلاحون القدامى مؤهلون لانقراض عاجلا أو آجرا , و كذلك العمال بالساعد , نظرا لظهور الروبو وسائر التقنيات الحديثة الأخرى .

تستمد الطبقة الجديدة وجودها وقوتها من تغيير طبيعة الإنتاج نفسها . فالاقتصاد المتقدم مبني أساسا (الثلثين تقريبا) على إنتاج الخدمات و المعلومات و الابتكارات الحديثة , وهو إنتاج يستهلك أساسا الطاقة المستقبلية الكبرى : الذهنية و هي طاقة لا تمتلكها إلا هذه الطبقة .

–تختلف الطبقة بصفة جذرية عما يسمى بالمثقفين , فهي أهم و أوسع و أشمل من هذه الشريحة التي بقيت طوال الحضارتين السابقتين هامشية , نظرا لهامشية إنتاجها و من ثمة دورها الضعيف و التابع آنذاك .

–كمية المعلومات الأزمة لصنع و استعمال المحراث متواضعة بالقياس إلى المعلومات الأزمة لصنع واستعمال مغزل آلي , لكن هذه المعلومات الأخيرة لا تكاد تذكر بالنسبة للكمية التي يجب أن تتوفر لصانع و مستعمل العقل الإلكتروني أو الزراعة البيولوجية أو الإنتاج الصناعي بالروبو أو الإنتاج العلمي و الفني .

هناك إذن قانون يسن كالآتي : و تتزايد بصفة رهيبة عدد المعلومات الأزمة للإنتاج بتطور الحضارات و من ثمة تتزايد الفعالية

––يتمحور المشروع التحريري لهذه الطبقة على الصعيد الفكري حول ضرورة كسر الأطراف الفكرية الجامدة و المتحجرة للحضارتين السابقتين , و كذلك في ترتيب البيت النظري على كل المستويات وفق المعطيات الجديدة للعلم و التكنولوجيا .

–فكر الحضارة الرابعة هو حصيلة عمل الدماغ الجماعي و هو لا هرمي مبني على اتحاد العلم و الخيال , متحرك , متجاوز لذاته , متجدد عبر موته , لا يحد بحد , لا يستجد في شكل منتهى و لا يخضع لسلطة نبي , و هو كفكر علمي , عالمي بالطبع يجهل الحدود أكانت سياسية عقائدية , أم عرقية , و بالتالي فهو حاليا أرقى أشكال الفكر البشري المتطور عبر مختلف تجاربه التاريخية .

يستمد هذا الفكر فعاليته من التصاعد الهائل للسرعة لعدد الأدمغة المتعاملة بفعالية متزايدة مع العالم ويختلف في هذا عن الفقر المدقع في عدد الأدمغة الفعالة كما عرفته تجربة الحضارتين , ويمكن الفرق هنا أيضا بفعالية وسائل التعليم والأعلام الجديدة التي ولدتها تكنولوجيا الغازية .

–ظهور هذا الفكر بتغلغل التكنولوجيا الحديثة التي تسنده , أما فكر الحضارتين فسيبقى قائما ومسيطرا طالما لم ينخفض عدد الفلاحين والعمال بالساعد بصفة جذرية , وطالما بقي عدد العمال الفكريين قليل نسبيا

–عندما نقول أن الفلاح مبرمج للانقراض إبان الحضارة الرابعة فإننا نعني بذلك انقراض الفلاح الفقير معلوماتيا , المتعامل مع أدوات فقيرة فكرية , الخاضع المستكين لإقطاعي في الأرض و إقطاعي في السماء

(الشكل الخيالي المشخص على نموذج السيد لمصدر كل وجود وسر الكون المهيب) .

وعندما نقول إن العامل بالساعد مبرمج هو الآخر للانقراض فإننا نعني به العامل الفقير معلوماتيا , المتعامل مع أدوات أقل فقر فكريا من أدوات الفلاح , لكنها إجمالا فقيرة بالقياس إلى ما سيتبع , المضطر لسد رمق العيش لمزاولة عمل الرتيب آلي شاق بدنيا ونفسيا المستكين تارة والمتمرد تارة أخرى ضد تشكيلات هرمية سياسية فوقية ديمقراطية بالاسم أو شكلية , تسمح لأقلية بالتمتع بما هو محروم منه ز

لكن لا العامل ولا الفلاح سينقرض ,وإنما ستتغير بصفة جذرية الطبيعة والمهام الموكلة لكليهما . فالإنتاج الجديد لخيرات الأرض وللمواد المصنعة سيتطلب مستقبلا بروز نمط جديد من المنتجين , تعاملون مع أدق التقنيات الحديثة بغنى معلوماتي متزايد , لذلك يمكن تصنيفهم أي كان موقعهم من الإنتاج كعمال فكريين .

–لذلك يجب إعادة برمجة التعليم والإعلام , ولذلك يجب أن يدخل مائة في المائة من أطفالنا المدارس الابتدائية ومائة بالمائة منهم المدارس الثانوية و وأن تفتح الجامعة أبوابها لمائة في المائة منهم فاصلة التكوين عن حق التشغيل .

–يتلخص المشروع التحرري للطبقة الجديدة على الصعيد السياسي , في كلمة واحدة : الديمقراطية المتقدمة أي المشاركية . فهي وحدها كفيلة بتحقيق المناخ الذي يسمح للفكر الجديد بالتحرر (أي بالإنتاج) وهي وحدها الكفيلة , بتقوية الشبكة الدماغية المنتجة , وذلك بإدماج العدد الهائل من الطاقات التي جمدها وأقصاها نظام الهرم الاستبدادي للحضارتين السابقتين . والعلاقة بين الديمقراطية والطبقة الجديدة كما أسلفنا عضوية تستعصي على الحل , فالتعقيد الهائل للمجتمعات الحديثة الذي فرضته التكنولوجيا الجديدة هو الذي أفرز هذه الطبقة التي تملك بين أيديها كل الأوراق الهامة , وقد أدى شعورها بأهميتها إلى فرض الديمقراطية التي تزيد بدورها من قوتها , هذا مما يجعلنا نقرر أن الأشكال الاستبدادية القديمة تسن ضد الطبقة الجديدة وفكرها اليافع حرب مواقع خلفية . تختلف الديمقراطية المتقدمة للحضارة الرابعة عن الديمقراطية البدائية الشكلية للحضارة الثالثة , كما جربها الغرب , فهي ليست مؤساساتية فحسب وإنما هي ممارسة الأفراد في المعمل ,

والمكتب , والجامعة والعائلة نفسها , لسلطات مضبوطة , وذلك بحكم تعقيد القرار والارتفاع الهائل للمعلومات المطلوبة لممارسة كل عمل , وتوفر عدد متزايد من الناس على هذه المعلومات .

–تمثل تكنولوجيا الحضارة الرابعة , أهم أمل في عصرنا للتحرر الإنساني من الفاقة والمرض والجهل (وعلينا أن نلاحظ عرضا تصاعد فعالية التكنولوجيا عبر التاريخ) , فهي اليوم قادرة اعتمادا على تقنيات الهندسة البيولوجية على توفير الغذاء للجميع , بالتحسين المطرد للإعلامية والأقمار الصناعية الخ ... وهي تستطيع كذلك تخليصه من لعنة العمل الآلي والرتيب , بخلق ظروف أخرى للعمل الجديد المرتكز أساسا على خلق المعلومات وتوفير الخدمات والإنتاج الجديد .

–يمكن لأمم العالم الثالث بصفة عامة والأمة العربية بوجه خاص الالتحاق بركب التقدم على شرط أن نفهم فداحة الغلطة المتمثلة في إتباع طريق التصنيع القديم المحكوم عليه بالإعدام (والذي تنقله لنا البلدان الغنية تحت ستار نقل التكنولوجيا بغية التخلص منه وتأخيرنا) . فالطريق الصائب هو الانعطاف بمسيرتنا وتوجيه دفة السفينة مباشرة نحو التكنولوجيا الجديدة , فنخلق محابرنا للهندسة البيولوجية لصنع الأدوية والبروتينيات , ونلقح زراعتنا القديمة بالطاقات المتجددة والمشاتل الجديدة , ونصنع الروبو والعقل الإلكتروني والأقمار الصناعية , ونكثف استعمال كل التقنيات الحديثة في مصانع صغيرة وعصرية .

–علينا أن لا نغفل رغم حظوظ التحرر المتزايدة , من إمكانيات الاستبداد في تكنولوجيا الحضارة الرابعة . وللخطر مصدران أولهما إستيلاء القوى الاستبدادية القديمة عليها , وثانيهما وأهمها سيطرة القوى المنتجة لهذه التكنولوجيا أي الشركات العالمية العظمي التي أصبحت تتمتع اليوم بسلطات تحسدها عليها الدول الكبرى . وهذا ما سيعطي لجدلية التحرر والاستبداد في القرن المقبل أبعادا غير معهودة (كصراع نقابات عالمية مثلا ضد قرارات تعجز الدول " المستقلة " عن التعرض لها .

–ستبقى إشكالية التحرر مطروحة بصفة قارة , لأن تحقيق الحريات الثلاث لكل إنسان على سطح الأرض مشروعا جبار لن نشهد تحقيقه , لكن يكفينا شرفا أننا نعايش إحدى مراحله وأننا نعمل من مكاننا المتواضع في الزمان والمكان على دفعه ولو قيد أنملة إلى الأمام .

–بروز هذا الكتاب في الوقت الذي تتغلغل فيه التكنولوجيا الحديثة في العالم العربي مؤشر من بين المؤشرات للتغيير الكمي والنوعي الذي سنشهده . والكتاب في نفس الوقت إفرازة للفكر الجديد وعامل من عوامل دعم وتطوير هذا الفكر .

–كل هذه الأفكار مطروحة لتكون منطلقا للنقاش الرامي إلى إعادة ترتيب البيت النظري والخروج من المبتذلات والحلقات المفرغة , وذلك كمساهمة محدودة في عملية تحرر الإنسان بصفة عامة والعربي بصفة خاصة .

****

برنامج للعشر آلاف سنة المقبلة

إن الرهان الضمني لكل صراع تغيير طبيعة الحقيقة

فرانك هاربرت

لم يكن الفارق يوما بين الفكر والعمل , لأن الفكر عمل والعمل فكر وإنما بين الفكر اللافعّال والفكر الفعّال , بين العمل الفعال والعمل اللافعّال , لذلك نحن اليوم مطالبون جماعيا بإنتاج الفكر الفعال , لكي نفي بالوعود التي وعدتنا بها الحياة كما يقول ''نيتشه'' .

وبما أن العملية بالضرورة جماعية , لأن الحضارة الرابعة لن تعرف نبيا آخر سوى العقل منتجا ونتاجا , فإن علينا أن نتقاسم الأدوار شعراء وعلماء وأدباء وتقنيين وفنيين (بالديبلوم أو بدونه) حتى نكون هذه الشبكة الدماغية الفاعلة المنتجة التي ستحملنا إلى المريخ وما وراءه . والمهام بالنسبة للطبقة المنتجة للفكر في هذه المرحلة من التجربة العظمى التي تعيشها إنسانيتنا الخصوصية أي أمتنا العربية والمتميزة بعمق شعور الفشل والإحباط واهتزاز الثقة بالنفس والخزف من المستقبل و الخنوع للماضوية متعددة و خطيرة . و من المستعجلات رغم طول الأمد الزمني الذي يجب أن نخطط له :

1. رد الاعتبار للانسان و الناس :

و يكون بتجنيد القلم و الكاميرا و الريشة للتعريف بالبطولات اليومية الصامتة و المجهولة . و بالناس المتواضعين و المحتقرين و المضطهدين , فالأبطال المغمورون هم صانعوا التاريخ , فهم الموجة التي تطفوا على سطحها الزبد و الزبد هو كبار الذئاب الذين يدعون ما ليس لهم , و من ثمة فإن العمل الفكري مدعوا دائما إلى مواجهة التزييف التاريخ و إلى دفعه إلى الأمام في المسار الذي نريده و مسار اليوم هو في تحقيق برنامج المشروع التحرري بحرياته الثلاث . و قد أصبح لنا دليل على هذا الدرب الشاق الطويل ألا وهو وثيقة اسمها التصريح العالمي لحقوق الإنسان و هي وثيقة كتبت لا بمداد و إنما بدم الملايين من الأبطال المغمورين على مر العصور . لذلك نحن مطالبون أكثر من أي وقت مضى بالتجند لكي لا تضيع تضحياتهم سدى . مهمتنا الأولى في كل المستويات و عبر كل أشكال الإبداع الفني و الفكري و الأدبي إذن , تسخير كل الطاقات للتعريف بالدليل الجديد , للدفاع عنه , لبث أفكاره ,لتقصي كل التجاوزات و فضحها , لغرسه و تعهده نبتة صالحة في تربة غير صالحة , يجب أن يشتد عودها و تورق أغصانها لنستظل بها جميعا , لنحميها و تحمينا .

2. رد الاعتبار للأمة :

أمتنا أمة غريبة حقا , فهي تملك المقومات القوة ما لا تملك العديد من الأمم الكبرى و الصغرى . و مع ذلك فهي تمتاز بقدرة لا حد لها في احتقار النفس و قدرة لا حد لها في إثارة احتقار الغير .

أسباب الظاهرة معقدة , و المهم اليوم ليس أن نعود من جديد لتحليلها أو لمحاولة تجاوزها على الطريقة الماضوية أو الشوفينية أي بصفة خيالية و سحرية و إنما أن تستعملها كعلامة على الطريق الطويل , و أن نستمد منها القوة التي يخلقها رفع التحدي .

و التحدي كما رأينا هو النجاح عملية الانتقال من مجتمع متخلف تحكمه الوصاية و العلمية و الإقصاء , و تدارس فيه حقوق الإنسان , و تعطل فيه طاقاته الذهنية , فإذا بالتبعية الفكرية و العلمية و التكنولوجية تزداد ترسخا , إلى مجتمع مشاركي يعيد للناس دورهم و مكانتهم و العملية بطبيعة الحال شاقة صعبة , و قد لا تنجح . و لكن سنقرر أنها قابلة للنجاح , لأننا نتوفر في الواقع على أغلب الشروط الأزمة بحمل الأمة إلى المريخ . لكن كيف يمكن رد الاعتبار لها في هته الفترة المتسمة بعمق هذا الاحتقار القاتل

بصراحة علينا أن نتجاوز نوعين من حملة القلم : الشعراء المازوشيين الذين أغرقونا بكاء و نحيبا و يأسا خاصة بعد جوان **67** , و كأنهم كلاب تلتذّ بعضّ و لحس الجرح الدامي المتقيح و هم يذكرونني بالنائحات المحترفات في قرانا اللاتي تترصدن المآتم لإظهار براعتهم في خدش الخدين و لطم الصدر و الصراخ و العويل , و الحال أن لا الميت و لا الموت يهمهن .

و قد بنى الكثير من هؤلاء الشعراء شهرتهم على التمرغ في الوحل و الدم (و هو أمر يهمهم) لكن أيضا على تمريغ الأمة في هذا الوحل (و هو أمر يهمني) و أنا أكره حملة القلم الرسمي (الشرطة الثقافية) أكان القلم سياسيا فكريا أم دينيا , و الذين يذهبون بنا في الاتجاه المعاكس شعارهم المثل الفرنسي "كل شيء على ما يرام يا سيدتي المركيزة " و المثل العربي " ليس في الإمكان أبدع مما كان " . فهم مسؤولون عن عملية التمويه التي أدخلت الناس في بلبلة فكرية تمنعهم (على الأقل في البداية) من تكوين فكرة موضوعية عن أنفسهم ومشاكلهم , أقول أننا أصحاب القلم والريشة والكاميرا مطالبون ببلورة الصورة الجديدة للأمة . بيد أننا لا نستطيع أن نحدد هدف العملية إن لم نفهم أن الاحتقار القاتل ناتج عن شعورها بأنها تعيش تناقض واقع مر دون مستواها الطبيعي ومطامحها المشروعة , وعالما فكريا خياليا ينسج خيوطه رجال الإعلام الرسمي والأدب الرسمي والتاريخ الرسمي والدين الرسمي والفن الرسمي . وهي كخيوط العنكبوت المعدة للخطف والالتهام , لذلك تعيش يوميا الكذب والانفصام والمبالغة والتفاهة , والمزايدة . والمطلب الأول اللاشعوري الذي نستطيع نحن لا غيرنا تلبيته وإخراجها من الهلوسة الشيزوفيرينية , من الانفصام هذا المرض الخبيث الذي سلطته علينا الأنظمة السياسية . وهذا لن يكون إلا إذا استطعنا أن نقوم بالوظيفة الملقاة على عاتقنا: أن نكون صوت من لا صوت لهم , أن نمثل ملكة النقد والتقييم الجماعي , أن نشكل حصون مقاومة الاستبداد بشتى أصنافه , ولا نهادن حتى الحس الشعبي نفسه , أن نبلور للأمة تجربتها التاريخية لكن دون تزييف بغزو الماضي وتعريفها به , باختصار أن نمزق خيوط العنكبوت خيطا بعد خيط حتى تستطيع الأمة أن تكون لنفسها فكرة موضوعية عن نفسها . فلا يبقى رقاص العصاب يمر من جنون العظمة . لذلك يجب أن نقول لها إنها أمة عظمى وإن عظمة مشاكلها بحجم العظمة نفسها , وإن هذا أمر طبيعي لا بد منه . لكن علينا أن نضع أمامها ماضيها الحقيقي وحاضرها الحقيقي , حتى تكتشف فيهما كل أسباب ضعفها وكل أسباب مناعتها .

ويكون هذا بإبراز كتابها وشعرائها ومغنييها " السريين " (الشعبيين كما يقال) , وبفضح كل وسائل التعتيم والتمويه والألينة التي تستعملها السياسة المكيافيلية . وأخيرا وليس آخر , بأن نخطط وأن نحلم وأن نبرمج لها البديل .

وليكن الأسلوب المتبع في عملية البلورة مناقضا تماما لأسلوب الشاعر المازوشي (البكاء) والشاعر الرسمي (الكذب). لنعتمد أهم سلاحين لتفتيت خيوط العنكبوت : منتهى السخرية ومنتهى الموضوعية . ولننعم بمنطلق الثقة في أنفسنا , لأن القوى الجيولوجية بصدد العمل داخل المجتمع , فالبراكين ستنفث حممها , وملامح البديل على الصعيد الفكري والسياسي والاجتماعي متواجدة لكن بصفة مبهمة غامضة وضعيفة . بيد أنها ستكتسب بمرور الزمن المتانة , وستتضح اتضاح ملامح الصورة على فيلم بصدد الإعداد . وبالتالي فإن دور حملة الفكر بشتى أصنافهم ليس في خلق الحركة بقدر ما هو في ركوب الموجة العاتية وتوجيهها في الاتجاه الذي نريد : عودة الروح . وتبقى مرحلة ترجمة الفكر إلى عمل , لكن هذه مسألة وقت لا أكثر .

3- ردّ الاعتبار للفكر :

ليكن الوضوح في هذا الميدان رائدنا . فقد طال اللف والدوران حول المحرم واللامقول , وعن هذا اللف والدوران نتج غيابنا كأمة منتجة للفكر في السوق الفكرية العالمية . وقد لا يريد البعض أن يجدد بضاعته لكننا نحن عرب الحاضر والمستقبل نريد أن تكون لنا مساهمة في السوق , وبضائع نقايض بها ما نتلقاه دوما من الشبكات الدماغية الرهيبة المنتصبة اليوم في أوروبا وأمريكا وآسيا . وهذا يتطلب كسر الحبل الذي يشدنا إلى الوتد الذي لازلنا ندور حوله منذ قرون أي انعتاقنا أو انعتاق الفكر فينا , بترسخ قناعات بديهية كهذه وانتشارها لتصبح جزءا من فكر الناس .

*إن المشروع التحرري يتجاوز المحرّرين والمحرّرين , وشتى وسائل التعبير عنه أو التوصل إليه عبر الزمان والمكان . فهو نهر متجدد متدفق تدفق الحياة نفسها .

*لا قدسية إذن لأي فكر مهما كان , فالقدسية للمشروع التحرري وحده أي للهدف الجماعي . لا لهذه الوسيلة أو تلك التي اعتمدت في زمن ما ومكان ما للتعبير عنه أو للتوصل إليه .

*إن أي إطار فكري عقائدي , أي الشكل الزماني المكاني للمشروع التحرري هو حصيلة عدد محدد من الأدمغة تتعامل مع عدد معين ما المشاكل الأزلية , لكن داخل خصوصيات يفرضها الزمان والمكان . أما الواقع فهو حصيلة عمل كل الأدمغة المتواجدة عبر الزمان والمكان والجزء لا يحتوي الكل , وإن ادعى لذلك يجب حشر الإطار العقائدي في الواقع لا حشر الواقع في الإطار العقائدي

*إن من طبيعة أي إطار عقائدي أن يجاهد على الحفاظ على وجوده . ولا يكون هذا إلا بتحريم الفكر خارج الحدود التي يضعها , لكن تجاوز الحدود إجباري عندما تتغير الظروف الموضوعية التي ولّدت الشكل الزمان المكاني للمشروع التحرري , ونحن نعيش مثل هذه المرحلة . لذلك يجب التفكير داخل لكن خاصة خارج الأطر القديمة , أكانت أطر الحضارة الثانية أو الثالثة .

*علينا التخلص نهائيا من المفهوم الإرهابي الأول : الحقيقة , إذ سنبقى ندور حول الوتد والحبل في أعناقنا إلى أبد الدهر , طالما صدقنا أن هناك إطارا شاملا كاملا نهائيا أزليا للمعرفة , يجب أن ندور في فلكه أو أن نتعيش عليه إلى نهاية التاريخ .

*سندخل في حالة من الشوزفرانيا الخطيرة إذا بدأنا في عملية التصارع حول حقيقة إطارين أو أكثر , والحال أن لا أحد من هذه الأطر يمكن أن يدعي امتلاك هذا المكسب الوهمي .

فالحقيقة ما نفعله يوميا بحياتنا وأفكارنا وتصرفاتنا وأخطائنا وأوهامنا , وليس كنزا خارجا من ذاتنا يملك البعض مفتاحه .

*إذا واجهك أحد بإحدى أصناف مقولة " ما أجمل الإسلام وما أقبح المسلمين " , أو بالمقولة المشابهة " يجب العودة إلى ماركس الحقيقي " وإن خطرت ببالك وصفة تجرب العديد من المرات , فتصيب وتخطأ وربما تقتل المريض أحيانا . فلا تجادل إذا لا جدوى من وراء ذلك خاصة وأن صاحبك بحاجة ماسة القناعة . وما عليك إلا بالصمت الذي لا يكون علامة الرضى , وإنما الشكل المؤدب للاستخفاف .

*عمّق إستخفافك هذا انطلاقا من تصور حي ديناميكي للتاريخ كتجربة عظمى وبطلها المشروع التحرري . في إطار هذا التصور الحي يتضح البعد الحقيقي لكل الحركات الفكرية والعقائدية . فهي لحظات هذه التجربة وبالتالي فإن هناك دوما ما يسبقها وما يتبعها . فلا وجود إذن لشكل نهائي أزلي قار يمكنه استيعاب التعقيد المريع للواقع وخاصة حركيته التي هي حركية الحياة نفسها

*القضية إذن ليست في الدخول في جدل عقيم حول موضوعية أو حقيقة أو قدسية شكل عقائدي أو فكري أو فني بقدر ما هي في فهم دوره ومكانه داخل تصور التجربة العظمى .

*حتى نستطيع أن نفهم هذه المكانة وهذا الدور فإن علينا اعتبار مقاييس أخرى للبت في المشاكل التي يطرحها وجود الإطار العقائدي (أو الفكر , الفني , السياسي الخ) , والمقاييس المقترحة ليست في تطابق مع حقيقة موضوعية وهمية وإنما في ثلاث تلقى بشكل سؤال :

ما هي الإنجازات التي حققها الشكل المطروح للتقييم (أتحققت هذه الإنجازات على الصعيد الموضوعي أو الخيالي لا يهم) وذلك اعتبارا لمطلب الحريات الثلاث ؟

ما هي السلبيات التي ولدها هذا الشكل ؟ وهي سلبيات ضرورية لازمة مصاحبة لتطور التجربة , إفرازت طبيعته لا يمكن تفاديها .

ما هي أشكال المقاومة والتجاوز التي تثيرها الإفرازات السلبية , وكيف تلعب دورها في إعادة الحركة إلى المشروع التحرري المجمد في قالبها ؟

*دور الفكر الحي إذن في خلق التجربة وتقييمها أيا كانت طبيعتها , وايا كان محتواها , وهو يمرض عندما يصبح سجين مخلوقاته , أو عندما ينسى وظيفة التقييم لكي يقنع بوظيفة الإثبات , أي بالإصرار على مواقفه إصرار البغل عن عدم تجاوز العقبة التي يخيفه ارتفاعه فيرفض تسلقها مكتفيا بالدوران حولها .

*لقد الفكر العربي في إطار طفرة من الخلق والإبداع إبان الحضارة الثانية ملامح برنامج تحرري عظيم ومشى في تحقيقه خطوات . لكنه وضع أيضا الحدود التي قيدته , وبمرور الزمن تهشم حلم التحرر وبقيت الحدود .

*بانتقال المجتمع العربي من الحضارة الثانية إلى الثالثة , انقسم الفكر مثلما انقسم المجتمع , فبقي نصفه متشبثا بطرق التعبير والتغيير لحضارة أصاب دعائمها انجراف . ودك زلزال التكنولوجيا الغازية , بينما هاجر النصف الآخر إلى الأطر الجديدة الأكثر تلاؤما مع الواقع التكنولوجي وكان من الطبيعي أن ينشب بين النصفين صراع هائل لا زال دائرا إلى اليوم وهذا في الوقت الذي بدأت فيه تتضح معالم انجراف جديد بصدد تهديدهما معا

*لا زال الفكر العربي يسخر قدراته للاثبات لا للتقييم : أكان ذلك لإثبات أولوية الإسلام أو أولوية الماركسية أو أولوية الليبرالية أو هذا النظام السياسي أو ذاك , لذلك هو فكر تابع , غير خلاق لأن الخلق لا يكون إلا بالتجاوز وتجاوز التجاوز ... بلا نهاية .

*أسباب هذا العقم موضوعية (تغير التكنولوجيا المتسارع المفروض من شبكات دماغية خارجية) , ولكنها أيضا ذاتية , فالفكر العربي مريض بعقدة لابرويار , ولابرويار هذا أديب فرنسي قال في القرن الثامن عشر مقارنا معاصريه بالقدماء والكلاسيكيين من أدباء وفلاسفة الإغريق والرومان " لقد قيل كل شيء ووصلنا متأخرين " **tout est dit et nous venons trop tard** " لا شك أن لابرويار هذا أحسن ممثل للنزعة المحافظة السلفية اللاتجريبية للفكر في كل زمان ومكان . لا شك أن دهشته كانت ستؤدي به إلى مراجعة هذه المقولة الغبية لو فتح له آلة ساخر عينيه على شاشة المستقبل ليشاهد ولادة فلسفة هيجل وكانت وهايدجر وماركس , وعلم داروين وواطسن وكريج , والموسيقى موزار وبتهوفن , والفن لاكروا وبيكاسو وطب باستور وفلمنج , والصواريخ والعقل الإلكتروني والتلفزيون والقنابل الذرية , وربما فهم آنذاك إن الهام والأهم في الطريق .

*علينا إذن أن نردد : " لم يقل شيئا إلى حد الآن و لم نصل متأخرين " على العكس ما يظنه المصابون بعقدة لابرويار , فالهامّ و الأهم مازال أمامنا . إلا أنه لا بد هنا من التوضيح فالقضية ليست معيارية كأن نتصور أن الفكر يتقدم من حسن إلى أحسن , و أننا سنأتي بما لم يستطعه الأوائل . فقد نحقق جزء من المشروع التحرري حيث أخفقوا , بتحقيق الحريات الثلاث . و قد يكون إخفاقنا أعمّ و أشمل إن نحن لوثنا العالم و دمرناه . و القضية هي في الوعي بان على كل حضارة في زمن ما و مكان و على كل جيل داخل هذه الحضارة أن يرفع التحديات المواجهة بها , خاصة و أن هذه التحديات تتعمق من جهة بتعدد العمليات الفاشلة و تكررها , و من جهة أخرى بما أسميته بتصاعد قيمة الرهان . و الأخطار المحدقة بنا تتعاظم في نفس الوقت التي تتعاظم فيه إمكانيات الفكر و التكنولوجيا . معنى هذا أننا لا نستطيع و أنه لا يحق لنا أن نكتفي باعتماد أساليب و وسائل جيل مكان و زمان لحضارة ما لحل مشاكلنا حاضرا و مستقبلا , و إن علينا إيجاد الحلول بأنفسنا فتجربة الماضي هامة , لكن تجربة الحاضر و المستقبل أهم بكثير لسبب بسيط , هي أنها ... تجربتنا نحن .

*لنتصور دماغنا الجماعي العربي في هاته اللحظة الزمنية من تجربتنا العظمى و هو كما نعرف مواجهه بتحديات رهيبة : الفوضى و التناقض و التضارب داخله , و الدوران في الحلقة المفرغة , و التبعية , و من ثمة ضحالة التعامل مع التعقيد الهائل الذي تفرزه شبكات الدماغية الفعالة والمنتجة و عجزه عن تغذية هذا التعقيد .

و المطلوب مبدئيا هو وضع حد للفوضى لكن هذا الأمر موكول به إلى غربال الزمان فالأفكار القديمة لا تذوب و لا تختفي و إنما تترسب الطبقات الجيولوجية , و المهم ليس أن ندخل في حرب معها , فالتجربة كفيلة بها , و إنما أن نأخذها على ما هي لحظة من لحظات التجربة العظمى و بعض من ملامحها , أما دورنا فإنتاج الجديد و هذا يتطلب أن لا تبقى أنظارنا مشرئبة إلى الوراء , و أن ندير العنق للنظر إلى الأمام و سنكتشف آنذاك أمامنا مساحة لا تحد بحد لكنها فارغة . إنها مساحة العشر آلاف سنة المقبلة التي تنتظر أن نملأها بآلاف العقائد و الفلسفات و العلوم و التقنيات و شتى أصناف الفنون و التنظيمات الاجتماعية التي لا تخطر لنا ببال في ميادين مختلفة كالزواج و التربية و العلاقات البشرية و السياسية الخ ...الخ ...نحن إذن مطلوبون إبان العشر آلاف سنة المقبلة أن نعمل المخيلة أن نسخر الذكاء و نجنب كل الأدمغة لدفع المشروع التحرري قدما ليتجاوز التجاوز في حركة لا تنتهي و لا تتوقف عند نتيجة .

و لم هذا ؟

. لأن الحقيقة غاية لا تدرك و الكمال (لله و حده) و التجارب قاسية مريرة . و نحن مدفوعون من الخلف بضرورة تجاوزها حتى و إن تعامينا عن فشلها أو درنا إلى درجة الإغماء داخل حلقاتها المفرغة , و نحن أيضا مجذوبون , مشدودون إلى الأمام , بهذا الأفق الذي يتباعد كلما اقتربنا منه ألا وهو تحقيق المشروع التحرري لإخراج كل الإنسانية و كل إنسان من الظلمات إلى النور , و من ثمة فإن دور الفكر العربي في متابعة حواره مع نفسه و مع فكر الشبكات الأخرى و مراجعته لتجاربه الماضية و تجديدها حسب التحديات المتجددة و خلق عدد لا متناه من منتوجاته إلى أن تستقيم المعزوفة نسبيا و تصبح القصيدة موزونة , و ألوان اللوحة أكثر جمالا و إشراقا و روعة , فقضية الفكر العربي اليوم ليست عجزه عن نحت حقائق الغد و إنما في تأرجحه بين التبعية و الماضوية و التمرد المشنج ضدها , أي بين العجز و التجاوز المصحوب بالشعور بالذنب و الإثم .

و قد آن الأوان لأن نقول : لا تبعية و لا تمرد , لا إحباط و لا إثم , و إنما تقييما لما مضى و خلق لما سيأتي , فالتفكير حق و التفكير واجب و يوم تستشري القناعة إنه حقا حق وواجب وأنه فالريح لا يحد بحاد , فإن المارد سيطلق من عقاله , و ستعود للشبكة العربية القدرة على خلق المستقبل و قيادته , لا تحمله و الانقياد له .

و أخيرا و ليس آخرا لننتبه إلى خطورة مسؤوليتنا نحن حملة الفكر . فالفكرة بذرة من البذور ما يموت و ما ينبت من القمح أو كالشوك .

و قد سبق أن قلت أن الفكر عمل والعمل فكر , لذلك نحن مسؤولون عن أفكارنا مثلما نحن مسؤولون عن أعمالنا , فالكثير من الأعمال البشعة تولدت عن أفكار مسمومة . فكم من مذابح و فضائع , ارتكبت في حق الإنسان و الناس و الأجناس و الشعوب , باسم أفكار نظر لها البعض عن وعي أو لغباء مجرم , وجد فيها كبار الذئاب التغطية النظرية و التبرير لكل الموبقات .

لذلك أقول لنزرع النبتة الصالحة و النبتة الصالحة إذن تقييمنا للماضوية عمليا موضوعيا بدون تشنج أو مغالات في العنف و الرفض , لأنها رغم كل شيء جزء لا يتجزأ من ذاكرتنا و تجربتنا الجماعية مشروعنا التحرري القديم و لبادر إلى دفع مسار التجربة إلى الأمام لغرس أفكار حقوق الإنسان المشاركة و حرية الفكر , و لنجعل من كفاحنا من أجل إعادة الكرامة إلى الأمة عملا تحرريا موجها ضد شياطيننا الذاتية لا ضد الآخرين . و لنبحث مع الشبكات الدماغية الأخرى عن نقط الالتقاء و فرص التعاون . فالمغامرة جماعية و الإنسان جسم واحد لا يمكن لعضو فيه أن يتنعم بالصحة إن صاح عضو آخر من فرط الألم ... ذلك هو الطريق إلى أفق العشرة آلاف سنة المقبلة إن أردنا أن نصل ..وقد نصل أو لا نصل ، المهمّ أن نحاول وحسبنا الصدق ونعم الدليل .

****